روايات جورجي زيدان

(دراسة تاريخية)

الدكتور
عبد الجواد محمد المحص
أستاذ الأدب والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
بالاسكندرية

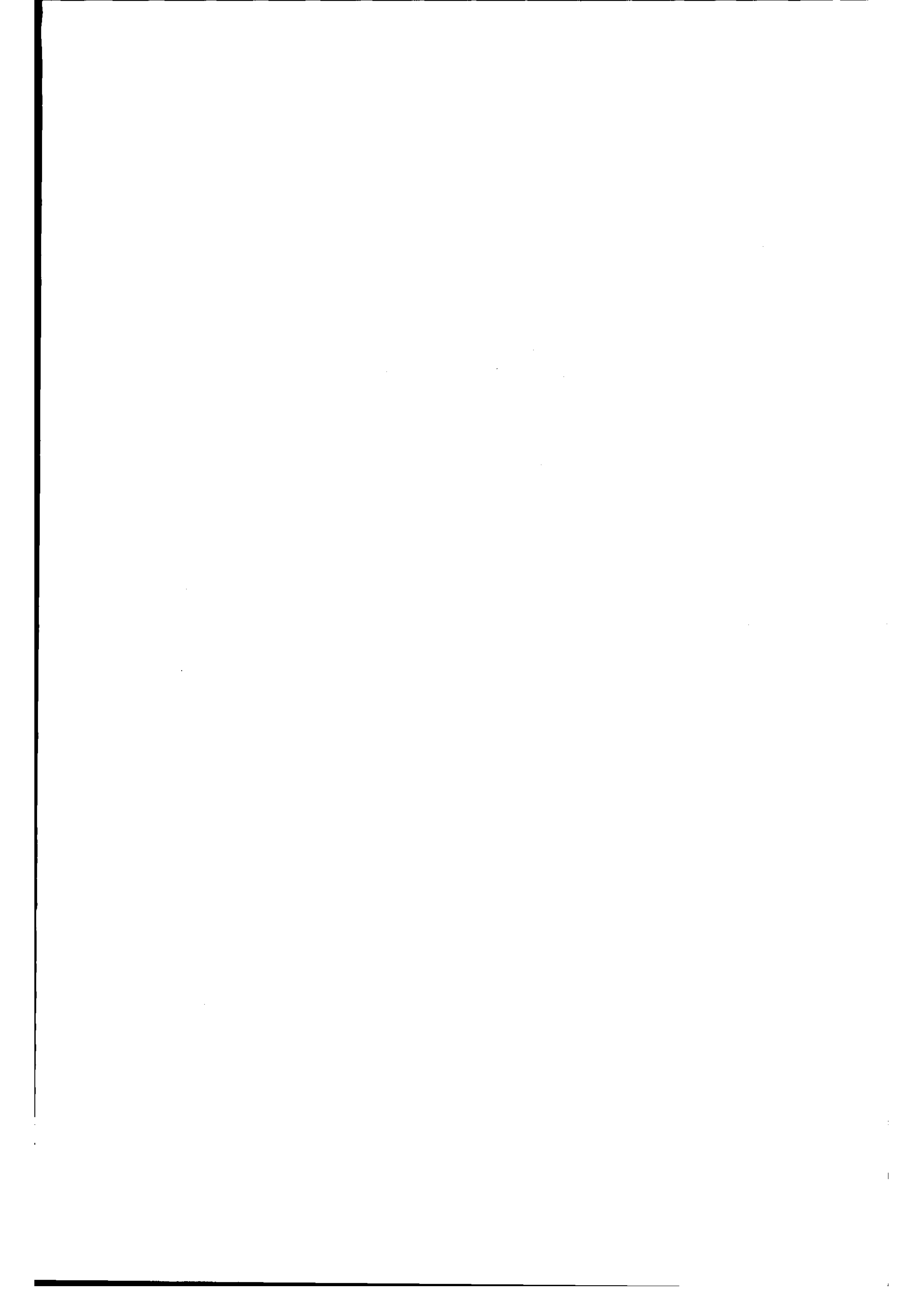
www.geocities.com/gwadmhs
www.geocities.com/noonnet٢٠٠٣
gwadmhs@yahoo.com

مكتبة النهضة المصرية

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م

الإهداء

- إلى الأقمار المطلة من عالم الحق فى سماء الإسلام العظيم.
- وإلى كل محب للحقيقة ينشدها حيثما كانت مطالعها.
- وإلى كل من يعشق شمسا لا تغيب، وقمراً لا يأفل، وسراجا لا ينطفئ.



تصدير

الحمد لله حمداً كثيراً يوافى نعمه، والصلاة والسلام على رسوله الكريم سيدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وأصحابه، وأزواجه وأحزابه، وأتباعه وأحبابه، ومن اهتدى بهديهم، وسار على نهجهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن التاريخ هو السجل الخالد الذى يبحث في أعمال الإنسان وعلاقته بأخيه الإنسان في أنحاء الدنيا. وهو النافذة الواسعة التى نطل منها؛ فنرى صور الماضين السابقين وأحوالهم، وما كانوا عليه في مختلف أنحاء حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية.

وحسب التاريخ أهمية ومكانة أنه فن غزير المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، كما وصفه العلامة ابن خلدون[1]. فهو يقص أنباء الأنبياء والمرسلين، وأخبار الملوك والدول والشعوب، وسيرة الأفذاذ والأبطال والعلماء والكتاب والشعراء، وأرباب الفنون والصناعات، ومن لف لفهم، ونحا نحوهم.

وقد اتفق المؤرخون والنقاد على وجود صلة وثيقة بين التاريخ والأدب، ويكفى أن نذكر ـ في هذا التقديم ـ من مظاهر تلك الصلة: أن دارس الأدب بكل أشكاله المعروفة (شعرا ومقالة وقصة .. إلخ) يعتمد على مصادر التاريخ في معرفة العصور التى عاش فيها الأدباء، ليقوم إنتاجهم الأدبى تقويماً صحيحاً متكاملاً. كذلك نذكر من هذه المظاهر: ما اتخذه المنهج التاريخى من مكان مرموق بين بقية المناهج الأدبية والنقدية المعروفة. ونذكر أيضاً: أنه لولا التاريخ ما كان ذلك الجنس الأدبى الروائى الذى اصطلح النقاد على تسميته بـ (الرواية التاريخية)، فهى تستمد من التاريخ موضوعاتها، وتستلهم من أحداثه وشخوصه مادتها.

---

(١) المقدمة: ١/ ٣٦٢ ط الدكتور علي عبد الواحد.

ولسـت أرانـي مـبالغا إذا قـررت أن الـرواية التاريخـية تسـمو - بموضـوعاتها وأهدافها - علـى غيرها من أنـواع الـروايات؛ إذ هـى تعيد بعث الماضـى مـن جديـد، وتحيـى ذكـرى عصور وشخصيات وأحـداث ومواقـف ذات أهمـية بالغـة فـي الـتاريخ. علـى أنهـا تخلـو ممـا نـراه فـي الـتاريخ المحـض مـن جفـاف، وفـيها مـن الفـن: إشـراقة الأسـلوب، وروعـة التصـوير، وتحلـيل الشخصيات، وتفسير الأحداث، واستكمال الحلقـات المفقـودة منـها. وفـيها مـن الـتاريخ: صدق الحقيقة، وتوثيق الصلة بالماضى، وتجميل أحداثـه فـي عيون الـناس. وحسب الـرواية التاريخية منزلة أنهـا وإن اتخذت مـن حـوادث الـتاريخ مـادة روائـية لهـا، لا تنقل الـتاريخ نقلاً حرفياً مباشراً، وإنما تصور رؤية مؤلفها للـتاريخ، وسـعيه الـدائب وراء توظيفه لأحداث مضت من أجل غايات نبيلة تعبر عن تجربة من تجاربه، أو عن موقف من مجتمعه .. وما إلى ذلك من غايات.

وإذا كانـت المجتمعات الأوروبية قد عرفت هذا اللـون الـرفيع من الفن القصصى علـى أيـدى اسكندر دوماس الأب (في الأدب الفرنسى)، والسير وولتر سكوت (فـي الأدب الانجليزى) وأمثالهما، فإن المجتمعات العربية قد سبقتها إلى ذلك، فقد أبـدع الإنسـان العربـى القصيدة التاريخية منذ العصر الجاهلى، وتغنى الـرواة العـرب الشـعبيون - علـى امـتداد العصـور - بكثيـر مـن ألـوان القصـص الشـعبى الـذى اسـتمد مادتـه مـن الـتاريخ العربـى الحافـل بالشـخوص والأحـداث والمحـاورات. ومـا يـزال الـرواة الشـعبيون إلـى يومـنا هـذا يشيعون بين العامة ما ألفـه العـرب مـن روايـات تاريخية شعبية معروفة لـنا جميعا مـثل قصة سيف بن ذى يزن، وسيرة عنترة بن شداد العبسى، وحكايات ألف ليلة وليلة التى قصتها شـهرزاد على شهريار ، وقصة على الزيبق، وقصة الملك الظاهر، وحكاية الزير سالم، وسيرة أبى زيد الهلالى وما شابه ذلك.

وإذا كـنا لا نستطيع إدراج هـذه السـير التاريخـية الشـعبية ضـمن قائمـة الـرواية الفنـية الحديـثة لطغيان الخـيال فيها علـى الحقيقة، وافتقادها الكثير من المقومات الفنية للقصـة التـى يعتد بهـا الـنقاد، فـإن الـرواية التاريخـية الفنـية قد عرفت طـريقها إلـى الأدب العربـى الحديث، كمـا سيجئ التفصيل -وظهرت - أول

ما ظهرت - على يد سليم البستاني (١٨٤٨ - ١٨٨٤) مترجم إلياذة هوميروس، حيث أصدر في هذا المجال ثلاث روايات هي (زنوبيا، وبدور، والهيام في فتوح الشام)، وقد مزج فيها بين الأدب والتاريخ، فكان - بحق - رائد الرواية التاريخية العربية وأباها الذى فتح السبيل أمام غيره ليحاول السير بها خطوات أخرى. فقد واصل الكتاب العرب ما بدأه سليم البستاني، فتعددت الروايات التاريخية، وأخذت في النضج والازدهار يوماً بعد يوم، وكثر مبدعوها وكتابها من أمثال: جميل نخلة المدور، ويعقوب صروف، وفرح أنطون، وأحمد شوقى، وإبراهيم رمزى، وعلي الجارم، ومحمد سعيد العريان، وعلي أحمد باكثير، وعبد الحميد جودة السحار، ونجيب محفوظ، وجمال الغيطاني .. وغيرهم كثيرون.

ولن أتخذ من الأسباب التى دفعتني لكتابة هذا البحث عن روايات جرجى زيدان التاريخية ما شاع في الأوساط الأدبية والنقدية حتى بلغ درجة الإجماع من أن جرجى زيدان هو أبو الرواية التاريخية العربية، ورائدها الذى مهد الطريق لغيره، على شاكلة قول الدكتور سهيل إدريس: "إنه - أى جرجى زيدان - دون منازع خالق الرواية التاريخية عندنا، وألمع وجه بين وجوه الروائيين التاريخيين"(١).

وقول الأستاذ محمد عبد الغنى حسن: "الجرجى زيدان مكان الرواد في تاريخ العرب، وتاريخ الحضارة الإسلامية، والروايات التاريخية، وهى ميادين كلها أبكار، وروضات كلها أنف، لم يرتدها أحد قبله، فارتادها الرجل .."(٢).

"ويكفيه أنه ارتاد الطريق لمن جاءوا بعده. وريادته في هذا البلد تشبه من وجوه كثيرة ريادة الدكتور يعقوب صروف في علوم الطبيعيات والفلسفة، فكل منهما إمام في هذا الميدان وسابق فيه"(٣).

---

(١) القصة في لبنان لسهيل إدريس: ص ١٩ ط ١٩٥٧ م.

(٢) جرجى زيدان لمحمد عبد الغنى حسن: ص ٤ - الكتاب رقم ٩١ من سلسلة أعلام العرب.

(٣) السابق: ص ٦٦

وقول الأستاذ عبد الفتاح عبادة ـ المعاصر لزيدان ـ : "من مآثر الفقيد العظيمة وخدماته الجليلة للغة العربية وتاريخها إدخاله إلى البلاد الشرقية هذا النوع الجميل من الفنون الإنشائية بعدة روايات مأخوذة من تاريخ الإسلام تفصل حوادثه وتوضح خفاياه بأسلوب يشوق للمطالعة مما لم يسبق له مثيل في عالم الروايات. ولا يختلف اثنان في أنه هو أول من عني بهذا الفن في اللغة العربية. بل هو أول من أقدم على وضع تاريخ أمة أو أمم عظيمة كالتاريخ الإسلامى وهو تاريخ الشرق وأكثر العالم في القرون الوسطى في سلسلة روايات على هذا الشكل. ولا يعرف بين كتبة العالم من أقدم على هذا قبله"[1].

فكل هذا، وما شاكله من ادعاءات ومزاعم[2] في هذا المجال يخالف الحقيقة التى سبق بيانها، وهى أن سليم البستانى هو أبو الرواية التاريخية العربية ورائدها الأول.

نحن لا ننكر أن جرجى زيدان كتب اثنتين وعشرين رواية سمتها دار الهلال التى طبعتها لأول مرة ـ وما تزال تعيد طباعتها ـ "روايات تاريخ الإسلام" ! ولكن إقرارنا بهذا لا يجوز أن ينسينا حق الأولية للعلامة سليم البستانى بن العلامة بطرس البستانى الذى سبق زيدان إلى كتابة الرواية التاريخية بأكثر من عشرين عاماً.

وإذا كان مصطلح (الريادة): يعنى السبق تارة، ويعنى: الصدق التاريخى والتفوق الفنى تارة أخرى، فإننى لا أتجاوز الحقيقة، ولا أتجنى على زيدان إذا نفيت عنه الريادة أيضاً بهذين المعنيين، فلا هو سابق غيره لكتابتها

---

(١) جرجى زيدان بقلم مجموعة من الكتاب: ص ١٢٩ ط دار الهلال ١٩١٥.

(٢) ينظر – مثلاً -: الأدب العربى في آثار الدارسين، د/ صالح أحمد العلى: ص ٤٤ ط بيروت ١٩٦١، والتاريخ والمؤرخون في مصر، د/ جمال الدين الشيال: ص ٢٢١ ط القاهرة ١٩٥٨، وتطور الأدب الحديث في مصر، د/ أحمد هيكل: ص ١٩٦.
والأدب والحياة في المجتمع المصرى المعاصر، د/ ماهر حسن فهمى: ص ٥٧ ط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، سلسلة المكتبة الثقافية، العدد ١١٠، يونيو ١٩٦٤، والأدب العرب الحديث ومدارسه، د/ محمد عبد المنعم خفاجى: ٢/ ٤٤٠ ط دار الطباعة المحمدية بالقاهرة والفنون الأدبية وأعلامها، أنيس المقدسى: ص ٥١٧ ط بيروت ١٩٦٣ م.

كما سبق القول، ولا رواياته التاريخية متمتعة بالتفوق الفنى والصدق التاريخى، كما سيجئ التفصيل.

اللهم إلا إذا كانت الريادة تعنى كثرة الإنتاج للأعمال الأدبية، فإن زيدان حينئذ يتفوق على كل كتاب الرواية التاريخية العربية (سابقاً ولاحقاً)؛ لأنه كان (مؤسسة روائية) أصدرت اثنتين وعشرين رواية ما بين عامى ١٨٩١، ١٩١٤ م، فهو يتفوق على من عداه من كتاب الرواية التاريخية العربية بالكم الهائل الذى كتبه في هذا المجال كما سيجئ البيان.

وأياً كان الأمر في قضية الريادة والأحق بها للرواية التاريخية الفنية العربية، فإن ادعاء الكثرة الكاثرة من الباحثين بأن زيدان هو الرائد والأب لم يكن من الأسباب التى دفعتنى ـ كما سبق القول ـ لكتابة هذا البحث، وإنما هناك أسباب أخرى أكثر أهمية وخطورة، وأقوى دافعاً وحافزاً لدراستها، يأتى في مقدمتها: أن هذه الروايات المستمدة في إطارها العام من التاريخ الإسلامى ما تزال حتى يومنا هذا تصدر وتنشر في طبعات أنيقة بديعة بأغلفة تحمل صوراً ملونة جميلة، وعناوين ذات صبغة نسائية غرامية تستهوى شباب المسلمين، وتباع في السوق الثقافية (مكتبات ومعارض) بأرخص الأثمان ! ولا يدرى أحد من قرائها ـ وأغلبهم غير متخصصين في التاريخ والعلوم الإسلامية ـ أن مؤلفها ذو انتماء دينى لا صلة له بتاريخ الإسلام والمسلمين، وأنه قد تعمد فيها ـ عن سوء قصد، لا عن جهل ـ التخريب والتجريح، والكذب والتزييف، والمغالطة والتشويه، والدس والتحريف. ولقد تساءلت، وما زلت أتساءل في أمر ذلك الكاتب المسيحى: لماذا كان هذا التوجه منه نحو التاريخ الإسلامى بالذات يستقى منه مادة تلك الروايات ؟!

لقد فسر أحد الباحثين هذا التوجه بقوله: "..وعندما ترك جرجى زيدان لبنان، واستقر في مصر وجد نفسه في بيئة إسلامية لها معتقداتها الخاصة، وتقاليدها المعروفة، فآثر أن يكيف نفسه وفق ما تتطلبه بيئته الجديدة،

واندمج في أهلها، واستبطن عقلياتهم، واستطاع بآثاره العلمية والأدبية والصحفية أن يرضى الطبقات المختلفة" !(1).

والواقع أنه تفسير خاطئ قاد صاحبه إليه اكتفاؤه بالنظر الفني لروايات زيدان بعيداً عن البحث التاريخي، ولو أنه عني بالنظر والتدقيق والتحقيق في المادة التاريخية التي احتوتها هذه الروايات، والتي جاءت في صورة خلط متعمد بين الحقائق والأوهام لكان له تفسير آخر غير هذا التفسير.

فكل الروايات التاريخية لجرجي زيدان قد وضعت قصداً، وألفت عمداً لتشويه التاريخ الإسلامي، وتحريف حوادثه، وهدم رموزه، وقلب أموره كلها رأساً على عقب، والنيل من جلاله وجماله وكماله، وكأنما كانت هذه الروايات تطبيقاً ونتيجة لخطة مرسومة، شارك فيها المستشرقون المتعصبون المعروفون بعدائهم للإسلام وحقدهم على المسلمين، وأريد بها مسخ التاريخ الإسلامي العريق الوضاء في أنظار أهليه، حتى يفقدوا اعتزازهم بما فيه.

ولعل مما يؤكد ذلك: عناية دور النشر في بيروت على وجه الخصوص بإعادة طبع هذه الروايات حتى اليوم، إضافة إلى عناية الأجانب بترجمتها ونقلها إلى مختلف اللغات، فقد ترجمت منذ صدورها لأول مرة، وفي حياة مؤلفها (١٨٦١ ـ ١٩١٤) إلى الفارسية والتركية والهندستانية والأذربيجانية، ولغات أوربية عدة، ويكفي أن نمثل لما ترجم منها إلى شعوب الغرب برواية زيدان التي عنونها بـ (العباسة أخت الرشيد أو نكبة البرامكة)، والتي شوه فيها سيرة هارون الرشيد، وجرح فيها بأخته العباسة بنت المهدي، وأفصح فيها عن نزعته الشعوبية، وتعاطفه مع الأقليات، وتفسيره المغرض الخاطئ التافه لنكبة البرامكة في عهد الرشيد، فقد ترجمت هذه الرواية إلى اللغة الفرنسية، وكتب لها الروائي الفرنسي (كلودفارير) تلميذ (بير لوتي) مقدمة ضافية يثني فيها على الرواية، وعلى مؤلفها، فضلاً عن تسليمه بصحة كل ما احتوته من أحداث !

---

(١) القصة في الأدب العربي الحديث، د. محمد يوسف نجم: ص ١٧٦ ط ٣ دار الثقافة ١٩٦٦م.

ولست أراني بعيدا عن الحقيقة اذا قررت: أن ما ترجم من تلك الروايات إلى اللغات الأجنبية كان له دور مع أخوات له كثيرات ألفها المستشرقون والمستغربون العرب والملاحدة والعلمانيون في نقل الإسلام وعقائده وتاريخه ورموزه وأبطاله إلى الغرب بصورة تخالف الحقيقة والواقع، فبدا المسلمون في أنظار أهل الغرب إرهابيين سفاكين للدماء، هادمين للحضارات، معادين لغيرهم من الشعوب !

وفى الوقت الذى نشط فيه أعداء الإسلام ـ كجرجى زيدان وغيره ـ في كتابة ما يسمونه بالتاريخ الإسلامى، قاصدين تزييف الحقائق، وتشويه الصورة، وانتقاء الفترات الحرجة القلقة دون الفترات المشرقة الوضاءة ـ وما أكثرها ـ في التاريخ الإسلامى، وتقديم الإسلام والمسلمين للعالم كله على أنه فكر إرهابى وإرهابيون .. في ذلكم الوقت قعد كثيرون من علماء المسلمين عن كشف الأباطيل التى احتواها ما ترجم إلى الغرب من مؤلفات المتعصبين الحاقدين كروايات جرجى زيدان وأمثالها !

فما نعانيه اليوم من سوء الفكر الأمريكى والأوربى عن الإسلام والمسلمين ما هو إلا نتيجة لتقاعسنا عن بيان حقائق الإسلام، دين الله الحق الخالد، ومبادئه المشرقة السمحة البانية للحضارة، الرافضة للإرهاب، المتسعة للمسلمين وأهل الذمة على حد سواء في حق العيش والحرية والأمن والسلام.

ومن هنا يصبح من حقى أن أذكر ما استولى على مشاعرى من رغبة ملحة في التوغل بالقراءة في هذه الروايات ـ مجال البحث ـ لاكتشاف الزيف الذى تضمنته، ووضعه بين أيدى قراء هذه الروايات، ليأخذوا حذرهم منها، وليكف المترجمون عن ترجمتها، وتمتنع دور النشر عن إعادة نشرها، راجياً من وراء ذلك أن أقدم شيئاً ـ ولو قليلاً ـ خدمة للإسلام وتاريخه، لأجلو عن الإسلام وتاريخه.الوضاء ما أصابه ولحق بصفحاته الناصعة البياض من كذب وافتراءات وأباطيل ومغالطات، لا شك أنها مقصودة من مروجيها الذين جلس معهم جرجى زيدان في خندق واحد، يشنون حرباً شعواء على الإسلام والمسلمين، وإنها لحرب أكثر ضراوة من تلك الحروب المتواليات التى تشن

هذه الأيام على المسلمين للهيمنة على بلادهم واستنزاف خيراتهم، تحت شعار القضاء على الإرهاب وتجفيف منابعه !!

وإذا كان حرصي البالغ على البحث التاريخي في روايات زيدان لاكتشاف ما فيها من زيف قد أرهقني إلى حد كبير ،لكثرة مافيهامن تجاوزات فإن حبي لتجلية الحقيقة وإزهاق الباطل جعلني أتحمل هذا الإرهاق، فمضيت أقرأ كل روايات زيدان، وأجمع ما يمكنني مما قيل عنها في الكتب والرسائل الجامعية، والمقالات القديمة والحديثة التي كتبت عنها، إضافة إلى عرض ما تضمنته الروايات من أحداث على كتب التاريخ الكثيرة المختلفة، حتى أتحقق من مدى صحة ما جاء في هذه الروايات، فكان هذا سبباً لاستغراق البحث مدة طويلة؛ ولكن للبحث "عذوبة وعذاب" كما يقال، مهما امتد الوقت على صاحبه وطال.

ومن الغريب: أن جرجي زيدان ـ مؤلف هذه الروايات الخطيرة ـ قد نال من عناية الكتاب والدارسين ما لم ينله كتاب آخرون أبدعوا الرواية التاريخية، وقدموا لنا نماذج خالدة تشهد لهم بطول الباع، ولم يعبثوا فيها بالتاريخ كما عبث. وحسبك أن تقرأ القائمة البيبلوجرافية التي ألحقتها بهذا البحث، ففيها ما يشهد حقاً بأنه كاتب محظوظ، على الرغم من خطورته وتلمذته على أيدى المستشرقين، كما سيجئ البيان.

وهنا أذكر أن الدراسات والبحوث التي سبق نشرها عن روايات جورجي زيدان قد تمثلت في صورة مجموعة من المقالات والتقديمات لبعض رواياته، وفصول احتوتها جملة من الكتب . ولم تصدر عنها دراسة مفصلة خاصة سوى رسالة جامعية عنوانها (روايات تاريخ الإسلام) أشرف عليها أستاذنا المرحوم الدكتور عبد السلام سرحان، ونال بها صاحبها الدكتور محمد الحسين عبد القادر (لبناني الجنسية) درجة العالمية (الدكتوراة) في الأدب والنقد عام ١٩٧٥ من كلية اللغة العربية بالقاهرة وهى رسالة ممتازة لم تطبع حتى اليوم فيما أحسب، وتقع في أربعمائة وسبع وستين صفحة من القطع المعروف للرسائل الجامعية، وعلى الرغم من امتياز هذه الرسالة، ودلالتها على

أن الأزهر المعمور دائماً سباق إلى كشف أباطيل الأفاكين فإن لي عليها ملاحظات عدة أذكر منها ما يلى:

١ - ركزت الرسالة على الجانب الفنى في روايات زيدان، واكتفت من الجانب التاريخى بسرد أمثلة للشبهات الواردة في بعض الروايات.

٢ - اكتفت الرسالة بلمحات تاريخية سريعة عن فن القصة عموماً، وتكاد تهمل كل ما يتصل بفن الرواية التاريخية.

٣ - جارى صاحب الرسالة مؤلف الروايات، ودار الهلال التى نشرتها، فعنون رسالته بروايات تاريخ الإسلام، وفات عليه أنها لا تمت إلى تاريخ الإسلام بصلة، على ما يجئ التفصيل، الأمر الذى جعل عنوان الرسالة متناقضاً تماماً مع الشبهات التى أوردها الباحث في الفصل الذى خصصه لها !!

٤ - اكتفى الباحث بالمنهج الانتقائى، فدرس بعضاً من روايات زيدان، وأهمل البعض الآخر، ومعلوم أن المنهج الانتقائى يقود صاحبه إلى نتائج غير يقينية أو خاطئة، كما سأذكر بعد قليل ! على أن الباحث يكاد يكون ناقلاً لما كتبه غيره من روايات زيدان من أمثال الدكتور محمود شوكت، والدكتور محمد يوسف نجم، والدكتور عبد المحسن طه بدر، فلم يضف إلى ما قالوه من معالم الجدة والابتكار إلا القليل.

لكن الرسالة - على كل حال - رسالة ممتازة، وقد أفدت منها ونقلت عنها ما اقتضاه البحث، ثم أضفت كثيراً وكثيراً مما غفلت عنه، وخالفت صاحبها - بطبيعة الحال - في المنهج والخطة والنتائج.

أما المقالات والتقديمات والفصول التى كتبت عن روايات زيدان فقد أفدت منها، وعقبت على ما لم أرتح إليه فيها، ويقتضى الإنصاف العلمى أن أشيد - هنا - بوقفة الدكتور عبد الرحمن بن صالح العشماوى مع جرجى زيدان في روايته (صلاح الدين الأيوبى) وإن كانت هذه الوقفة جاءت في صورة كتيب صغير، كذلك أشيد بالأستاذ شوقى أبى خليل حين وضع جرجى زيدان في الميزان، وكشف الكثير مما احتوته رواياته من زيف ودجل وأخطاء.

هذا وقد تبين لى من الفحص الدقيق لما كتب عن تلك الروايات انها ما نزال بحاجه حقا الى دراسه جديدة، ولا سيما ان اغلب ما كتب باستثناء رسالة الدكتوراة المذكورة سلفا قد توقف بعضه عند رواية بعينها مثلما فعل الدكتور احمد إبراهيم الهوارى في دراسة له عن رواية (ارمانوسة المصرية) والدكتور حلمى محمد القاعود في دراسة له عن رواية (فتح الأندلس) والدكتور مسعد الديب في دراسة له عن روايتى (عذراء قريش) و(أرمانوسة المصرية)، ومن الدارسين من نظر إلى روايات زيدان نظرة طائر عابر في ثنايا حديثه عن فن الرواية الحديثة عموما مثلما فعل الدكتور عبد المحسن طه بدر والدكتور شوكت والدكتور نجم واخرون.

لكل ما سبق ذكره كان طموحى إلى دراسة تلك الروايات دراسة تاريخية ممحصة . وذلك لأسد ما رايته في دراسات السابقين من نقص وثغرات، وارسل الكلمة الفاصلة التى تزيل ما احتوته هذه الدراسات من تضارب في الأقوال، واختلاف في الاراء، وتباين في الاحكام. يضاف إلى هذا: طموحى الى تفصيل القول المدعوم بعشرات الأمثلة عما جاء في هذه الروايات من جوانب اهملها الدارسون ولا سيما الجوانب التاريخية التى لم يلتفتوا إليها في غمرة تركيزهم على الجوانب الفنية من احداث وشخصيات وحوار وغيرها، فخرجوا بالتالى عن وجه الحق الذى ينبغى ان يقال في هذه الروايات الخطيرة التى تبث لقرائها السم في العسل على ما يجى التفصيل، وفات على اولئك الدارسين ان تلك الروايات لا تدرس فنيا فحسب، وإنما يتحتم أن تدرس فنيا وتاريخيا، لنحيط الناس علما بما تحمله من خطورة بالغة فيحذروها.

وقد اقتضى ذلك منى ان ادرس كل روايات جرجى زيدان دراسة فاحصة دقيقة تقوم على المنهج الاستقصائى - لا الانتقائى - واستخلاص الاحكام منها، بغية الوصول إلى احكام تحمل صفة اليقين، لا صفة الاحتمال والتردد. وهو منهج دعا اليه، واشاد بنتائجه كبار الباحثين وفحول النقاد من امثال الأستاذ الدكتور علي جواد الطاهر في كتابه (منهج البحث الأدبى)، والأستاذ الدكتور شوقى ضيف في كتابه (البحث الأدبى).

ومن هنا كانت كثرة الشواهد المستمدة من تلك الروايات للتدليل والتأكيد على تمسكي بهذا المنهج من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد هيمنت علي رغبة ملحة في إيقاف القراء على عشرات الأمثلة الدالة على خطورة هذه الروايات حتى يتجنبوا الاطلاع عليها.

ولعل الدافع الأول وراء هذا الاتجاه وقوفي على دراسات متعددة حول هذه الروايات، انتهج أصحابها النهج الانتقائى، فانتهوا إلى نتائج خاطئة ألمحت إليها في مواطن عدة من هذا البحث.

هذا عن أسباب اختيار البحث والدراسات التى سبقتنى إليه، والمنهج الذى آثرته على غيره فيه. أما عن المباحث التى اشتملت عليها هذه الدراسة فهى ما يلى :

١ روايات جرجى زيدان (تعريفاً وتوثيقاً وتحقيقاً)
٢ هدف زيدان من معالجته للرواية التاريخية (عرض وتعليقات).
٣ منهج زيدان ومذهبه في معالجة الرواية التاريخية (عرض وتعليقات)
٤ طريقة زيدان في تأليف رواياته ونشرها.
٥ المجالات التاريخية لروايات زيدان (عرض وتعقيب)
٦ الإيغال في التاريخ البعيد لسرد المعلومات.
٧ جرجى زيدان والصدق التاريخى (أباطيل وحقائق)
٨ شمول روايات زيدان على أخطاء ومغالطات تاريخية.
٩ التشويه المتعمد لسيرة أبطال الإسلام في روايات زيدان.
١٠ ظاهرة إثبات المراجع في روايات زيدان. (عرض وتعليقات).
١١ جرجى زيدان وتفسير التاريخ.
١٢ أبطال روايات زيدان بين الحقيقة التاريخية والخيال الروائى .
١٣ الانتقاد التاريخى لرويات زيدان من معاصريه (عرض وتعليقات).
١٤ أثر الانتماء الدينى فى روايات زيدان .

ولقد كان ديدنى في استشارة المصادر والمراجع هو المراجعة والفحص والتمحيص لأتفق معها أو أختلف، طامحاً أن أضيف لبنة جديدة إلى البناء الذى شيده من سبقونى في هذا المجال، مركزاً على التوقف أمام ما أهملوه، وعندما مروا عليه مروراً خاطفاً، وكل ما يفتقر إلى إعادة نظر، غائصاً بقراءتى الجديدة في أعماق بحورهم، كاشفاً عما غفلوا عنه في هذه الروايات.

ولقد وطنت نفسي في المواطن التي استوجبت التعقيب على مؤلف الروايات ودارسيها على أن يكون التعقيب حاسما سافرا منزها عن اللغو المسف والرد السطحي، متجها إلى اللباب الخالص، والمنهج العلمي المفحم، والرغبة القوية الملحة في تجلية الحقيقة، وإعلان الحق، وإزهاق الباطل، مصداقاً لقول الله تبارك وتعالى (**بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق**)[1] وسعياً وراء تنقية تاريخنا الإسلامي المشرق مما صنعه به جرجي زيدان من محاولات مسخ صوره الوضاءة، وصبغ حوادث أبطاله، وأعمال رجاله ـ ومنهم كبار الصحابة ـ بصبغة قاتمة مشوهة سوداء !

وبعد:

ففي كل رواية أباطيل، وفي كل صفحة من الرواية الواحدة افتراءات، وفي كل فقرة عبث بالتاريخ الإسلامي وتفسير مغرض خاطئ لأحداثه، وفي كل سطر دس رخيص، ومسخ وتزييف وتشويه، ومن وراء ذلك كله خطة مقصودة، وغاية خبيثة منشودة أريد بها هدم التاريخ الإسلامي كله رأسا على عقب! .. فعكفت عكوفاً على تلك الروايات الخطيرة، أقرأ وأدقق، وأفحص وأحقق .. وما زلت كذلك حتى استوى البحث على عوده، واكتمل في ذهني ما اخترعه زيدان من بروقه ورعوده، فصاغه القلم على النحو الذي ستراه في المباحث اللاحقة لهذا التقديم.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يتقبل هذا العمل، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ،

أ.د/ عبد الجواد محمد المحص
استاذ الأدب والنقد بكلية الدراسات
الإسلامية والعربية بالاسكندرية
جامعة الأزهر

الإسكندرية في ١٢ من ذي القعدة ١٤٢٤هـ

الموافق ٢ من يناير ٢٠٠٤ م

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٨.

روايات جرجى زيدان
(تعريفاً وتوثيقاً وتحقيقاً)

ليس من الغريب ولا من العجيب أن نقدم بين يدى دراستنا التاريخية لروايات جورجى زيدان هذا المبحث الذى ما عقدناه فى الواقع إلا لنوثق ما نسب إلى زيدان من روايات، ولنحقق ما يحتاج منها إلى تحقيق.

ولم يكن فى خطتنا، ولا فى نيتنا أن نقوم بهذه الدراسة؛ ولكن حدث من الأمور أثناء إعداد مصادر البحث ومراجعه ما جعلنا نضطر اضطراراً شديداً إلى إدراجه فى الخطة؛ بل اضطررنا أيضا إلى حمل عصا التسيار، وشد الرحال إلى عالم الدوريات، قبل كتابته.

١ ـ كان الأمر الأول والأهم هو حسن ظننى بدقة الفهرست الببليوجرافى الذى ألحقه الدكتور عبد المحسن طه بدر بكتابه (تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر ...)، [١] والذى تضمن ـ من بين ما تضمن ـ حصراً لما كتبه جورجى زيدان من روايات، أوردها الفهرست على النحو التالى :

١ ـ المملوك الشارد سنة ١٨٩١.

٢ ـ جهاد المحبين ط٢ سنة ١٨٩٣.

٣ ـ استبداد المماليك ط٢ سنة ١٨٩٣.

٤ ـ أسير المتمهدى سنة ١٨٩٢.

٥ ـ فتاة غسان سنة ١٨٩٨.

٦ ـ أرمانوسة المصرية سنة ١٨٩٩.

٧ ـ عذراء قريش سنة ١٨٩٩.

٨ ـ ١٧ رمضان سنة ١٨٩٩.

٩ ـ غادة كربلاء سنة ١٩٠١.

١٠ ـ الحجاج بن يوسف سنة ١٩٠٢، ط سنة ١٩٠٩.

١١ ـ فتح الأندلس سنة ١٩٠٤.

---

(١) ينظر : ص ٤١٣، ٤١٤، كما ينظر: ص ١٠٠.

١٢- شارل وعبد الرحمن سنة ١٩٠٤.

١٣- أبو مسلم الخراسانى سنة ١٩٠٥.

١٤- العباسة سنة ١٩٠٦، ط سنة ١٩١١.

١٥- الأمين والمأمون سنة ١٩٠٧.

١٦- عروس فرغانة سنة ١٩٠٨.

١٧- أحمد بن طولون سنة ١٩٠٩.

١٨- عبد الرحمن الناصر سنة ١٩٠٩.

١٩- الانقلاب العثمانى سنة ١٩١١.

٢٠- فتاة القيروان سنة ١٩١٢.

٢١- صلاح الدين ومكائد الحشاشين سنة ١٩١٣.

٢٢- شجرة الدر سنة ١٩١٤.

٢٣- محمد على سنة ١٩٠٧.

ولكن حينما رحت أدقق فى هذا الحصر البيبلوجرافى الذى عنونه بـ (فهرس للروايات العربية التى ظهرت فى مصر : ١٨٧٠ - ١٩٣٨)، والذى قال عنه فى هامش ص٤١٣ من الطبعة المشار إليها ما نصه : "يرتب هذا الفهرس حسب نوع الرواية[1]، وحسب تاريخ ظهور أول عمل للمؤلف. وفى حالة رجوعنا فى الكتاب إلى طبعة أخرى غير الطبعة الأولى سنشير إليها، وإذا كانت الرواية مطبوعة فى مكان غير مدينة القاهرة فسنشير إلى مكان الطبع".

أقول : حينما رحت أدقق فى هذا الفهرس اتضح لى ما يلى :

أ- أن لزيدان ثلاثا وعشرين رواية.

---

(١) أدرج الدكتور عبد المحسن بدر روايات زيدان ضمن الرواية التعليمية. (ينظر: ص ٤١٣).

ب- أن الفهرس يبدأ برواية (المملوك الشارد)، وينتهي برواية (محمد علي).

ج- أنه لم يلتزم بذكر الطبعة الأولى لكل رواية كما أشار في الهامش، بل أشار للطبعة الثانية من (جهاد المحبين) وكذلك (استبداد المماليك)، ولم يذكر الطبعة الأولى لكل منهما.

د- أن التواريخ التي ذكرها لكل رواية تحتاج إلى التأكد من سلامتها.

وضعت هذه الملاحظات في ذهني، ومضيت في سبيل اقتفاء تلك الروايات التي جاءت في الفهرست، فعثرت عليها جميعاً إلا واحدة هي رواية (محمد علي) التي يفيد فهرس الدكتور بدر أنها طبعت لأول مرة سنة ١٩٠٧.

ولما كان المنهج الذي اعتمدته لدراستي هو المنهج الاستقصائي، لا الانتقائي، - كما قلت في المقدمة - فإن عثوري على هذه الرواية كان من ضرورات استكمال مصادر البحث، وبخاصة أن زيدان يذكر أن كل رواية من رواياته تختص بحقبة زمنية معينة تصورها، ورواية (محمد علي) تصور - كما يوحي عنوانها أو بتعبير أدق : اسمها عصر محمد علي، وهو عصر يلي في الترتيب التاريخي الذي تسير عليه روايات زيدان - وفق العصور لا وفق الطبع لأول مرة - عصر المماليك الذي صوره في روايته (استبداد المماليك). على أن زيدان في روايته (المملوك الشارد) قد صور عصر (محمد علي)، فهل صور ذلك العصر في روايتين أم في رواية واحدة ؟

عشت شهورا ثلاثة أبحث وأنقب عن تلك الرواية في الأماكن التي يظن أن تكون بها، تحت اسم جورجي زيدان، فلم أظفر بها. وكان مما زادني إصراراً على العثور عليها قول الدكتور بدر في صميم دراسته لروايات زيدان : "وحرص - يقصد زيدان - لذلك على أن تغطي رواياته كل مراحل التاريخ العربي منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحديث، فهو يبدأ من فتاة غسان في العصر الجاهلي، وينتهي بالتاريخ الحديث فيكتب روايتين في عصر محمد علي،

هما : (محمد على) و(المملوك الشارد)، ثم يكتب رواية عن ثورة المهدى، ويختم رواياته عن العصر الحديث برواية الانقلاب العثماني"[1].

والعجيب أن الدكتور بدر : أشار فى هامش الصفحة نفسها إلى أن "جرجى زيدان كتب اثنتين وعشرين رواية ليغطى هذا الامتداد التاريخى الواسع"!

وما جاء فى هذه الإشارة يتناقض مع ما أثبته فى الفهرس البيبلوجرافى، ففى الفهرس ثلاث وعشرون رواية، وفى هامش ص ١٠٠ ينقص العدد واحدة، مع ملاحظة أنه أورد رواية (محمد على) فى آخر الفهرس الذى يبدو ملتزماً فيه بالترتيب التاريخى لطبع الروايات التى ذكرها، إلا هذه الرواية !

هذا التناقض مع عدم العثور على الرواية كما ذكرت آنفاً زادنى إصراراً فوق إصرار على المضى فى البحث عن الرواية. بل إن هذا الإصرار بلغ الذروة، حينما رأيت باحثين كثيرين ـ غير الدكتور بدر ـ يعدون هذه الرواية من بين روايات زيدان. اذكر من هؤلاء الباحثين ـ مثلاً ـ : الدكتور حسين نصار[2] والدكتور حلمى بدير[3] والدكتور طه وادى[4] والدكتور مسعد الديب[5] والأستاذ محمد عبد الغنى حسن[6].

وهكذا بات الأمر عندى وكأن هناك ما يشبه الإجماع من الدارسين على أن لزيدان رواية اسمها (محمد على). فلم أجد حلاً لهذا اللغز سوى التوجه إلى عالم الدوريات، لعلى أعثر فى دورية أو أكثر ما يوثق نسبة هذه الرواية إلى زيدان، أو ينفيها عنه، ويثبتها لغيره.

---

(١) ينظر كتابه المشار إليه : ص١٠٠.
(٢) ينظر: تقديمه لرواية فتاة غسان جـ١ ص٨ من التقديم ط دار الهلال ١٩٨٣.
(٣) ينظر: تقديمه لرواية استبداد المماليك.
(٤) ينظر: دراسات فى نقد الرواية (البيبولوجرافيا الملحقة بالكتاب) ص١٤٢، ١٤٣ وهامش ص١٠٦.
(٥) ينظر: القصة التاريخية الإسلامية فى مصر للدكتور مسعد الديب: ص٨٦ ط دار الأمين القاهرة ١٩٩٨.
(٦) ينظر: جرجى زيدان لمحمد عبد الغنى حسن : ص٩٨.

وفـى عـالم الـدوريات كـان الوصـول إلـى أولـى الـدلائل الكاشـفة عـن الحقيقة، حيث عثرت على روايـة صـادرة ضمن سلسلة (روايـات الهـلال) لـم يؤلفها زيدان ابداً، بل هـى قصـة مترجمة عن الألمانية ألفتها الكاتبة (لويزا موليـاخ)، وتـرجمت ونشـرت عـن دار الهـلال دون ذكـر متـرجمها فـى سلسـلة (روايات الهلال)، العدد ٣٨ الصادر فى فبراير سنة ١٩٥٢.

ثـم كان الوصول إلى دليل ثانٍ هو أن (أميل زيدان) الابن البكر لجورجى زيدان الذى ترأس تحرير الهلال بعد موت أبيه أكد فى (مجلة الهلال عدد مارس ١٩٧٧ ص١٩٩) أن أباه ليس لـه رواية بهذا الاسم على الإطلاق، وجاء هذا التأكيد فـى رسالةٍ أرسلها إلـى صبيح الغلفقـى العراقى سنة ١٩٧٤ ذكر فيها أن هذه الرواية طبعت وأنها لم تكن من تأليف والده. وذكر أيضاً : أن عدد الروايات التـى ألفهـا أبوه ٢٢ بينها ١٨ تضمها سلسلة روايات تـاريخ الإسـلام ـ مبتدئة بفتاة غسان ومنتهية بالانقلاب العثمانى أما الروايات الأربع وهى جهاد المحبين واستبداد المماليك وأسير المتمهدى والمملوك الشارد فقد نشرت خـارج هـذه السلسلة.

ثـم هنـاك دليل ثالث على أن روايـة (محمد علـى) ليست لزيدان هو أن الأستاذ أحمد أبو علـى مؤلـف (معجم القصص والـروايات) ذكـر أن فـى مكتبـة البلدية بالإسكندرية روايتـين، الأولـى باسـم (محمـد علـى) وهـى معربـة عـن الإنجليزية، بقلم نسيب أفندى المشعلانى، وقد طبعت فى القاهرة سنة ١٩٠٧، والأخرى عنوانها (محمد على الكبير) بقلم زينـى أفندى زينى، طبعت بالقاهرة بدون تاريخ.

وممـا تقدم يثبت أن الـرواية التـى نسبها الدكتور عبد المحسن بـدر وغيره من الباحثين إلـى جرجى زيدان هـى بعينـها روايـة (محمد على) المعربة عـن الإنجليـزية بقلـم نسـيب أفندى المشـعلانى، والمطـبوعة لأول مـرة سـنة ١٩٠٧م. فالرواية إذن ليست من روايـات جرجى زيدان، مهما حاول غيرنا أن يثبت العكس، ومهما حاول أن يحيط مزاعمه بسياج من اليقين.

ويثـبت ممـا تقدم ـ أيضـاً ـ أن العدد الحقيقى لروايات جرجى زيدان هو اثنـتان وعشـرون روايـة، ولـيس ثلاثـاً وعشرين كمـا حصرها الدكتور بـدر فـى

فهرسه الذى سبق ذكره والأستاذ محمد عبد الغنى حسن[1]، ولا عشرين رواية كما عدها يوسف أسعد داغر[2]. ولا إحدى وعشرين كما عدها أنيس المقدسى[3] وسيهل إدريس[4]. ولعلك تلاحظ ـ هنا ـ اضطراب الباحثين فى حصرهم لعدد روايات زيدان، وهو اضطراب أدى إلى اضطراب آخر فى عدد الروايات التى تناولت كل عصر من عصور التاريخ، فعلى سبيل المثال :

١ـ قال أنيس المقدسى : "توفى هذا الكاتب سنة ١٩١٤، بعد أن ترك للأجيال فى باب القصة فقط، إحدى وعشرين رواية". خصص منها ست عشرة رواية لتاريخ العرب والإسلام، وأربعاً لتاريخ مصر الحديث، وواحدة للانقلاب العثمانى[5]. فهو إذن لم يأت على ذكر الرواية الاجتماعية جهاد المحبين.

٢ـ وقال سهيل إدريس : "كتب زيدان رواية واحدة عن العصر الحديث، هى "الانقلاب العثمانى""[6] فهو إذن لم يأت على ذكر "المملوك الشارد" ولا "أسير المتمهدى".

٣ـ وقال أنور الجندى : "أكمل التاريخ الإسلامى كله حتى آخر عصر الأتراك العثمانيين فى اثنتى عشرة رواية"[7] والظاهر أن هذا الخطأ طباعى كتب فيه الطابع "اثنتى عشرة" بدلاً من "اثنتين وعشرين".

وكما اضطرب الكتاب فى عدد روايات زيدان، وفى عدد الروايات التى تناولت كل عصر من عصور التاريخ اضطربوا فى تسمية أول رواية أصدرها، وفى تسلسل بعض الروايات، فعلى سبيل المثال :

١ـ ذهب كل من : محمد عبد الغنى حسن[1] والدكتور محمد يوسف نجم[2] وإلياس زخورة[3] وطاهر الطناحى[4] إلى أن أولى روايات زيدان هى رواية (المملوك الشارد) التى نشرها عام ١٨٩١.

---

(١) ينظر: السابق : ص٩٧.
(٢) ينظر: مصادر الدراسة الأدبية ص٤٤٥ ط بيروت ١٩٥٥.
(٣) ينظر: الفنون الأدبية وأعلامها ص٥١٦ ط٤ دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٤.
(٤) ينظر: القصة فى لبنان ص١٨.
(٥) ينظر: الفنون الأدبية وأعلامها : ص٥١٦.
(٦) ينظر: القصة فى لبنان ص ١٨.
(٧) ينظر: أعلام من الفكر والأدب: ص ٨٧.

٢- وذهب أنور الجندى[٥] : إلى أنها (أرمانوسة المصرية) التى صدرت طبعتها الأولى عام ١٨٩٥م، بعد نشرها مسلسلة فى السنة الرابعة من مجلة الهلال.

٣- ولو عدت إلى فهرس الدكتور بدر الذى ذكرناه سابقاً ستراه يذكر أن روايات: أرمانوسة المصرية، وعذراء قريش، و١٧ رمضان قد صدرت فى سنة ١٨٨٩. ومعنى هذا أن هذه الروايات الثلاث سابقة فى الوجود على رواية المملوك الشارد، وهو ما لم يكن !

وإذا كان ما ذكره الدكتور بدر يحتمل أن يكون خطأ مطبعيا[٦] صوابه ١٨٩٩ بدلاً من ١٨٨٩، فإن الاضطراب يظل قائماً بين ما ذكره أنور الجندى من أن أرمانوسة هى أولى روايات زيدان وبين ما ذكره الآخرون الذين يجمعون على أن (المملوك الشارد) هى أولى روايات زيدان.

يضاف إلى ما تقدم من إشكاليات تحتاج إلى تحقيق أو تصويب أو تفسير إشكالية أكبر هى أن الدكتور محمد يوسف نجم أورد روايات جرجى زيدان على هذا النحو من حيث تاريخ طبعها :

١- المملوك الشارد ١٨٩١.

٢- أسير المتمهدى ١٨٩٢.

٣- استبداد المماليك ١٨٩٢ _ ١٨٩٣.

٤- أرمانوسة المصرية ١٨٩٥ _ ١٨٩٦.

٥- فتاة غسان ١٨٩٦ _ ١٨٩٧.

---

(١) ينظر: جرجي زيدان لمحمد عبد الغنى حسن : ص٩٦.
(٢) ينظر: القصة فى الأدب العربي الحديث : ص١٨٨ _ القاهرة ١٩٥٢م.
(٣) ينظر: مرآة العصر فى تاريخ ورسوم أكابر الرجال بمصر : ص٤٦٢ ط القاهرة ١٨٩٧م.
(٤) ينظر: عصاميون عظماء من الشرق والغرب : ص٧٥ والكتاب بأقلام نخبة من الكتاب منهم طاهر الطناحي _ ط دار الهلال _ القاهرة.
(٥) ينظر: أعلام من الفكر والأدب ص ٨٧.
(٦) مما يؤكد أنه خطأ طباعى أن الدكتور بدر جعل رواية (المملوك الشارد) فى أول قائمة روايات زيدان، وكتب أمامها تاريخ إصدارها ١٨٩١.

١٨٩٧ ـ ١٨٩٨.

٦ـ عذراء قريش ١٨٩٨ ـ ١٨٩٩.

٧ـ ١٧ رمضان ١٨٩٩ ـ ١٩٠٠.

٨ـ غادة كربلاء ١٩٠٠ ـ ١٩٠١.

٩ـ الحجاج بن يوسف ١٩٠١ ـ ١٩٠٢.

١٠ـ فتح الأندلس ١٩٠٢ ـ ١٩٠٣.

١١ـ شارل وعبد الرحمن ١٩٠٣ ـ ١٩٠٤.

١٢ـ أبو مسلم الخراسانى ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥.

١٣ـ العباسة أخت الرشيد ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦.

١٤ـ الأمين والمأمون ١٩٠٦ ـ ١٩٠٧.

١٥ـ عروس فرغانة ١٩٠٧ ـ ١٩٠٨.

١٦ـ أحمد بن طولون ١٩٠٨ ـ ١٩٠٩.

١٧ـ عبد الرحمن الناصر ١٩٠٩ ـ ١٩١٠.

١٨ـ الانقلاب العثمانى ١٩١٠ ـ ١٩١١.

١٩ـ فتاة القيروان ١٩١١ ـ ١٩١٢.

٢٠ـ صلاح الدين ومكائد الحشاشين ١٩١٢ ـ ١٩١٣.

٢١ـ شجرة الدر ١٩١٣ ـ ١٩١٤[١].

وواضح أن الدكتور نجم أورد تاريخين لكل رواية يشبهان طريقتنا فى تحديد العام الدراسى، أوله فى آخر سنة وبقيته فى التى تليها. فعل هذا بالنسبة لكل الروايات ما عدا المملوك الشارد، وأسير المتمهدى حيث ذكر لكل منهما

---

(١) القصة فى الأدب العربى الحديث، محمد يوسف نجم ـ ولم يذكر رواية (جهاد المحبين) لأنه يعدها رواية اجتماعية.

تاريخا واحداً. وهو بالطبع لا يقصد الطبعة الأولى والثانية من الرواية، على النحو الذى كان من الدكتور بدر فى بعض الروايات التى ذكرها فى فهرسه.

أما الدكتور طه وادى فيورد روايات زيدان حسب سنة الصدور لأول مرة على النحو التالى :

عنوان الرواية	سنة الصدور لأول مرة
١- المملوك الشارد	١٨٩١
٢- أسيرة المتمهدى	١٨٩٢
٣- استبداد المماليك	١٨٩٣
٤- جهاد المحبين	؟
٥- أرمانوسة المصرية	١٨٩٦
٦- فتاة غسان	١٨٩٧
٧- عذراء قريش	١٨٩٨
٨- ١٧ رمضان	؟
٩- غادة كربلاء	١٩٠١
١٠- الحجاج بن يوسف	١٩٠٢
١١- فتح الأندلس أو طارق بن زياد	١٩٠٣
١٢- شارل وعبد الرحمن	١٩٠٤
١٣- أبو مسلم الخراسانى	١٩٠٥
١٤- الأمين والمأمون	١٩٠٧
١٥- أحمد بن طولون	١٩٠٨
١٦- عروس فرغانة	؟
١٧- عبد الرحمن الناصر	١٩١٠
١٨- الانقلاب العثمانى	١٩١١
١٩- فتاة القيروان	؟
٢٠- صلاح الدين ومكائد الحشاشين	١٩١٣

وواضح أنه لم يذكر "شجرة الدر" ولا العباسة. وأضاف رواية (محمد على) التى سبق فصل القول فى شأنها[١].

---

(١) هذا ما أورده طه وادى فى كتابه دراسات فى نقد الرواية ص١٤٢، ١٤٣ ببليوجرافيا الرواية العربية فى مصر من ١٨٨٢ – ١٩٧٤.

كل هذه الإشكاليات والاضطراب والتباين فيما سبق تحديده يحتاج قسم منه إلى تحقيق يصوب الخطأ أو يزيل الاضطراب والتباين، ويحتاج قسم منه إلى تفسير.

ولتحقيق هذه المهمة نذكر أولاً ما اتضح لنا من خلال العودة إلى مجلدات مجلة الهلال فى عالم الدوريات، إذ جاءت الروايات التى نشرت بها مرتبة على النحو التالى :

المملوك الشارد عام ١٨٩١.

أسير المتمهدى عام ١٨٩٢.

استبداد المماليك عام ١٨٩٣.

أرمانوسة المصرية عام ١٨٩٥.

فتاة غسان عام ١٨٩٦.

عذراء قريش عام ١٨٩٨.

١٧ رمضان عام ١٨٩٩.

غادة كربلاء عام ١٩٠٠.

الحجاج بن يوسف عام ١٩٠١.

فتح الأندلس عام ١٩٠٢.

شارل وعبد الرحمن عام ١٩٠٣.

أبو مسلم الخراسانى عام ١٩٠٤.

العباسة أخت الرشيد عام ١٩٠٥.

الأمين والمأمون عام ١٩٠٦.

عروس فرغانة عام ١٩٠٧.

أحمد بن طولون عام ١٩٠٨.

عبد الرحمن الناصر عام ١٩٠٩.

الانقلاب العثمانى عام ١٩١٠.

فتاة القيروان عام ١٩١١.

صلاح الدين عام ١٩١٢.

شجرة الدر عام ١٩١٣.

كذلك نذكر ليزداد الأمر توثيقاً ما كان ينشر من كلمات عن روايات زيدان ـ بقلمه أو بقلم غيره ـ أثناء نشر هذه الروايات مسلسلة فى صورة حلقات بالمجلة، أو ملحقة بها، ومع كل كلمة تاريخ نشرها الذى يساعد فى حسم إشكالية الصدور لأول مرة بالنسبة للرواية.

وقد رتبت هذه الكلمات ترتيباً زمنياً مسلسلاً مع ذكر صاحبها والدورية التى نشرت فيها وها هو ذا :

تسلسل ما نشر فى الدوريات إبان عصر زيدان عن رواياته

عنوان ما نشر	كاتبه	اسم الدورية	التاريخ
رواية استبداد المماليك (مقدمة الرواية)	محرر	مجلة المقتطف	١٨٩٢/٩/١
رواية أسير المتمهدى	محرر	مجلة الهلال	١٨٩٤/٣/١٥
أرمانوسة المصرية (مقدمة الرواية)	محرر	مجلة الهلال	١٨٩٥/٩/١
رواية الحجاج	محرر	مجلة الهلال	١٨٩٦/١/١
فتاة غسان	محرر	مجلة الهلال	١٨٩٦/١٢/١
أرمانوسة المصرية وفتاة غسان	محرر	مجلة الهلال	١٨٩٧/٣/١٥
الروايات التاريخية ـ فتاة غسان (مقدمة المؤلف)	محرر	مجلة الهلال	١٨٩٧/٩/١
المملوك الشارد	محرر	مجلة الهلال	١٨٩٨/٢/١٥
فتاة غسان وفتح الحيرة ووفاة أبى بكر	محرر	مجلة الهلال	١٨٩٨/٣/١٥
صلاح الدين الأيوبى	محرر	مجلة الموسوعات	١٨٩٨/١٢/٢٩
رواية أسير المتمهدى	محرر	مجلة الهلال	١٨٩٨/١٠/١٥
رواية صلاح الدين	محرر	مجلة الضياء	١٨٩٨/١٢/١٥
رواية صلاح الدين	محرر	مجلة الموسوعات	١٨٩٨/١٢/٢٩
رواية فتاة غسان	محرر	مجلة الهلال	١٨٩٩/٢/١
عذراء قريش فى عالم الغيب[1]	محرر	مجلة الهلال	١٨٩٩/٢/١

(١) نشرت عذراء قريش مسلسلة بالهلال ابتداء من أول أكتوبر ١٨٩٨، ثم نشرت بعد ذلك ملحقة بالسنة السابقة من الهلال سنة ١٨٩٨.

أم المؤمنين ومقتل عثمان	محرر	مجلة الهلال	١٨٩٩/٤/١٥
الموسوعات وعذراء قريش	محرر	مجلة الهلال	١٨٩٩/٤/١٥
الموسوعات وعذراء قريش	محرر	مجلة الهلال	١٨٩٩/٥/١
الهلال والتاريخ	محرر	مجلة الموسوعات	١٨٩٩/٥/١١
روايات تاريخ الإسلام	رفيق العظم	مجلة الهلال	١٨٩٩/٥/١٥
عذراء قريش ـ فصل الخطاب	محرر	مجلة الهلال	١٨٩٩/٦/١
فتح الحيرة ووفاة أبى بكر والهلال	أتربى أبو العز	الموسوعات	١٨٩٩/٦/٢٣
عذراء قريش ـ فصل الخطاب	محرر	مجلة الموسوعات	١٨٩٩/٦/٢٣
ملاحظة على رواية فتاة غسان	محرر	مجلة الهلال	١٨٩٩/٩/١
عذراء قريش وآراء القراء فيها	محرر	مجلة الهلال	١٨٩٩/١٠/١
عذراء قريش وأخلاق القراء	محرر	مجلة الهلال	١٨٩٩/٢/١
البرهان فى انتقاد عذراء قريش	يوسف طبشى	مجلة الهلال	١٩٠٠/١٢/١
رواية ١٧ رمضان	محرر	مجلة الهلال	١٨٩٩ ـ ١٩٠٠
غادة كربلاء	محرر	مجلة الثريا	١٩٠١/٨/١٥
غادة كربلاء	محرر	مجلة الضياء	١٩٠١/٨/٣١
غادة كربلاء[١]	محرر	مجلة الهلال	١٩٠١
روايات الهلال من دير طور سيناء	محرر	مجلة الهلال	١٩٠٢/٣/١٥
جرجى زيدان	محرر	مجلة الثريا	مايو ١٩٠٢
الحجاج بن يوسف	محرر	مجلة المقتطف	أغسطس ١٩٠٢
الحجاج بن يوسف[٢]	محرر	مجلة الهلال	١٩٠٢
فتح الأندلس[٣]	محرر	مجلة الهلال	١٩٠٣/٢/١٥
رواية شارل وعبد الرحمن	محرر	مجلة الضياء	١٩٠٤/٧/٣١
روايات تاريخ الإسلام	محرر	مجلة الهلال	نوفمبر ١٩٠٥
روايات تاريخ الإسلام	محرر	مجلة الهلال	أول نوفمبر ١٩١٠
عبد الرحمن الناصر[٤]	محرر	مجلة الهلال	١٩١٠
فتاة القيروان[٥]	محرر	مجلة الهلال	أول أكتوبر ١٩١١
صلاح الدين ومكائد الحشاشين[٦]	محرر	مجلة الهلال	أول أكتوبر ١٩١٢
جرجى زيدان	أحمد حافظ	مجلة الهلال	١٩١٤/٧/١

---

(١) ملحقة بالهلال. (كاملة)

(٢) ملحقة بالهلال. (كاملة)

(٣) نشرت رواية فتح الأندلس ملحقة بالهلال سنة ١٩٠٣.

(٤) نشرت عبد الرحمن الناصر ملحقة بالهلال سنة ١٩١٠.

(٥) نشرت فتاة القيروان مسلسلة ابتداء من أول أكتوبر سنة ١٩١١، ثم نشرت ملحقة بالمجلة سنة ١٩١٢.

(٦) نشرت مسلسلة ابتداء من أول أكتوبر سنة ١٩١٢، ثم نشرت ملحقة بالمجلة سنة ١٩١٣.

	عوض		
وفاة صاحب الهلال	محرر	مجلة رعمسيس	أغسطس ١٩١٤
الفقيد روائياً (عن جرجى زيدان)	نقولا حداد	الهلال	نوفمبر ١٩١٤
الكسندر ديماس وجرجى زيدان	محمد طاهر راشد	مجلة الفجر	١٩٢٦/١/١٧
القصص والتاريخ وما بينهما من علائق	محرر	جريدة السياسة	١٩٢٩/٦/١٥

ومما لاشك فيه أن من يضع ما نقلناه عن الدوريات آنفا نصب عينيه، ويدقق فيه، ويقارن بينه وبين ما ذكرناه من أمثلة لاضطرابات الدارسين وتباينهم فيما حددناه يمكنه أن يهتدى معنا إلى كثير من النتائج المحققة المصوبة المفسرة .. ومن هذه النتائج ما يلى :

١- أن الدكتور محمد يوسف نجم فى فهرسه يذكر تاريخ بداية نشر الرواية مسلسلة فى مجلة الهلال، وتاريخ طبعها فى كتاب. لكنه لم يشر إلى ذلك.

٢- أن بعض الدارسين يكتفى بإيراد تاريخ نشر الرواية فى كتاب، وبعضهم يكتفى بإيراد تاريخ نشرها فى المجلة.

٣- أن التسلسل الزمنى لتأليف الروايات يختلف عن التسلسل الزمنى للحوادث التاريخية التى تناولتها الروايات.

فالتسلسل الزمنى لتأليف الروايات (كما يتضح من تواريخ نشرها لأول مرة)) هو هكذا :

المملوك الشارد ١٨٩١، أسير المتمهدى ١٨٩٢، استبداد المماليك ١٨٩٣، أرمانوسة المصرية ١٨٩٥، فتاة غسان ١٨٩٩، عذراء قريش ١٨٩٩، ١٧ رمضان ١٨٩٩، غادة كربلاء ١٩٠١، الحجاج بن يوسف ١٩٠٢ ، فتح الأندلس ١٩٠٤، شارل وعبد الرحمن ١٩٠٤، أبو مسلم الخراسانى ١٩٠٥، العباسة أخت الرشيد ١٩٠٦، الأمين والمأمون ١٩٠٧، عروس فرغانة ١٩٠٨، أحمد بن طولون ١٩٠٩، عبد الرحمن الناصر ١٩٠٩، الانقلاب العثمانى ١٩١١، فتاة القيروان ١٩١٢، صلاح الدين ومكائد الحشاشين ١٩١٣، شجرة الدر ١٩١٣. أما الرواية الغرامية (جهاد المحبين) فقد نشرها سنة ١٨٩٣م.

تلك هى روايات جرجى زيدان التاريخية مرتبة موثقة حسب التأليف ثم النشر لأول مرة. وهو ما نسميه : (الترتيب التاريخى لتأليف الروايات) ونشرها لأول مرة.

أما التسلسل الزمنى للحوادث التاريخية التى تناولتها الروايات فهو هكذا:

١- فتاة غسان[١].

٢- أرمانوسة المصرية[٢].

٣- عذراء قريش[٣].

٤- ١٧ رمضان[٤].

٥- غادة كربلاء[٥].

٦- الحجاج بن يوسف[٦].

٧- فتح الأندلس[٧].

٨- شارل وعبد الرحمن[٨].

٩- أبو مسلم الخراسانى[٩].

---

(١) فتاة غسان : تشرح حال الإسلام من ظهوره إلى فتوح العراق والشام، مع بسط عادات العرب وأخلاقهم فى آخر جاهليتهم وأول إسلامهم.

(٢) أرمانوسة : فيها تفصيل فتح مصر على يد عمرو بن العاص، مع بسط سائر أحوال العرب والأقباط والرومان فى ذلك العصر.

(٣) عذراء قريش : تتضمن تفصيل مقتل الخليفة عثمان بن عفان، وخلافة الإمام على، وما نجم عن ذلك من الفتنة وواقعتى الجمل وصفين.

(٤) ١٧ رمضان : تفصيل مقتل الإمام على، وبسط حال الخوارج وقيام الفتنة واستئثار بنى أمية بالخلافة، وخروجها من أهل البيت.

(٥) غادة كربلاء : تتضمن ولاية يزيد بن معاوية، وما جرى فيها من مقتل الإمام الحسين وأهل بيته فى كربلاء، ووقعة الحرة وغيرها.

(٦) الحجاج بن يوسف : تتناول حصار مكة على عهد عبد الله بن الزبير إلى فتحها، وخلوص الخلافة لعبد الملك بن مروان، مع وصف مكة والمدينة.

(٧) فتح الأندلس : تتضمن تاريخ أسبانيا قبيل الفتح الإسلامى، ووصف أحوالها وفتحها على يد طارق بن زياد، ومقتل رودريك ملك القوط.

(٨) شارل وعبد الرحمن : تشرح فتوح العرب فى بلاد فرنسا، وما كان من تكاتف الإفرنج بقيادة "شارل مارتل" وأسباب فشل العرب فى أوربا.

(٩) أبو مسلم الخراسانى : تشتمل على سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية إلى مقتل أبى مسلم. ويتخلل ذلك وصف عادات الخراسانيين.

١٠- العباسة أخت الرشيد[١].

١١- الأمين والمأمون[٢].

١٢- عروس فرغانه[٣].

١٣- أحمد بن طولون[٤].

١٤- عبد الرحمن الناصر[٥].

١٥- فتاة القيروان[٦].

١٦- صلاح الدين ومكايد الحشاشين[٧].

١٧- شجرة الدر[٨].

١٨- استبداد المماليك[٩].

١٩- المملوك الشارد[١٠].

٢٠- أسير المتمهدى[١].

---

(١) العباسة أخت الرشيد : تشتمل على نكبة البرامكة، وما يتخلل ذلك من وصف مجالس الخلفاء وملابسهم ومواكبهم، وحضارة الدولة فى عصر الرشيد.

(٢) الأمين والمأمون : تفصل الخلاف بين الأمين والمأمون، وقيام الفرس لنصرة المأمون حتى فتحوا بغداد، ودخائل السياسة بين العرب والفرس.

(٣) عروس فرغانه : تحوى وصف الدولة العباسية فى عصر المعتصم بالله، وقيام الفرس لإرجاع دولتهم، ونهوض الروم لاكتساح المملكة الإسلامية.

(٤) أحمد بن طولون : فيها وصف لمصر وبلاد النوبة وعلاقاتهما السياسية فى أواسط القرن الثالث للهجرة على زمن أحمد بن طولون.

(٥) عبد الرحمن الناصر : تشتمل على وصف بلاد الأندلس وحضارتها فى زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموى، وخروج ابنه عبد الله إليه.

(٦) فتاة القيروان : تتضمن ظهور دولة العبيديين أو الفاطميين فى إفريقية، ومناقب المعز لدين الله وقائده جوهر، وانتزاعه مصر من الدولة الإخشيدية.

(٧) صلاح الدين ... : تتضمن انتقال مصر من الفاطميين إلى الأيوبيين على يد السلطان صلاح الدين، مع وصف طائفة الإسماعيلية.

(٨) شجرة الدر : تتضمن مبايعة شجرة الدر، وسيرة الأمير ركن الدين بيبرس، وحالة الخلافة العباسية وقتئذ، وانتقالها من بغداد إلى مصر.

(٩) استبداد المماليك : تتضمن حوادث مصر والشام فى أواخر القرن الثامن عشر، مع بسط عادات الأمراء والمماليك وأخلاقهم ونوع حكومتهم.

(١٠) المملوك الشارد : تشمل وصف حوادث مصر وسورية وأحوالهما فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. ومن أبطالها : محمد على باشا الكبير، وإبراهيم باشا، والأمير بشير الشهابى، وأمين بك.

٢١- الانقلاب العثمانى[٢].

أما جهاد المحبين فهى ـ كما سبق القول رواية أدبية غرامية تبين ما يقاسيه المحبون فى سبيل الحب.

تلك هى روايات جرجى زيدان التاريخية مرتبة حسب العصور التاريخية. وهو ما نسميه : (الترتيب التاريخى لحوادث الروايات) أو (التسلسل التاريخى لأحداث الروايات).

فهناك إذن للروايات ترتيبان :

١- ترتيب على حسب تأليف الروايات ونشرها، وفيه لا تأتى الروايات مرتبة على حسب ترتيب العصور التى اختارها زيدان لرواياته. وهذا ما كان منه.

٢- ترتيب أو تسلسل للروايات حسب ترتيب العصور التى اختارها لرواياته، لا حسب ترتيب تواريخ صدورها لأول مرة. وهذا ما لم يفعله.

فلا يوجد إذن رابط يربط بين رواياته التاريخية فى الطريقة التى اتبعها فى تأليفها ثم نشرها بعد التأليف، اللهم إلا إذا كان هذا الرابط هو ذلك الخيط النفسى الذى حاول زيدان نسجه للربط بين تلك الحوادث المختلفة الأزمنة، أعنى بذلك الخيط النفسى : ما كانت تحتويه نفسه من رغبة دفينة فى تقديم التاريخ الإسلامى بصورة تبرزه تاريخاً لا وضاءة فيه ولا إشراق، ولا مجد ولاعظمة، وهو فى هذا كان واقعاً تحت تأثير من انتمائه الدينى وتأثره بالمستشرقين، مما جعله يقدم التاريخ الإسلامى بصورة يعلى فيها من قدر الشعوب الأعجمية، ويترك الفترات المشرقة فى تاريخ المسلمين دون أن يصورها أو يعتنى بها العناية الكافية، ويختار الفترات الحساسة كما سيجىء التفصيل.

---

(١) أسير المتمهدى : تتناول الأحداث المهدوية من أول ظهور المهدى فى السودان إلى سقوط الخرطوم، وحوادث الثورة العرابية من أول نشأة عرابى إلى الاحتلال الإنجليزى.

(٢) الانقلاب العثمانى : تشرح أحوال الأحرار العثمانيين، وما قاسوه فى طلب الدستور، ووصف يلدز وقصورها وحدائقها وعبد الحميد وجواسيسه.

هذا ولم تلتزم دار الهلال حينما أعادت نشر هذه الروايات فى سلسلة أسمتها (روايات الهلال ـ سلسلة تاريخ الإسلام) أياً من هذين الترتيبين السابقين، فهى على سبيل المثال فى المدة من منتصف فبراير ١٩٥٠ إلى منتصف أغسطس ١٩٥١ نشرت ١٨ رواية فى هذه السلسلة بواقع واحدة فى منتصف كل شهر، وكان أول ما نشر هو رواية فتح الأندلس فى منتصف فبراير ١٩٥٠ مع أن هذه الرواية هى السابعة فى الترتيب التاريخى لحوادث الروايات، ثم بعد نشر روايتين[1] بالطريقة نفسها عادت إلى الالتزام بالترتيب التاريخى لحوادث الروايات، وكان الجزء الأول من فتاة غسان الصادر فى منتصف مايو ١٩٥٠ هو الأول، وتلاه الجزء الثانى من الرواية فى منتصف يونيو ١٩٥٠ ـ وهكذا حتى انتهت السلسلة فى منتصف أغسطس ١٩٥١.

وكانت الدار فى الصفحة الأخيرة من أغلب هذه الروايات تنص على أن سلسلة تاريخ الإسلام ثمانى عشرة رواية هى : (فتاة غسان ـ أرمانوسة المصرية ـ عذراء قريش ـ ١٧ رمضان ـ غادة كربلاء ـ الحجاج بن يوسف ـ فتح الأندلس ـ شارل وعبد الرحمن ـ أبو مسلم الخراسانى ـ العباسة أخت الرشيد ـ الأمين والمأمون ـ عروس فرغانه ـ أحمد بن طولون ـ عبد الرحمن الناصر ـ فتاة القيروان ـ صلاح الدين ومكايد الحشاشين ـ شجرة الدر الانقلاب العثمانى)[2].

أما رواياته (استبداد المماليك، والمملوك الشارد، وأسير المتمهدى، وجهاد المحبين) فذكرت دار الهلال أنها خارجة عن سلسلة تاريخ الإسلام.

والواقع أن هذه الطريقة الغريبة التى تبعثر وتفرق عصور الروايات التاريخية عن بعضها أثناء النشر، وتحذف من السلسلة روايات، وتنقل السلسلة من العصر الحديث رواية تجعلها فى آخر السلسلة ـ لا يكاد الإنسان يفهم لها تفسيراً.

---

(١) هما : أرمانوسة المصرية وعذراء قريش.

(٢) يلاحظ هنا : أن الانقلاب العثمانى التى هى آخر الروايات فى الترتيب التاريخى لحوادث الروايات عدت فى السلسلة ضمن روايات تاريخ الإسلام، وأنها الثامنة عشرة والأخيرة فى هذه السلسلة، وأنها الوحيدة من العصر الحديث ضمن هذه السلسلة.

والظاهر أنه كان يمثل سياسة متعمدة للدار موروثة عن صاحب الروايات ورئيس الدار نفسه .. أعنى جورجى زيدان، فنحن إذا عدنا القهقرى إلى الأيام التى كان زيدان يؤلف فيها هذه الروايات، وتتبعنا طريقته فى الكتابة والنشر للروايات سنكتشف أنه كان لا يعنى إطلاقاً بالجانب التاريخى للحوادث من حيث التسلسل، بدليل أنه لم يتقيد عند تأليفه لهذه الروايات بالزمن على صورة تنازلية أو تصاعدية، بل كان يأخذ من هنا وهناك، حتى إنه بدأ بالماضى القريب إلى عصره فكتب (المملوك الشارد) و(أسير المتمهدى)، ثم انتقل إلى الماضى البعيد عن زمنه فكتب أرمانوسة المصرية، وعذراء قريش ... الخ، وحتى إنه - أيضاً - كتب (الانقلاب العثمانى) قبل فتاة القيروان وصلاح الدين وشجرة الدر.

وهذا يفيد أمرين :

١- أن زيدان لم يكن لديه تصميم نظرى سابق لهذا المشروع الذى أعلن غير مرة أنه يؤرخ فيه لأحداث التاريخ الإسلامى. ومن هنا كان الخروج فيما ذكرناه من روايات على التسلسل التاريخى للأحداث، كما يتضح من تواريخ طبع رواياته التى سبق ذكرها.

٢- أن زيدان لم يكن لديه خيط نفسى واحد يجمع كل تلك الحوادث التى بعثر وفرق عصورها فى التأليف وفى النشر.

وهذا - بدون شك - يدفعنا إلى وقفة لابد منها : هل كان زيدان فعلاً فاقداً للتصميم النظرى الذى ينطلق على أساسه فيما كان يكتب من روايات ؟ أم أن صنيعه هذا يمثل خطة متعمدة مشبوهة وليدة حافز نفسى يدفعه إلى تلك الخطة التى استطاع أن يقدمها بدهاء، وينفذها بهذا الجهد الجبار الذى بذله فى تاريخ لا ينتمى إليه دينيا ؟! سبق أن قدمنا بعضاً من الإجابة على هذا السؤال، لكن الجواب لا يظهر بوضوح أكثر إلا بالسير مع زيدان خطوة بخطوة فيما كان يصنعه، وما كان يردده خلال الزمن الذى أخرج فيه رواياته لأول مرة. ولنبدأ السير بما ذكره الدكتور محمد يوسف نجم فى هذا المجال، حيث قال :

"أقدم زيدان على محاولته الأولى "المملوك الشارد" وأتبعها بقصص أخرى تتعلق بالتاريخ الحديث، ومن بينها القصة الاجتماعية "جهاد المحبين".

وقد لاقت قصصه إقبالاً عظيماً عند القراء مما شجعه على المضى فى عمله. وقد رغب إليه بعض قرائه أن يجعل هذه الروايات مسلسلة تسلسل حوادث التاريخ الإسلامى، لتقوم لديهم مقام تاريخ عام للإسلام[1]، فأخذ ينظم السلسلة، فأصدر "فتاة غسان" (١٨٩٦ ـ ١٨٩٨) بعد أن سبقتها "أرمانوسة المصرية"، مع أن حوادث الأولى متقدمة على الثانية، فى الترتيب التاريخى، ثم واصل نشر السلسلة حتى انتهى بشجرة الدر سنة ١٩١٣. فكانت آخر ما كتبه من القصص. وفاجأته المنية قبل أن يتم السلسلة ويصل حلقاتها المتتابعة ـ من صدر الإسلام إلى أواسط القرن الهجرى السابع ـ بما يتلوها من قصصه الأولى وهى "استبداد المماليك" و"المملوك الشارد" و"أسير المتمهدى" و"الانقلاب العثمانى"[2].

وما قاله الدكتور نجم يؤكده قول جرجى زيدان نفسه فى تقديمه لروايته التى عنوانها (أبو مسلم الخراسانى) : "شرعنا فى تأليف سلسلة روايات تاريخ الإسلام على أن ننشر منها كل سنة حلقة[3] نضمنها واقعة من الوقائع الكبرى التى أثرت فى تاريخ الإسلام تاريخاً يذكر، وكنا قبل الشروع فى هذه السلسلة نؤلف الرواية بعد الرواية فى مواضيع مستقلة، كرواية المملوك الشارد، وأسير المتمهدى، وجهاد المحبين. ولم ننشر شيئاً منها فى الهلال، حتى ألفنا رواية أرمانوسة المصرية سنة ١٨٩٥ ... فلاح لنا أن ننشرها ملحقة بالهلال على سبيل التجربة بأهلة السنة الرابعة. ولبثنا نترقب ما يكون من وقعها عند المطالعين. فرأينا من إقبالهم على الهلال فى تلك السنة ما لم نعهده من قبل. ولم نكد نبلغ منتصف تلك السنة حتى تضاعف عدد المشتركين، ونفد ما كنا ادخرناه من أعداد الهلال للمجموعات فى المستقبل، ناهيك بما جاءنا من كتب الأدباء يستحسنون هذه الخطة، ويحرضوننا على نشر الروايات التاريخية الإسلامية فى الهلال. واقترح علينا أحد الأصدقاء أن نجعل تلك الروايات

---

(١) الهلال : السنة الخامسة ص ٢٤.

(٢) القصة فى الأدب العربى الحديث : ص ١٧٧، ١٧٨.

(٣) نشرت غالبيتها العظمى مسلسلة فى الهلال. ثم نشرت كل رواية فى كتاب خاص بها تباعا بحسب التواريخ التى سبق ذكرها. ويبتدأ نشرها مسلسلة فى أعداد مجلة الهلال ابتداء من مجلدها الرابع سنة ١٨٩٥م وفى أعداد متسلسلة من الكتاب السنوى بالمجلة.

متسلسلة من أول ظهور الإسلام، فننشر التاريخ الإسلامى فى روايات غرامية، تشويقاً للمطالعين على نحو ما فعلناه فى رواية أرمانوسة فاستحسنا هذا الرأى، وعزمنا على العمل به. وبما أن رواية أرمانوسة المذكورة تشتمل على فتح مصر؛ فهى لا تصلح أن تكون الحلقة الأولى من تلك السلسلة، فجعلناها الثانية، وألفنا رواية فتاة غسان، ضمناها ظهور الإسلام وفتوح العراق، وجعلناها الحلقة الأولى. ثم ألفنا رواية عذراء قريش، وجعلناها الحلقة الثالثة، ثم ١٧ رمضان الحلقة الرابعة"[١].

واضح مما قاله زيدان : أنه كتب أول ما كتب رواية (المملوك الشارد)، ونشرها عام ١٨٩١ قبل أن يصدر مجلته (الهلال).

ثم نشر بعدها : رواية (أسير المتمهدى) ورواية (جهاد المحبين) ـ وربما (استبداد المماليك) ـ كتباً مستقلة لا يربط بينها وبين مجلة الهلال شىء.

وعندما ألف رواية (أرمانوسة المصرية) عام ١٨٩٥ نشرها فى أعداد الهلال على سبيل التجربة، فنجحت نجاحاً عظيماً.

فعل ذلك دون أن يربط رواية بأخرى، ودون أن تكون فى نيته خطة عامة لرواياته، غير أن نجاح (أرمانوسة) أغراه بأن يضع خطة لتنفيذ المادة الثالثة من الخطة التى رسمها لمجلة الهلال، وافتتح الجزء الأول منها، وسماها (باب الروايات)، وقال فيها : "سندرج فيه من الروايات على مثال ما كتبناه مما هو تاريخى أدبى، ممثل لعادات الشرقيين وحوادثهم، موافق لأذواقهم، خال من الحوادث الأجنبية والمسميات الأعجمية. فندرج فى كل جزء من الهلال جزءاً من الرواية، مع ما تحتاج إليه من الرسوم".

ولكن الخطة أجبرته على تغيير موضع بعض الروايات من بعضها الآخر ليتابع التسلسل الزمنى للتاريخ.

وعكف على التأليف زمناً طويلاً امتد من تسعينيات القرن التاسع عشر إلى أن جاوز العقد الأول من القرن العشرين، وصدرت روايته (شجرة الدر) قبيل رحيله إلى العالم الآخر بشهور.

---

(١) مقدمة جرجى زيدان لروايته عن أبى مسلم الخراسانى.

وتجدر الإشارة - فى هذا الصدد - إلى أن الأستاذ عبد الفتاح عبادة - من معاصرى زيدان - قد أشاد بهذه الخطة التى كان يتبعها زيدان فى نشر رواياته بمجلة الهلال وجاءت هذه الإشادة فى حفل التأبين الذى أقامته دار الهلال لزيدان بعد وفاته، وفى هذه الإشادة يقول :

"لا يخفى أن هذه الروايات كانت تنشر فى الهلال تباعاً فكان كل عدد منه يصدر مذيلاً بملزمة أو أكثر منها حتى تنتهى الرواية بانتهاء السنة وهذه هى الخطة التى سار عليها فى الهلال منذ أصدر هذه الروايات فكان القراء يتشوقون إلى بقية الرواية وخصوصاً إذا قرأوا أوائلها فى الأعداد الأولى من كل سنة وربما يكتبون إليه يطلبون الرواية لأنهم لا يصبرون على تلاوتها متقطعة فى أعداد السنة لما فيها من التشويق كما حدث له فى رواية فتاة غسان وعذراء قريش فإن بعضهم كتب إليه يقول : "أرسلوها لنا خطأ نقرؤها ونرجعها إذ لا صبر لنا على انتظار صدور الهلال" وقال غيرهم غير ذلك وممن كتب إليه فى هذا الشأن مولاى حمود بن محمد بن سعيد سلطان زنجبار السابق من كتاب نشر بعضه فى السنة السابعة من الهلال ومنه قوله : "ولا تظن إظهارها (أى الرواية) فما قصدنا إلا الاطلاع عليها وما هى إلا كالشعرة البيضاء من الثور الأسود لا تحاذر أن يطلع عليها أهل العالم ..." فهذا يدل على شدة شغف من القراء وكلهم مجمعون على التشوق لمطالعة الرواية قبل أن تنشر فى الهلال كأنهم يحسبونها قد تم تأليفها أو طبعها والأمر بالعكس فإنه لم يكن يكتب من الرواية عند كل هلال إلا ما يحتاج إلى نشره فى ذلك العدد"[١].

وبعد : فلعلى بما كتبته فى هذا المبحث اكون قد قدمت صورة واضحة المعالم بينة القسمات لما يصح نسبته إلى زيدان من روايات، وما لا يصح بالعدد الحقيقى الصحيح لما كتبه جورجى زيدان من روايات، اتضح للقارئ توثيقنا لها بالنص على أنها قبل أن تطبع فى كتب مستقلة نشر أغلبها فى مجلة الهلال، وكان بعضها ينشر فى المجلة على هيئة حلقات مسلسلة، ثم لما تنتهى الرواية تصدرها الدار كاملة فى كتابها السنوى، وكان بعضها ينشر كاملاً ملحقاً بمجلة الهلال، لكن بعض رواياته التى كتبها قبل إصداره لمجلة الهلال لم تنشر فيها.

---

(١) جرجى زيدان، بقلم مجموعة من الكتاب : ص١٣٢، ١٣٣ ط دار الهلال ١٩١٥م.

إن ما سبق عرضه قد أوضح أن الترتيب الزمنى لتأليف زيدان ونشره لرواياته، يختلف عن الترتيب التاريخى لأحداثها، لذلك فإنى أنبه كل دارس يرغب فى دراسة روايات زيدان إلى حتمية رجوعه أولاً وقبل كل شىء إلى المصادر الأولى التى احتوت هذه الروايات، أعنى مجلدات مجلة الهلال، لأن رجوعه إليها ضرب من التوثيق الذى صنعناه، على أنه يوقف الدارس على الترتيب الزمنى لتأليف تلك الروايات ونشرها لأول مرة. ثم إنه يقف على التاريخ الصحيح الدقيق للسنة التى ألفت فيها الروايات ونشرت، وبالتالى فإنه لن يقع فيما وقع فيه الدارسون الذين مرّ ذكرهم فى هذا المبحث من اضطراب وتباين فى عدد روايات زيدان، وسنوات صدورها لأول مرة، وفيما تتناوله كل رواية من العصور التى تناولها زيدان فى تلك الروايات.

وأعتقد أيضاً : أننا بما كتبناه فى هذا المبحث قد أوضحنا للقارئ الكريم تلك الطريقة التى كان يتبعها زيدان ودار الهلال من بعد رحيله حتى الآن فى نشر تلك الروايات نشراً لا يلتزم بالترتيب التاريخى المتسلسل لأحداث الروايات، على أن دار الهلال ودور نشر أخرى فى بيروت كانت أحياناً تقدم كل رواياته - حتى رواية جهاد المحبين - فى سلسلة تسميها (روايات زيدان - سلسلة روايات تاريخ الإسلام) وأحياناً تخرج روايات سبق النص عليها من تلك السلسلة، وتنشرها بغير هذا الشعار. وقد مثلنا لذلك بما نشرته الدار من ثمانى عشرة رواية سبق النص عليها فى هذه السلسلة، ختمتها برواية (الانقلاب العثمانى) مع أن هذه الرواية من العصر الحديث، ومع أن روايات زيدان التى تدور حول الفترات التى اختارها زيدان من التاريخ الإسلامى القديم سبع عشرة رواية فحسب. وقوّلنا هذا قد صوب - بدون شك - أو بتعبير آخر - فسرّ كثيراً من ألوان الاضطراب والتباين اللذين سبق أن ضربنا لهما الأمثلة فى إشاراتنا لما وقع على أيدى الدارسين فى هذا المجال.

تلك هى خلاصة ما أتينا على ذكره فى هذا المبحث الذى كان لابد منه فى مطلع دراستنا التاريخية لروايات زيدان. ولننتقل معاً إلى مبحث آخر من مباحث هذه الدراسة.

هدف زيدان من معالجته
للرواية التاريخية
(عرض وتعليقات)

تمهيد

درج الناس في زمن زيدان على الكشف عن مقاصدهم ومراميهم مما يترجمون أو يؤلفون من قصص، وبخاصة إذا كانت القصص قصصاً تاريخية فعلى سبيل المثال :

ذكر رفاعة الطهطاوى أنه ترجم رواية أوسيرة (تليماك) نظراً "لما اشتملت عليه من المعانى الحسنة، مما هو نصائح للملوك والحكام، ومواعظ لتحسين سلوك عامة الناس"، وكتب سليم البستانى في روايته (الهيام في جنان الشام) التى نشرت في مجلته (الجنان) عام ١٨٧٠ إنه "كم من فائدة تاريخية يحصل الإنسان عليها بواسطة الروايات، فيكون قاصداً الوقوف على خير المتحابين فيعثر بحقبة تاريخية أو نتيجة حكمية أو إصلاح أو تنكيت يلزمه أكثر من غيره. فالضجر من الكلام عن هذه الأمور في بلاد ظروفها كظروف بلادنا خطر عظيم"، وكتب على مبارك في مقدمته لرواية (علم الدين) التى ظهرت في القاهرة عام ١٨٨١م إنه ألفها ابتغاء نفع الوطن، وتعليم أبنائه وبث المعارف والفنون النافعة فيهم، واتخذ فيها أسلوب الحكاية لأنه رأى النفوس كثيراً ما تميل إلى السير والقصص وملح الكلام"، وقال نعمان القساطلى في خاتمة روايته (أنيسة) التى نشرت في العام ذاته بمجلة (الجنان) : وقف هنا القلم، وانتهى ما رأيت لزوماً لإثباته في هذه الرواية المخترعة من المواضيع الأدبية، والنكات الحكمية، والحوادث الحبيبة، والنوادر الصدفية، وجعلتها خدمة لشبان وشابات وطنى العزيز، بها يميزون الجيد من القبيح"، وكتب محمود خيرت في مقدمة روايته (الفتاة الريفية) التى صدرت في القاهرة سنة ١٩٠٥م : "...... على أن الرواية لا تكون قيمة حتى ترمى إلى غرض شريف أو فائدة حكمية، وربما كانت ألزم لردع النفس الشريرة عن السير في طريق المفاسد والشرور، وأدعى إلى انفتاح القلوب الضالة إلى الفضيلة ومحاسن الأخلاق، فتكون

الروايات درساً من دروس الحياة يسير بالقارئ في طريق الهداية، ويرشده إلى محجة الصواب".

وكان شأن زيدان في الكشف عن مقصوده من رواياته شأن هؤلاء وأمثالهم، إذ كتب هو الآخر يقول : "رأينا بالاختبار أن نشر التاريخ على أسلوب الرواية أفضل وسيلة لترغيب الناس في مطالعته والاستزادة منه، فالعمدة في روايتنا على التاريخ، وإنما نأتي بحوادث الرواية تشويقاً للمطالعين"(١).

ولقد أوضح زيدان سر اختياره للتاريخ الإسلامى بالذات ليكون موضوعاً لرواياته بأنه أراد أن يضفى عليه جواً جديداً غير ذلك الجو الذي كان سائداً من قبل فهو قد رأى تاريخ الإسلام ما زال مطوياً فيما ألفه أهل القرون الأولى للهجرة متفرقاً في تواريخهم العامة على أسلوب أصبح اليوم مهجوراً لطوله واختلاطه أو لاختصاره واقتضابه حتى تصدينا لنشره مبسوطاً على أسلوب جديد في سلسلة روايات فكاهية يقرأها المطالع بلذة وشوق"(٢).

ويفهم من كلام زيدان السابق أنه أراد من معالجته للرواية التاريخية ثلاثة أهداف :

أولها : تعليم التاريخ بلا مشقة ولا استثقال، وبطريقة تحبب الناس فيه.

ثانيها : تسلية القارئ وتشويقه ليستمر في قراءة التاريخ.

ثالثها : تجميل التاريخ في أعين الناس، وتكوين صورة مكبرة منه بغية إحيائه.

وحرى بالذكر : أن الذين كتبوا عن زيدان ورواياته قد انقسموا إزاء هذه الأهداف التى صرح بها إلى فريقين :

---

(١) جاء ذلك في مقدمته التى كتبها لروايته عن (الحجاج بن يوسف) : ينظر : الرواية ص١ الطبعة الثانية سنة ١٩٠٩، وكذلك طبعة سنة ١٩١٣.

(٢) مجلة الهلال، السنة السابعة ص٤٦٢.

الأول : راح يردد ما ذكره زيدان، مصدقاً له ومؤيداً، ومن هذا الفريق الأستاذ محمد عبد الغنى حسن الذى قال عن زيدان : "كان مؤرخاً ومعلماً لتاريخ العرب والإسلام، أراد أن يعلم العرب تاريخهم بطريقة مشوقة جذابة، تحملهم على قراءة تاريخهم حملاً بلا مشقة ولا استثقال"(١).

والفريق الثانى : لم يردد ما ذكره زيدان، وإنما راح يعلق على ما صرح به من أهداف تعليقات يفهم منها أن أعضاء هذا الفريق لا يسلمون بمصداقيته فيما قال؛ بل يرون أن لتلك الروايات أهدافاً أخرى مضمرة لم يصرح بها، وأنها تخالف أهدافه المعلنة.

فأهداف زيدان فيما يرون ليست تعليمية ولا تاريخية، ولا للتسلية كما حاول زيدان أن يوهم قراءه في تلك المقدمة التى كتبها لروايته عن الحجاج. وإنما هى أهداف سياسية محضة في مرآة الناقد المعروف "فاروق خورشيد"؛ إذ يقول في هذا الصدد : "كان زيدان على معرفة طيبة بالكثير من الأعمال الروائية في أدبنا الشعبى القديم الذى يعد عرضاً روائياً فنياً للتاريخ العربى كله- تاريخ الشعوب التى ارتضت العربية لغة ثقافة والإسلام ديناً، والتى عاشت معاً في هذه المنطقة. ولقد رسمت السير الشعبية كفاح هذا الشعب قبل الإسلام وبعده في مواجهة القادمين الغزاة من الشرق والشمال والجنوب على السواء، وقد ذهبنا في أكثر من دراسة إلى القول بأن هذه الأعمال الشعبية قد ترجمت عن وحدة هذه الأمة، وحفظت لهذا المعنى وجوده عبر كل الأزمات التى عاشها هذا الشعب من زمن إلى زمن، ومن منطقة إلى منطقة، وأرخت لصراع أبناء هذه المنطقة وبطولاتهم من أجل صد الغزاة الصفر والشقر والسود عبر التاريخ كله، وبعثت الحياة فنيا في أبطال التاريخ بقصص الحب والبطولة وإبراز القضايا الهامة التى عاشها الإنسان في هذه المنطقة بحثاً عن معانى الحب والسيادة والحرية والتوحد والمساواة.. إلا أن هذه السير قد أخذت موقفاً عدائياً واضحاً من أعداء هذا الشعب، فقدمتهم بصورة كريهة رسبت في ضمائر المتلقين، وظلت تؤكد العداوات لكل القوى الوافدة لتنهب ثروات هذه الأمة، وتدفعهم إلى الحذر من نواياهم وأهدافهم في إصرار يوقظ الضمير الشعبى

---

(١) جرجى زيدان لمحمد عبد الغنى حسن : ص١٠١ .

باستمرار .... ونحن نذهب إلى أن تغلغل هذه السير الشعبية وتأثيرها على نفسيات ووجدانات وأفكار عامة الناس، هو السبب الرئيسى في كتابة هذه السلسلة من الروايات الإسلامية، التى تحتذى السير الشعبية في أنها تغطى تاريخ الأمة الإسلامية كله، كما تحتذيها في المنهج الفنى والهدف السياسى. فهذه السير لم تكن مطروحة لمجرد التسلية والإمتاع، وإنما هى وسائل ترابط قومى واجتماعى، ووسائل توحيد في المعتقدات والعادات، ووسائل تربية تربط المعاصر بثقافته القومية وكفاحه القديم، وترسب فيه معانى البطولة والخلق والدين - فهى أعمال سياسية بالدرجة الأولى كتبها كتابها لمواجهة التمزق والتدهور والفرقة، ونجحوا عن طريقها في ترسب معانى التوحد والاستمرار والأصالة والمرونة، كما نجحوا في جعل المنطقة أرضاً واحدة بلا حدود، وبلا سدود، همومها هموم واحدة، وقضاياها قضايا واحدة، وأعداؤها أعداء بأعيانهم. وتأتى الروايات الجديدة لجرجى زيدان لتقدم لنا أبطالاً من المعسكر الآخر، ومن غير دين ولا جنسية هذه المنطقة في محاولة لعبور الجسور التى أقامتها هذه السير الشعبية، وإحلال أبطال جرجى زيدان مكان أبطال هذه السير، واستعمال نفس أدوات السير في تقريب هؤلاء الأغراب إلى قلوب أبناء المنطقة، ولذلك نجد فيها صورة الراهب والدير والأعجمى والرومى مغايرة تماماً لما تقدمه سيرنا الشعبية لهم. وقد يكون لجرجى زيدان رؤية معينة في التوفيق بين شعوب المنطقة وأعدائهم التقليديين، وقد يكون وراء أعماله هدف إزالة الحواجز القديمة التى أرستها السير الشعبية، ولكن أيا كان الهدف، فقد كان رائدا للرواية السياسية، أى ذات المضمون والهدف السياسى الذى يحفر في وجدان القارئ رؤية بذاته تحقق صدى لرؤيته هو وموقفه هو"(١).

ذلك هو هدف زيدان من رواياته عند الناقد فاروق خورشيد .

أما الدكتور سيد حامد النساج فيقول : "باستقراء الظروف التى أحاطت بنشر هذه السلسلة من الروايات يمكن استبعاد أن يكون جرجى زيدان قد رغب في إحياء التراث العربى. فالتراث يخلو من فن القصة والرواية بالمعنى الحديث لهذين الفنيين. ونراه أيضاً لم يلجأ إلى الشعر فن العربية الأول. ثم إنه ابتعد عن تقليد المقامة العربية، ليقدم الموضوعات الإسلامية من خلال هذا

---

(١) من تقديم فاروق خورشيد لرواية عذراء قريش طـ دار الهلال ١٩٨٣.

الشكل الأدبى النثرى العربى القديم. أراد أن يكون منفرداً عن كل من ناصيف اليازجى وأحمد فارس الشدياق، وأن يكون اتجاهه مختلفاً عن كل من سليم البستانى وجميل نخلة المدور وفرح أنطون ونقولا حداد ويعقوب صروف؛ ومن ثم استعار الرواية (هذا الشكل الأدبى الذى اطلع على آثاره الأوربية في لغته الأصلية) ليكون وسيلته الجذابة والشائقة، التى نقل عن طريقها القديم الذى اختاره. وهو بهذا يضرب عصفورين بحجر واحد"(١).

بعد أن قال الدكتور النساج هذا أوضح أن زيدان "تعمد التسلية أولاً وقبل كل شىء؛ لأنه لو كان يقصد التعليم لتحرى الدقة والأمانة، ولاكتفى بإعادة صياغة التاريخ صياغة جد مبتكرة، ولتفنن في ذلك بمختلف الأساليب الفنية، على نحو ما فعل كبار الكتاب الذين جعلوا التاريخ موضوعاً لأعمالهم الروائية"(٢).

كذلك قرر : أن نزوع جرجى زيدان نحو التاريخ "ليس إلا تقليداً للكتاب الأوربيين الرومانسيين، الذين وجدوا في التاريخ وفى الماضى ملجأ ومهرباً"(٣) إضافة إلى "مراعاة ظروف قارئه وحاجاته في البلاد العربية والإسلامية"(٤).

وقرر أيضاً : أن زيدان "أراد التشويق لمزيد من التسويق؛ حتى تكتمل تسلية القارئ على نطاق واسع، وفى مساحة جغرافية عريضة، وجعل من قصة الحب الساق الوحيدة التى تتحرك بها الرواية"(٥).

وأيد الدكتور سيد حامد النساج(٦) ما ذهب إليه الدكتور عبد المحسن طه بدر من أن جورجى زيدان كان ينقصه الإحساس القومى المتحمس، فلم يتجه إلى التاريخ العربى بإحساس قومى يدفعه إلى إبراز أمجاد هذا التاريخ. كما أن الفكرة القومية لم تكن قد نضجت وتبلورت بعد في مجتمعنا.

---

(١) بانوراما الرواية العربية الحديثة : ص١٧٨، ١٧٩. ط ٢ دار غريب للطباعة - القاهرة.
(٢) السابق : ص١٨١، ١٨٢.
(٣)، (٤) السابق : ص١٨٤.
(٥) السابق : ص١٨٢. وليته قال: أراد التشويق لمزيد من التمزيق، كما سنقول.
(٦) ينظر : السابق : ص١٨٠.

وزيدان – في مرآة الدكتور النساج – لم يختر التاريخ العربى الإسلامى ليقول – من خلال رواياته المطولة – رأياً محدداً في "الحاضر" ...... حاضر الدولة العربية والإسلامية لعصره. بحيث يربط بين "الماضى" و"الحاضر" استشرافاً "للمستقبل" بشكل فنى. فلا هو جسد الماضى ليقدم مثالاً ونموذجاً يحتذى، ولا هو صوره ليتخذه وسيلة للكشف عن تناقضات الحاضر، والتعبير عن موقفه منه. وهذا هو الأسلوب الفنى الذى يلجأ إليه الكتاب والفنانون حين يصعب عليهم تناول الحاضر الذى يعيشونه. إنه لم يكن واعياً بالدور المهم الذى يمكن أن تؤديه الرواية التاريخية في تقريب الماضى إلى القارئ المعاصر، وتسمح له بأن يعيش وجوده الفعلى والحقيقى"[1].

وقد سمى أحد الباحثين افتقاد هذا الجانب في روايات زيدان بالضمور في الحسّ التاريخى[2].

وإذا كان لى من كلمة أعلق بها أنا الآخر على ما صرح به زيدان من أهداف لرواياته فإننى أذكر أنه لم يتجه إلى التعليم الخالص كما أتجه البعض، ولا إلى التسلية المحضة كما اتجه البعض الآخر، وإنما وقف في مركز متوسط بين الفريقين، ونقطة جامعة بين الغايتين : التعليم، والتسلية، فجاءت رواياته لتقدم إلى القراء التاريخ من ناحية، والقصة الغرامية التى تسليهم وتجذبهم إلى قراءة التاريخ الذى يقدمه من ناحية أخرى. لكنها قدمت التاريخ الإسلامى بصورة تشوهه وتمزقه كما سيجيئ التفصيل فى موضعه!

لقد ذكرت فيما سبق أن جرجى زيدان قدم للمكتبة العربية العديد من الكتب الدالة على توجهه نحو التاريخ والاهتمام به، وذكرت من هذه الكتب كتابه (تاريخ التمدن الإسلامى)، وكتابه (التاريخ العام)، وكتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام) وكتابه (تاريخ مصر الحديث) وكتابه (تاريخ الماسونية العام) ثم كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية).

والظاهر من تصريحات زيدان أنه رأى هذه الكتب لا تهم إلا المثقفين، ومن ثم فإنه أراد – كما يقول – أن يجذب انظار أنصاف المثقفين إلى التاريخ،

---

(١) السابق : ص١٨٠، ١٨١.
(٢) ينظر:الرواية التاريخية في الأدب العربى الحديث، الهوارى : ص٤٢.

وإلى قراءة مجلته (الهلال)، بحيث يحبون التاريخ ويقبلون على قراءته، فقرر أن يقدم لهم التاريخ بوسيلة تروقهم، وطريقة تجذبهم إليه، وكانت هذه الوسيلة والطريقة هى الرواية التاريخية الجامعة بين التعليم والتسلية .. إنه قال - مثلا -:

"إن مطالعة التاريخ الصرف تثقل على جمهور القراء، وخصوصاً في بلادنا، والعلم عندنا لا يزال في دور الطفولة، فلا بد لنا من الاحتيال في نشر العلم بيننا بما يرغب الناس في القراءة، والرواية أفضل وسيلة لهذه الغاية"[١].

ولا ينكر أحد على زيدان أن يكون ذا نزعة تعليمية شعبية يقصد من ورائها توسيع قاعدة القراءة بين الجماهير على أوسع نطاق.

لكن الذى ننكره عليه هو أن يتخذ من الرواية وسيلة لتشويه التاريخ الإسلامى، وطمس حقائقه، وتجريح السلف الصالح !! ونحو ذلك مما سنفصل القول عنه في موضعه؛ تفصيلاً يؤكد لقراء روايات زيدان أنه لم يكن فعلاً مدفوعاً بدافع قومى وطنى في الالتفات إلى التاريخ العربى الإسلامى واختيار موضوعاته الروائية منه ...... إنه كان يستهدف فقط - كما لمح أو صرح - تعليم التاريخ بأسلوب جذاب مشوق يخلو من جفاف السرد لحقائق التاريخ، ويمتع القارئ بما يبثه في ثنايا رواياته من أحداث ثانوية تصور الحب والغرام.

ولو كان زيدان مدفوعاً بدافع قومى وطنى لعنى بتصوير الصفحات المشرقة والأمجاد العظيمة في تاريخنا العربى والإسلامى، ولاستخدم التاريخ القومى إطاراً وموضوعاً لفنه الروائى، على نحو ما كان مثلاً من عادل كامل، وعبد الحميد جوده السحار، ومحمد فريد أبى حديد، وعلى أحمد باكثير ومحمد سعيد العريان ونجيب محفوظ وعلى الجارم وجمال الغيطانى .. وغيرهم من كتاب الرواية التاريخية العربية المرموقين.

لقد تجنب زيدان كل الصفحات المشرقة والأمجاد العظيمة في تاريخنا الإسلامى، ولجأ إلى تصوير مواقف الصراع السياسى على الحكم أو مواقف المغامرة والشغب. فهو يعلم التاريخ ولكن بطريقته الخاصة التى تعنى بمواقف محددة من ناحية، وتعطى القارئ ما لا يتفق مع الحقيقة من ناحية أخرى !

---

(١) جاء هذا في تقديمه لكتابه (تاريخ التمدن الإسلامى).

يبقى أن نذكر أن زيدان قد صرح بما يفيد أنه كتب رواياته التاريخية، لتكون مرجعاً تاريخياً للقراء والدارسين؛ إذ يقول : "......فيصح الاعتماد على ما يجئ في الروايات من حوادث التاريخ مثل الاعتماد على أى كتاب من كتب التاريخ، من حيث الزمان والمكان والأشخاص"[١].

ونؤجل التعليق على ذلك الادعاء إلى الموضع الذى سنتحدث فيه عن المراجع التى اتكأ عليها في كتابة رواياته.

---

(١) من مقدمته لروايته (الحجاج بن يوسف).

منهج زيدان ومذهبه
في
معالجة الرواية التاريخية
(عرض وتعليقات)

كان من الطبيعى أن يتحدث زيدان إلى قراء رواياته عن منهجه ومذهبه في كتابتها. وقد جاء هذا الحديث في مواضع متعددة كان من أبرزها وأهمها تلك المقدمة التى كتبها لروايته عن (الحجاج بن يوسف)، ومنها يقول موجزاً صورة هذا المنهج والمذهب :

"نتوخى جهدنا أن يكون التاريخ حاكماً على الرواية لا هى عليه، كما فعل بعض كتبة الإفرنج، ومنهم من جعل غرضه الأول تأليف الرواية، وإنما جاء بالحقائق التاريخية لإلباس الرواية ثوب الحقيقة، فيجره ذلك إلى التساهل في سرد الحوادث التاريخية بما يضل القراء. أما نحن فالعمدة في روايتنا على التاريخ، وإنما نأتى بحوادث الرواية تشويقاً للمطالعين، فتبقى الحوادث التاريخية على حالها، وندمج في مجالها قصة غرامية تشوق المطالع إلى استتمام قراءتها، فيصح الاعتماد على ما يجئ في الروايات من حوادث التاريخ مثل الاعتماد على أى كتاب من كتب التاريخ، من حيث الزمان والمكان والأشخاص، إلا ما تقتضيه القصة من التوسع في الوصف، مما لا تأثير له على الحقيقة بل هو يزيدها بياناً ووضوحاً، بما يتخللها من وصف العادات والأخلاق، إن الروائى المؤرخ لا يكفيه تقرير الحقيقة التاريخية الموجودة، وإنما يوضحها ويزيدها رونقاً من آداب العصر وأخلاق أهله وعاداتهم، حتى يخيل للقارئ أنه عاصر أبطال الرواية وعاشرهم وشهد مجالسهم، ومواكبهم واحتفالاتهم"[١]

ومما لا شك فيه أنك لو رحت تمعن النظر في كلام زيدان تجد أن كلامه يكشف بعضاً من ملامح منهجه ومذهبه في معالجة الرواية التاريخية، فهو يشير إلى أن منهجه يقوم على سرد المادة التاريخية التى تتناولها الرواية من خلال قصة غرامية يتخيلها بين محب ومحبوبة، على نحو تندمج فيه تلك القصة الغرامية في المجال التاريخى للرواية. وهذا المسلك يفيد أن موضوع الرواية عنده مكون

---

(١) رواية الحجاج بن يوسف طبعة دار الهلال ١٩٠٩، ١٩١٣ ص١.

من جانب تاريخى تسرد معه قصة حب تشوق القارئ إلى استتمام قراءة الرواية. أو بعبارة أخرى : يسير زيدان في كل رواية بمنهج موحد يتوازى فيه مسار المادة التاريخية مع مسار قصة الحب التى تتداخل عبر الرواية مع تلك المادة التاريخية.

وأشار زيدان إلى أن غرضه الأول والرئيسى من كتابة الرواية التاريخية هو التاريخ؛ وليس الرواية في حد ذاتها؛ ولذلك جعل التاريخ حاكماً على الرواية لا هى عليه، وأوضح أنه بمسلكه هذا يخالف مسلك كتاب الرواية التاريخية في الغرب الذين سلكوا عكس مسلكه بجعلهم الرواية حاكمة على التاريخ، مما أدى إلى تساهلهم في سرد الحوادث التاريخية.

وأشار زيدان إلى أنه آثر اختيار جانب الخيال ممزوجاً بالجانب التاريخى، ليعمل على تسلية القراء ويشدهم إليها، لأنه يرى أن الجانب التاريخى المحض قد يسبب للقارئ بعض الملل. وقد ينصرف عن الاستزادة منها، أما الجانب القصصى، فهو بأسلوبه الشيق. وبعنصر الخيال المتمثل في أحداث القصة، والحوار الذى يربط بين شخصيات الرواية، وتحليل تلك الشخصيات، والعقدة التى تشد القارئ إلى نهاية القصة كل ذلك يدفع القارئ إلى الحماس والاستزادة من علم التاريخ.

وأشار إلى عنايته الخاصة وهو يقص التاريخ بوصف العادات والأخلاق، وتوضيحها من خلال الأحداث والشخصيات التى تتصل بالمجال التاريخى التى تتناوله كل رواية.

وأشار إلى أن رواياته بتلك المسلك الذى يسلكه فيها تصح أن تكون مرجعاً تاريخياً يعتمد عليه مثل بقية كتب التاريخ من حيث الزمان والمكان والأخلاق.

تلك هى المعالم والملامح التى صرح زيدان بأن مذهبه في كتابة الرواية التاريخية يقوم عليها.

وإذا كان لى من تعقيبات على معالم هذا المذهب وملامحه فإنى أذكر ما يلى:

١- أن زيدان بمنهجه هذا في كتابة الرواية التاريخية يقص التاريخ، ويسرد المادة التاريخية وقلم المؤرخ في يده لا قلم الفنان المبدع، ومعنى هذا أن اشتغاله بعلم التاريخ وكثرة التصنيف فيه بالإضافة إلى نزعته التعليمية، ورغبته في تعليم التاريخ وتحبيبه إلى الناس، ومحاولة تجميله لصورته الجافة في عيونهم، وجذبهم إلى قراءته .. كل هذا جعله مؤرخاً يسرد التاريخ في قالب رواية، لا روائياً ذا رؤية روائية خالقة تسرد حقائق التاريخ بمهارة فنية تجمع بين مطالب التاريخ (الحقيقة)، ومطالب الرواية (الفن)، ويملك الموهبة على ملء ما في سرد الأحداث التاريخية من فجوات، ويفسر ما يحتاج إلى تفسير، ويكون صاحب فلسفة في التاريخ ورؤية خاصة. فزيدان إذن بمسلكه هذا قام بمهمة مضادة لمهمة الروائى الذى يضع التاريخ في خدمة الرواية دون التلاعب بحقائقه ومعطياته من أجل الفن، لا جعل الرواية في خدمة التاريخ.. أريد أن أقول باختصار : إن زيدان بمسلكه هذا قد وضع خطاً فاصلاً بين القصة والتاريخ، وجعل للتاريخ المحل الأول من الاعتبار، فما الفرق إذن بين الرواية التاريخية وكتب التاريخ ؟! وكيف نسمى ما كتبه رواية تاريخية ومفهومه عنها وعن مواصفاتها ومقاييسها هو ذلك المفهوم الذى جعله عمدة في مذهبه ومنهجه ؟!

٢- يفهم من ظاهر كلام زيدان أنه يقصد من مسلكه هذا عدم التساهل في سرد الحوادث التاريخية بالتشويه والتغيير لشيء من حوادثه أو شخوصه أو هما معاً أو زمان المادة التاريخية ومكانها إلا ما يقتضيه البناء الروائى من إضافة في الأحداث أو الشخصيات، فيعده زيدان إيضاحاً وبياناً.

ويفهم من ظاهر كلامه كما سبق القول ـ عنايته الخاصة في مذهبه هذا بوصف العادات والأخلاق السائدة في عصر الرواية، وأنه سيضيفها في سبيل تفسير التاريخ حدثاً وزماناً ومكاناً، وكأنه يوحى بقوله هذا : إلى أنه يتناول في رواياته أموراً قد يهملها المؤرخ ولا يحرص عليها. أو أنه يشير إلى أنه يحاول في رواياته أن يحدث نوعا من التوفيق بين متطلبات البيئة العربية ذات العادات والأخلاق والآداب الخاصة، وبين الاقتداء بالشكل الروائى الغربى

في الإفادة من التاريخ إفادة تأتى بطريقة عكسية لطرائقهم في تلك الإفادة من التاريخ.

٣- مهما يكن الأمر فإن جورجى زيدان باختياره الكتابة الروائية عن الفترات التاريخية التى مضت عليها قرون قد لجأ إلى مهمة أسهل بكثير من مهمة الروائى الذى يكتب ويسجل أحداثاً تاريخية عاشها وعاصرها بالفعل "حيث إن البعد الزمنى الذى يبرز لنا الأحداث بطريقة أوضح، وشكل أعم، لم يتوفر أثناء الكتابة المعاصرة التى يفضل فيها أن يستغل التاريخ كخلفية وصفية، تتحرك وراء الأحداث لتبلورها وتجسدها وتمنحها الدلالات الدرامية اللازمة، فمثلاً نسمع فقط عن الشخصيات التاريخية دون أن نراها على منصة الأحداث، وفيها يستطيع الكاتب حشد المنصة بشخصياته الخيالية، ثم يمنحها الكثير من القدرة على الحياة والإقناع والوجود، عن طريق الالتحام بخلفية تاريخية وقعت بالفعل. وبذلك يكون الكاتب قد وضع التاريخ في خدمة الرواية وقام بمهمة مضادة لتلك التى قام بها جورجى زيدان ...... ومن ذلك : يختار الروائى ويركز على الإنسان العادى الذى يتأثر بالأحداث التاريخية أكثر من الشخصيات التاريخية التى تقوم بصنع هذه الأحداث، وبمعنى آخر فإننا نجد الصدى التاريخى للحدث، وليس الحدث نفسه بكامل أبعاده، لأن الكاتب يلتزم بمهمته كروائى، ولا يحاول أن يتقمص شخصية المؤرخ فالحدث عنده مضمون درامى قبل أن يكون واقعة تاريخية، ولذلك فهو يهرب دائماً من معالجة الأبطال التاريخيين، حتى لا يتقيد بالتاريخ تقيداً قد يحيل رواياته إلى مجرد تسجيل تاريخى .... كما حدث لجورجى زيدان، ولأن الروائى يقيم بناءه الدرامى على المساحة ما بين الحدث التاريخى وبين أثره على الإنسان العادى المعاصر له"(١).

يبقى شيء أخير نود أن نذكره في تعقيبنا على المنهج الذى أشار إليه زيدان في كتابته للرواية التاريخية هو أن ما أشار إليه لا يمثل كل معالم مذهبه الذى انتهجه في كتابة رواياته، وإنما هناك معالم وملامح أخرى عديدة ستتبلور في أذهان القارئ من دراستنا التاريخية والفنية القادمة لرواياته، وحسبنا أن نذكر الآن من هذه المعالم والملامح ما يعد حقيقة بمثابة أسس يقوم عليها بناء

---

(١) التأليف الروائى. نبيل راغب : ص٧٨.

الرواية عنده، لأنها ثابتة لا تتغير من رواية إلى أخرى، وإنما تتكرر في كل رواياته تقريباً.

هذه الأسس هي :

١- اختيار فترة تاريخية معينة لها بداية ونهاية.
٢- قصة غرامية طويلة بين اثنين.
٣- مؤامرات متعددة للتخلص من شخص بعينه.
٤- مصادفات عديدة يصير بها المستحيل ممكناً، تمتد من أول الرواية إلى آخرها.
٥- استطرادات كثيرة يتدخل بها المؤلف في مواقف متعددة مفسراً أو شارحاً أو مبرراً لما يسوقه من صور خيالية غريبة.
٦- سر يتمثل في أحد شخوص الرواية، ويظل غامضاً غريباً حتى يكشفه المؤلف قبل نهايتها.
٧- ما يمكن إضافته لما تقدم من قول الدكتور محمد يوسف نجم متحدثاً عن هيكل القصة الزيدانية :

"الزيدان هيكل واحد في قصصه لا يكاد يتعداه أو يحيد عنه إلا في القليل منها. فهو يختار أولاً فترة تاريخية طويلة يتصرف فيها بالحذف والزيادة كما يشاء، ضمن الإطار التاريخي، فتكون القصة رقعة واسعة مستفيضة الجوانب، ولكنها مضغوطة في حيز ضيق، نلمس فيه بوضوح ضعف الخيال، أو كبته، وضغط الحرية الفنية. وكثيراً ما تكون وحدة التأثير مفقودة والنسج مخلخلاً مفككاً لتوزع الحوادث واتساع الرقعة واختلاف البيئات وقلة العناية بإبراز الحوادث المهمة وتنسيق الأحداث الصغيرة إلى جانبها تنسيقاً فنياً، بحيث يتدرج التأثير على شعور القارئ، فيتابع العمل القصصي في صعوده نحو الذروة وفي انحداره عنها إلى الحل أو النهاية"[1].

ذلك هو منهج زيدان ومذهبه في معالجة الرواية التاريخية. وقد عقبنا عليه بما زاده وضوحاً في ذهن السادة القراء.

---

(١) القصة في الأدب العربي الحديث لمحمد يوسف نجم : ص١٨٣.



طريقة زيدان في تأليف ونشر رواياته

تعد الطريقة التى كان ينشر بها زيدان رواياته من أغرب الطرق في تأليف الروايات ونشرها بين يدى القراء.

ذلك أن زيدان في المرحلة التى كان ينشر فيها رواياته على صفحات مجلته الهلال، لم يكن يكتب الرواية كاملة، ثم يبدأ بعد الفراغ منها ومن تنقيحها وتمحيص ما جاء فيها من مادة تاريخية بنشرها تباعاً في الهلال، كما يظن الأكثر ون، وكما يفعل أكثر المؤلفين، وإنما كان يتبع طريقة لم يتعداها إلا في روايته (أرمانوسة المصرية) التى كتبها أول الأمر سنة ١٨٩٥ على أن ينشرها في كتاب على حدة.

كان زيدان ينتهز عطلة مجلة الهلال الصيفية لمدة شهرين، فيضع أثناء ذلك فكرة الرواية التى يريد نشرها ملحقة في السنة التالية للمجلة، وبعد أن يستقر على المجال التاريخى الذى ستتناوله الرواية من تاريخ الإسلام، وعلى القصة العاطفية التى سيدمجها في ذلك المجال التاريخى يبدأ بمجرد استئناف صدور المجلة بعد العطلة بنشر الفصل الأول من الرواية. وكلما أزف وقت صدور كل عدد كتب فصلاً من الرواية لنشره ملحقاً بها. وما بقى من فصول الرواية وأحداثها بالتفصيل لا يزال في عالم التصور، ويظل على ذلك في كل أعداد السنة حتى تنتهى الرواية !

هاهو ذا يحدثنا عن تلك الطريقة الغريبة، فيقول : "......... إن ما ننشره من رواياتنا في الهلال إنما هو ابن يومه فلا نكتب من الرواية عند كل هلال إلا ما نحتاج إلى نشره في ذلك الهلال. لا نفعل ذلك إلا اضطراراً لما تحتاج إليه الروايات التاريخية من المراجعة والتنقيب لتمحيص الحوادث التاريخية وتطبيقها على الحوادث الغرامية حتى لا يظهر فيه تكلف أو ضعف .... ومن غريب ما يتفق لنا من هذا القبيل أننا ننشر الفصل من الرواية ونحن على غير بينة من الفصل التالى. أى أننا نصطنع حوادث لكل فصل أو بضعة فصول في حينها ويبقى سائر القصة في عالم الغيب. فلو سئلنا أن نقص ما بقى منها ما

استطعنا إلى ذلك سبيلاً. إلا إذا سئلنا عن غرض الرواية بوجه الإجمال. فلا نظن القارئ أكثر تشوقاً إلى مطالعة الرواية منا إلى كتابتها فإننا نفرغ من كتابة الفصل ونحن نتشوق إلى كتابة ما يليه تطلعاً إلى ما سيكون بعده. فنحن والقارئ في ذلك سواء"[1].

وجرياً على عادتنا في التعليق على كل ما لا نرتاح إليه أو يكذبه الواقع المشهود من دراسة رواياته وتقليب النظر فيها فإننا نقرر أنه لم يكن يمحص الحوادث التاريخية كما يدعى في الفقرة السابقة ! بل إن الذى حدث هو العكس، حيث إن هذه الطريقة المتعجلة كثيراً ما أودت بقلمه إلى الإنزلاق والوقوع في أغلاط وأخطاء ضربنا لها أمثلة في الموضع المخصص لها من هذا البحث، وإذا كانت أغلاطه وأخطاؤه جاء قسم منها عن عمد وإصرار للعبث بتاريخ المسلمين، فإن قسماً منها كان ناتجاً عن اضطراره في الفصول الأخيرة للرواية إلى مسايرة ما نشره بالفعل وقاله في الفصول الأولى، ولو كان ذلك على حساب الحقيقة التاريخية !

ولو أنه كتب الرواية أوّلاً كاملة، ثم نشرها دفعة واحدة أو على حلقات في مجلته، لأتاح له ذلك - بالحتم - لوناً من المراجعة والتدقيق والتمحيص ... طبعاً إذا أراد التمحيص، ولم يتعمد العبث بتاريخ الإسلام.

يبقى أمر مهم في هذا التعقيب هو أن تلك الطريقة التى انتهجها زيدان في نشر رواياته تدلنا بوضوح على شخصيته الروائية ... إذ هى تعنى بدون شك أننا أمام كاتب لا يملك القدرة على إيجاد تصور نظرى دقيق متكامل المعالم للرواية قبل نشرها، ولا على تصميم فنى يسبق إخراج العمل الأدبى إلى قرائه ...... الأمر الذى لا يمكن لنا أن نتوقع بعده إلا بناء هشاً وشخصيات شائهة وحوادث غير مرتبة وعملاً يخلو من الصنعة القصصية الماهرة القائمة على

---

(١) عذراء قريش في عالم الغيب، الهلال، ١ فبراير ١٨٩٩، ص٢٧٧، وراجع ردوده على قراء الهلال حول الفكرة ذاتها تحت العناوين التالية :
- عذراء قريش وآراء القراء فيها، الهلال، ١ أكتوبر ١٨٩٩، ص١٨.
- عذراء قريش وأخلاق القراء، الهلال، ١ نوفمبر ١٨٩٩، ص٨٠.
- فتاة غسان، الهلال، ١ ديسمبر ١٨٩٦، ص٦٣.
- أسير المتمهدى، الهلال، ١٥ أكتوبر ١٨٩٨، ص٥٥، ١٥ مارس ١٨٩٩، ص٣٦٧.
- الملاحظة النقدية التى أبداها نقولا حداد حول عملية التأليف الروائى عند "زيدان" تحت عنوان "الفقيد روائياً"، الهلال، ١٥ نوفمبر ١٩١٤، ص١٨٣.

تخطيط سابق، وتصميم يراعى أصول الكتابة الروائية. وفى دراستنا القادمة لرواياته من الوجهة الفنية ألف دليل ودليل على صحة ما نقول. ويكفينا الآن أن نذكر أن افتقاد روايات زيدان لتصور (التصميم الفنى) للعمل الروائى بسبب تلك الطريقة هو الذى يفسر لنا ما نراه في الطبعات الثانية لرواياته من إضافات وإشارات للمراجع التاريخية دون أن يجد في ذلك حرجاً يمس فنية العمل الإبداعى، ولا حرجاً من التغيير والتبديل تبعاً لمقتضى الحال التى تطرأ عليها في بحر السنة التى تنشر فيها الرواية[1].

خذ لذلك مثلاً مما ذكره في مقدمة الطبعة الثانية لروايته (أرمانوسة المصرية أو فتح مصر) حيث يقول : "...... ففى هذه الطبعة ـ فضلاً عما في الأولى ـ تفصيل فتح الإسكندرية، وتمثيل ما كان عليه الروم أثناء الحصار، وما آلت إليه حالهم إلى تمام الفتح. ويتخلل ذلك حكاية عمرو بن العاص يوم وقوعه في الأسر"[2].

وفى كلمة له عن هذه الرواية أشار على من ينشد مزيداً من المعرفة التاريخية الرجوع إلى مؤلفاته التاريخية بقوله : "...... وما زالت مصر في حوزة المسلمين من ذلك الحين [أى فتح مصر]، ومن أراد تفصيل ذلك فليطالع كتابنا "تاريخ مصر الحديث"[3].

وأشار في الفصل الخامس عشر من الرواية إلى مقال كان قد نشره بعنوان (ضحية النيل عند المصريين)[4].

تلك هى طريقة زيدان في تأليفه ونشره لرواياته التى نشرت مسلسلة بالهلال، وما كان لهذه الطريقة من آثار سلبية أسهمت بدون شك في انتقاد المنتقدين له، على ما يجئ التفصيل.

---

(١) كانت هذه الطبعة سنة ١٨٩٨، وقامت بالطبع ـ كالعادة ـ دار الهلال.
(٢) رواية أرمانوسة : ص٧ ط ٢ ١٨٩٨م.
(٣) مجلة الهلال عدد ١٨٩٦/٨/١٥ ص ٩٣٨.
(٤) نشر المقال في مجلة الهلال عدد ١٨٩٥/٨/١٥، وفى المجلة عدد أول فبراير ١٨٩٦، وفى عدد سبتمبر ١٨٩٩، ص٦٩٥.

المجالات التاريخية لروايات زيدان
(عرض وتعقيب)

سبق أن أوضحت ـ فى إيجاز ـ المجالات التاريخية التى تناولها جرجى زيدان فى رواياته التاريخية، وكان ذلك الإيضاح تهميشاً على سردى لتلك الروايات على حسب ترتيب الحوادث التاريخية وتسلسلها وفق العصور التاريخية التى اختارها زيدان لتكون مجالاً أو موضوعاً لرواياته.

وكان من الممكن أن نتجنب التكرار، ونكتفى بذلك الإيضاح المشار إلى موضعه فى هذا المبحث.

غير أنه لما كان الهدف هنا هو التعقيب على تلك المجالات فلا بأس بإعادة ذكرها مرة أخرى بشىء من التفصيل، ليكون التعقيب مصحوباً أو تالياً لعرض تلك المجالات.

ولنبدأ بعرض المجال التاريخى لكل رواية مرتبة على العصور، لا على ترتيب التأليف والنشر الذى كان من زيدان.

أولى هذه الروايات هى روايته (فتاة غسان) المكونة من جزئين، وقد حدد زيدان موضوعها أو مجالها التاريخى ـ فى صفحة العنوان ـ بقوله ـ تحت عبارة (فتاة غسان) ـ : "رواية تاريخية تشرح حال الإسلام منذ أول ظهوره حتى فتوحات العراق والشام، مع بسط عادات العرب فى آخر جاهليتهم وأول اسلامهم ووصف أخلاقهم وأزيائهم وسائر أحوالهم".

وحدد المجال التاريخى فى صفحة العنوان لروايته (أرمانوسة المصرية أو فتح مصر) بأنها "تتضمن تفاصيل فتح مصر والإسكندرية على يد عمرو بن العاص فى صدر الإسلام (٦٤٠م)، مع بسط حال العرب وعاداتهم وأخلاقهم وأزيائهم وحال الأقباط والرومان فى ذلك العصر".

وحدد المجال التاريخى لروايته (عذراء قريش) بأنها "تتضمن تفصيل مقتل الخليفة عثمان بن عفان وخلافة الإمام على، وما نجم عن ذلك من الفتنة

وواقعتى الجمل وصفين إلى تحكيم الحكمين وخروج مصر من خلافة الإمام على".

وحدد المجال التاريخى لروايته (١٧ رمضان) بأنها "تتضمن تفصيل مقتل الإمام على، وبسط حال الخوارج، وتتمة الفتنة التى حدثت بسبب مقتل الخليفة عثمان، واستئثار بنى أمية بالخلافة وخروجها من أهل البيت".

وحدد المجال التاريخى لروايته (غادة كربلاء) بقوله : "رواية تاريخية تتضمن ولاية يزيد بن معاوية، وما جرى فيها من الحوادث الفظيعة، وأفظعها مقتل الإمام الحسين وأهل بيته فى سهل كربلاء، ووقعة الحرة إلى وفاة يزيد سنة ٦٤ للهجرة".

وحدد المجال التاريخى لروايته (الحجاج بن يوسف) بأنها "تتضمن حصار مكة على عهد عبد الله بن الزبير إلى فتحها، ومقتله، وخلوص الخلافة لعبد الملك بن مروان، مع ما يتخلل ذلك من وصف مكة والمدينة".

وفى صفحة العنوان لروايته (فتح الأندلس أو طارق بن زياد)[١] قال : "رواية تاريخية تتضمن تاريخ أسبانيا قبيل الفتح الإسلامى، ووصف أحوالها وفتحها على يد طارق بين زياد، ومقتل رودريك ملك القوط".

وفى صفحة العنوان لروايته (شارل وعبد الرحمن) قال : "رواية تاريخية تشرح فتوح العرب فى بلاد فرنسا، وما كان من تكاتف الإفرنج بقيادة شارل مارتل، وأسباب فشل العرب فى أوربا".

أما روايته (أبو مسلم الخراسانى) فـ"تشتمل على سقوط الدولة الأموية، وقيام الدولة العباسية، وسعى أبى مسلم الخراسانى فى تأييدها إلى قتله فى خلافة المنصور، مع وصف عادات الخراسانيين وأخلاقهم، وغير ذلك".

وأما روايته (العباسة أخت الرشيد أو نكبة البرامكة)[٢] فـ"تشتمل على نكبة البرامكة، وأسبابها، وما يتخلل ذلك من وصف مجالس الخلفاء العباسيين، وملابسهم، ومواكبهم، وحضارة دولتهم فى عصر الرشيد".

---

(١) جاء هذا العنوان فى بعض الطبعات مختصراً هكذا (فتح الأندلس) ينظر مثلاً ط دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، الطبعة الرابعة ١٩٩٨.

(٢) فى بعض الطبعات يكتفى فى العنوان بـ(العباسة أخت الرشيد) فحسب (ينظر مثلاً : طبعة هذه الرواية الصادرة عن دار الهلال فى منتصف فبراير سنة ١٩٤٩).

وأما روايته (الأمين والمأمون) فـ"تشتمل على ما وقع بين الأمين والمأمون من الخلاف بعد وفاة والدهما الرشيد، وقيام الفرس لنصرة المأمون حتى فتحوا بغداد وقتلوا الأمين".

وقال زيدان عن الموضوع التاريخي لروايته (عروس فرغانة) : "تحوى وصف الدولة العباسية فى عصر المعتصم بالله من سنة ٢١٨هـ ـ ٢٢٧هـ، وقيام الفرس لإرجاع دولتهم، ونهوض الروم لاكتساح المملكة الإسلامية".

وقال عن الموضوع التاريخي الذى تتناوله روايته (أحمد بن طولون) : "تتضمن وصف مصر وبلاد النوبة فى أواسط القرن الثالث للهجرة فى عهد أحمد بن طولون، ويتخلل ذلك وصف أحوالهم السياسية والاجتماعية والأدبية".

وأوضح أن روايته (عبد الرحمن الناصر) "تشتمل على وصف بلاد الأندلس وحضارتها فى زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموى، وخروج ابنه عبد الله إليه".

وذكر أن روايته (فتاة القيروان) "رواية تاريخية تتضمن ظهور دولة العبيديين أو الفاطميين فى إفريقية، ومناقب المعز لدين الله، وقائده جوهر إلى فتح مصر، وإخراجها من الدولة الإخشيدية سنة ٣٥٨هـ. ويتخلل ذلك وصف برابرة إفريقية وعاداتهم وأخلاقهم، وبيان الأسباب الاجتماعية التى ساعدت على ذلك الفتح، ولا سيما انهماك الإخشيديين فى الترف واستبدادهم وانقسامهم واتحاد جند الفاطميين ومحافظتهم على مناقب البادية"[(1)].

وأما روايته (شجرة الدر)، فهى رواية قد ضمنها ـ كما يقول - : مبايعة شجرة الدر زوجة الملك الصالح، وسيرة الأمير ركن الدين بيبرس الملقب بالملك الظاهر وحالة الخلافة العباسية فى أيامها الأخيرة، وانتقالها من

---

(١) فى الطبعة الصادرة لهذه الرواية فى منتصف إبريل ١٩٥٠ جاء التحديد مختصرا هكذا : "تتضمن ظهور دولة العبيديين أو الفاطميين فى إفريقية ومناقب المعز لدين الله وقائده جوهر إلى إخراج مصر من الدولة الإخشيدية سنة ٣٥٨هـ، مع وصف الإخشيديين وجندهم".

بغداد إلى مصر على إثر افتتاح التتر عاصمة الخلافة بقيادة (هولاكو) وقتلهم الخليفة".

وأما روايته (استبداد المماليك) فهي ـ كما قال ـ : "رواية تاريخية تشرح أحوال مصر وسوريا في أواخر القرن الماضي وحكم على بك الكبير ومعاصريه من مماليك مصر وأمراء الشام والحرب بين تركيا وروسيا وغير ذلك من الأمور السياسية والاجتماعية".

وقال عن موضوع روايته (المملوك الشارد):

"رواية تاريخية تتضمن حوادث مصر وسوريا وأحوالهما في النصف الأول من هذا القرن[1]. ومن أبطالها : الأمير بشير الشهابي، ومحمد على باشا، وإبراهيم باشا، وأمين بك".

وذكر أن روايته (أسير المتمهدي)[2] "رواية تاريخية تتضمن وصف مصر والسودان في الربع الأخير من القرن الماضي، ودسائس الدول الأجنبية التي أدت إلى الثورة العرابية في مصر والثورة المهدية في السودان والاحتلال البريطاني لوادي النيل".

وقال عن موضوع روايته (الانقلاب العثماني) : "رواية تاريخية : تتضمن وصف أحوال الأحرار العثمانيين وجمعياتهم السرية، وما قاسوه في طلب الدستور مع وصف يلدز وقصورها وحدائقها وعبد الحميد وجواسيسه وأعوانه وسائر أحواله إلى فوز جمعية الاتحاد والترقي بنيل الدستور في ٢٣ يوليو سنة ١٩٠٨".

ذلك هو المجال أو الموضوع التاريخي الذي حدده زيدان بنفسه لكل رواية من رواياته التاريخية، وقد جاء هذا التحديد ـ كما سبق القول ـ في صفحة عنوان كل رواية منها.

وتجدر الإشارة إلى أن روايته جهاد المحبين قد صدرت في عديد من الطبعات ضمن سلسلة روايات تاريخ الإسلام[3]، على الرغم من أن المؤلف قد

---

(١) يقصد : القرن التاسع عشر.

(٢) نشرت هذه الرواية في طبعة ١٩٨٥ بعنوان (الأسير) على الغلاف الخارجي، وبعنوان (الأسير المتمهدي) في صفحة العنوان الداخلية.

(٣) ينظر مثلاً : طبعة دار الهلال ١٩٨٥ التي قدم لها الدكتور أحمد على جويلي. وطبعة دار المعارف بسوسة تونس / الرابعة ١٩٩٨.

وصفها بأنها "رواية غرامية أدبية تصور مأساة من مآسى المحبين، وما يقاسونه فى سبيل الحب، ثم كيف يجزون على صبرهم ووفائهم وتدور الدوائر على أهل البغى والعدوان".

وهى الرواية الوحيدة التى قيدها فى العنوان بذلك الوصف : (غرامية أدبية)، فى الوقت الذى لم يرد فيه إشارة من قريب أو بعيد فى الطبعات الحالية لبقية رواياته إلى الجانب الغرامى فيها، مع أن هذا الجانب ـ كما سيجىء التفصيل ـ يتكرر بانتظام فى كل الروايات التى كتبها. وكان أثناء نشرها على حلقات فى مجلة الهلال ينص أحيانا على هذا الجانب.

ونعقب على هذا وذاك بأمرين :

١ـ أن عدم الإشارة فى رواياته التاريخية التى يحرص فى الكثير منها على وصفها بالتاريخية إلى الجانب الغرامى الذى تحتويه ليس له من تفسير عندى سوى الحرص البالغ على جعل هذه الروايات مرجعاً تاريخياً، كما سيجىء تفصيل ذلك فى موضعه.

٢ـ أن وصفه لروايته (جهاد المحبين) بأنها (غرامية أدبية) تعنى أنه لا يعدها من رواياته التاريخية. وقد جاراه فى هذا كل الباحثين الذين عرضوا لهذه الرواية، فقد عدها على سبيل المثال الدكتور محمد يوسف نجم رواية اجتماعية، ولم يدرجها فى حديثه عن الروايات التاريخية[١].

ومعنى هذا أننا هنا أمام إشكالية إدراجها ـ من دار الهلال وغيرها ـ ضمن روايات تاريخ الإسلام، وهو أمر لم يقم على أساس تاريخى ولا فنى يحملهم على ذلك ! ولكن يمكننى ـ من خلال ما خرجت به من قراءتى للرواية ـ أن أجد مندوحة لإدراجها فى هذه السلسلة هى أن هذه الرواية وإن كان موضوعها غرامياً محضاً، تدور حوادثها سنة ١٨٨٧م، وتجرى هذه الحوادث بين (القاهرة والإسكندرية وحلوان)، وتعالج ـ كما أشرت ـ مسائل عاطفية، وتصور ـ كما قال المؤلف ـ مأساة من مآسى المحبين. لكنها تقدم وصفاً دقيقاً للواقع الذى كان يعيشه المجتمع المصرى فى أواخر القرن التاسع عشر، فإذا

---

(١) ينظر: القصة فى الأدب العربى الحديث : ص ٨٩ وما بعدها.

أخذنا فى الاعتبار هذا الملحظ لا يكون إدراجها من قبل دور النشر فى سلسلة زيدان عن تاريخ الإسلام غريباً ولا مستنكراً.

ومهما يكن الأمر، فإن زيدان ـ كما سبق القول والبيان ـ كان حريصا على تلخيص المحتوى التاريخى والتعريف به لكل رواية تحت عنوانها مباشرة .. يمضى بهذا المسلك فى كل رواياته دون شذوذ.

وأهم ما ينبغى التعقيب به على تلك المجالات التاريخية التى حددها زيدان لرواياته هو ما نلحظه عندما ندقق النظر فى تلك المجالات من تركيزه على فترات الصراع السياسى فى التاريخ الإسلامى مثل : مقتل سيدنا عثمان وأحداث الفتنة الكبرى، والتنافس على الخلافة بين الإمام على ومعاوية، وولاية يزيد بن معاوية، ووقعة كربلاء، ومقتل الإمام الحسين فيها، وحصار مكة على يد الحجاج، وأسباب إخفاق الفتوحات العربية لأوربا، ونكبة البرامكة التى كثر الجدل والخلاف فى أسبابها وأحداثها وتفاصيلها، ومثل تركيزه على الخلاف الذى قام بين ولدى الرشيد : (الأمين والمأمون) وما تبعه من أحداث، ومحاولة الفرس لبناء دولتهم من جديد، ومحاولة الروم لاكتساح الدولة الإسلامية، والصراع بين الفاطميين والإخشيديين، وبين الفاطميين والأيوبيين، وانتقال الخلافة من بغداد إلى مصر، والانقلاب الدستورى لجماعة الاتحاد والترقى ضد السلطان عبد الحميد، وزوال الخلافة الإسلامية من الأستانة !

يركز المؤلف على ذلك، ولا يتجه بأى حال من الأحوال إلى الفترات المشرقة فى تاريخنا الإسلامى المجيد ليبرز ما فيه من أمجاد وبطولات وشموخ ووضاءة وعلوم وفنون وآداب وحضارة أشرقت شمسها من أرض العرب على الغرب الذى يتباهى اليوم بما وصل إليه من مظاهر المدنية الحديثة.

والغريب الذى يثير علامات الاستنكار أن المؤلف قد صرح غير مرة أن غاياته من رواياته تعليم التاريخ، لكن هذا التاريخ الذى ادعى أنه سيعلمه للناس لم يكن سوى التركيز على المراحل الحرجة، وفترات القلق السياسى، وما فيها من مواقف حساسة تمثل صراعاً بين مذهبين سياسيين، أو بين كتلتين تتصارعان على النفوذ والسيطرة!!.

اتجه ـ بتركيز شديد متعمد ـ إلى ذلك كله، فاتخذ منه مناطق لأحداث رواياته، وكأنه يريد أن يوحى للقراء بأن تاريخ الإسلام لم يكن سوى ما تصوره تلك الروايات.

إنه يقدم تاريخ الإسلام بصورة غريبة، يدعى أنها سلسلة ذات حلقات، ثم ترى هذه الحلقات غير متتابعة متلاحمة، بل توجد بين الحلقة والحلقة فجوات تاريخية فاصلة بينهما، ويوجد قفز متعمد من حلقة إلى أخرى، متجاوزاً فى قفزاته كل ما يمثل أمجاد التاريخ الإسلامى. يتجاهل عمداً الصفحات المشرقة فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، وصور البطولات الفذة والقيم الإسلامية النبيلة التى أبداها عظماء الإسلام وفرسانه فى الفتوحات الإسلامية، ولا يقدم لنا إلا ما تصوره (عذراء قريش) و(غادة كربلاء) و(الحجاج بن يوسف) من أحداث سياسية تتصل بالتنافس على الخلافة تنافساً يسميه صراعاً!، وتراه لا يختار من العصر العباسى الأول ذى الأمجاد التى صورتها كتب التاريخ فى العلم وفى الفن وفى الأدب وفى الحضارة سوى شخصية (أبى مسلم الخراسانى) التى تمثل الصراع بين العناصر العربية والفارسية، وشخصية (العباسة أخت الرشيد) التى لا يقدم من خلال الرواية الحاملة لاسمها إلا الصراع بين الرشيد والبرامكة، وشخصيتى (الأمين والمأمون) اللذين لا تقدم الرواية الحاملة لاسميهما إلا عودة الصراع بين العرب والفرس من جديد.

وتمضى بقية حلقات سلسلة رواياته على هذا النحو من اختيار مناطق بعينها من التاريخ الإسلامى، يجد فيها مرتعاً خصباً للخوض فى غمار أحداثها مجسماً الخلاف، مظهرا العيوب، ليؤكد ما ساد بين المسلمين من تنافر وتصارع، وما فى تاريخهم من معارك داخلية دامية !!

وقد وضع الدكتور عبد المحسن طه بدر يده على هذا حين قرر أن زيدان "لا يتجه إلى التاريخ العربى بإحساس قومى يدفعه إلى إبراز أمجاد هذا التاريخ"[1] وأصاب الدكتور المؤرخ محمود حامد شوكت ـ حقاً ـ حين اتهم زيدان بأنه "تأثر فى نظراته إلى العالم الإسلامى بنظرة بعض المؤرخين الغربيين"[2].

---

(١) تطور الرواية العربية الحديثة : ص٩٩.

(٢) الفن القصصى فى الأدب العربى الحديث : ص ٧٩.

على أن هناك أمراً مهماً آخر نريد التعقيب عليه هو أنك لو رحت تطابق بين تلخيص المؤلف لموضوع الرواية من رواياته وبين ما يسرده في داخل الرواية لاكتشفت مثلاً عدم عنايته بالحدث التاريخي الرئيسي في المرحلة التاريخية التي يذكر أن الرواية تصورها، وكذلك عدم عنايته بالبطل الذي اختاره لها؛ بل إنه لا يعني ببقية الحوادث التاريخية التي ينص في صدر الرواية على أن الرواية ستتضمنها أو تفصل القول عنها.

إنك لو قرأت مثلاً : ما جاء عن الخوارج في روايته (١٧ رمضان) التي قال في صدرها : إنها تتضمن (بسط حال الخوارج) تكتشف أن ما سماه (بسطاً) ! لا يتعدى أكثر من صفحتين ونصف (في طبعة دار الهلال ١٩٨٣).

ولو قرأت في الرواية ذاتها ما سماه في صدر الرواية (تتمة الفتنة التي حدثت بسبب مقتل الخليفة عثمان) لاكتشفت أن مجموع ما ذكره عنها لا يزيد على سبع صفحات.

ولم يتحدث عن استئثار بني أمية بالخلافة وخروجها من أهل البيت بأكثر من أربع صفحات.

وقد نجم عن هذا أن الشخصيات التاريخية التي صنعت تلك الأحداث لم ينل كل منها سوى سطور قليلة، "فبدت أشباحاً باهتة في خلفية بعيدة بالقياس إلى أبطال قصة المغامرات الخيالية الذين احتلوا صدارة الرواية وغالبية صفحاتها"(١).

ثم إنك لو قارنت بين ما قاله في صدرها من تعريف بموضوعاتها التاريخية، وبين ما تكتشفه أنت بعد فراغك من قراءة الرواية، لن تجد ما يروى غلتك من معلومات تاريخية تتصل بمرحلة من أخطر مراحل التاريخ الإسلامي وأقواها أثراً في تطوره، وأحفلها بالصراعات الاجتماعية والسياسية والفتن والمؤامرات والحروب، حتى إن الدكتور طه حسين ـ كما نعرف ـ سماها (الفتنة الكبرى)، وألف حولها كتابين يحملان هذا الاسم لكنك ـ للأسف ـ ستفاجأ فور انتهائك من قراءة الرواية ـ بل وأثناء القراءة ـ بأن زيدان لم يذكر لك من كل

---

(١) من تقديم فؤاد دوارة لرواية ١٧ رمضان ط الهلال ١٩٨٣.

هذه الموضوعات التاريخية بالغة الخطر والأهمية سوى قدر ضئيل هزيل، لا يتعدى - بحال - عُشر صفحاتها، فى الوقت الذى يشغل الجانب الغرامى، وما يتصل به من مغامرات كثيرة مثيرة تسعة الأعشار الباقية !!!

ومما لا شك فيه أن ذلك أمر كثير الغرابة بالنسبة لرواية تاريخية، ولا سيما إذا زعم مؤلفها أن هدفه الرئيسى من كتابتها هو نشر التاريخ وترغيب الناس فى مطالعته والاستزادة منه !!

يبقى مما أرغب فى التعقيب به على تلك المجالات والموضوعات التاريخية التى حددها زيدان لرواياته جانب يتصل بتلك العناوين التى اختارها لرواياته؛ ومعلوم لدينا جميعاً أن عنوان الشىء يشير إلى موضوعه إشارة يتطابق فيها العنوان مع الموضوع، والموضوع مع العنوان، وهذا ما يفتقده الباحث والقارى فى روايات زيدان. واقرأ - على سبيل المثال - روايته التى سماها (فتح الاندلس أو طارق بين زياد) وطابق بين عنوانها ومحتواها لتكتشف أن هذه الرواية التى تتألف من ٣٥٨ صفحة[1] ليس فيها عن طارق والفتح إلا ما يقل عن ٥٠ صفحة ! وما بقى من صفحات ما هو إلا رواية غرامية يلعب الخيال فيها دوراً بارزاً، فيعرض عليك قصة حب عنيفة متخيلة (شأنه فى كل رواية من رواياته) بين (فلورندا) و(ألفونس) والمثير للدهشة والغرابة أنك حين تشاهد الرواية ترى صورة متخيلة ملونة - على غلافها - للقائد المسلم طارق بن زياد، وهى صورة توحى للناظر بأنه أمام رواية عن تاريخ فتح الأندلس على يد طارق، فيندفع لاقتناء تلك الرواية، ثم تغريه الصورة مرة أخرى بقراءة الرواية لمعرفة تاريخ هذا الفتح وقائده، لكنه يفاجأ وهو يمضى فى قراءتها أن المؤلف لم يذكر من الصفحة الأولى وحتى الصفحة ٢٠٠ خبرا عن ذلك الفتح الإسلامى، ولا عن طارق بين زياد، وإنما الحديث المهيمن على الرواية هو حديث تلك القصة الغرامية التى أشرنا إليها.

واقرا على سبيل المثال أيضا روايته التى عنونها بـ (صلاح الدين ومكائد الحشاشين)، وتعال معى أيها القارئ الكريم نقف معاً أمام العنوان.

---

(١) ط دار الهلال ١٩٨٤.

إنـه عنوان ـ بدون شك ـ يوحى إليك بأنك ستظفر فى الرواية المسماة باسمه بطرح فنى لمواقف هذا البطل العظيم، والأحداث الكبرى التى شارك فيها، فى الشام، وفى مصر، قبل توليه الوزارة وبعدها. وستظن أنك ستلم بوجبة دسمة ـ قلت أو كثرت ـ من المعلومات التاريخية المتصلة بصراعه الطويل مع الفاطميين وأنصارهم، ومع الصليبيين وأعوانهم فى مصر وفى الشام، وقد يتبادر إلى ذهنك أنك سترى فى الرواية عرضاً قصصياً مثيراً جذاباً لتلك المواقف والأحداث، وتصويراً نفسياً وحسياً لأولئك الأشخاص التاريخيين وفى مقدمتهم صلاح الدين الذى تحمل الرواية اسمه عنواناً لها. والمدهش : أنه سيكبر ظنك هذا عندما ترى المؤلف يطالعك فى بداية الرواية بقائمة للمراجع التاريخية التى أثبتها ونص على أنه استقى الأحداث وسير الاشخاص منها !

كل هذا يخطر ببالك عندما ترى عنوان الرواية. فإذا ما رحت تمعن فى قراءة الرواية ليتيقن فى نفسك ما ظننته لم تجد شيئاً، لأن الدور الذى أعطاه المؤلف لمن سمى الرواية باسمه لا يعدو أن يكون دوراً ثانوياً فى أحد الأعمال الفنية !!

لقد تجاوزت رواية زيدان الحاملة لاسم (صلاح الدين) ثلاثمائة وخمسين صفحة، وعلى الرغم من هذا الطول المسرف فى الكم لم ينل صلاح الدين دوراً فى الرواية يتناسب مع العنوان، ومع هذا الكم الهائل من الصفحات. على أن الدور الضئيل الذى أعطاه زيدان لهذا القائد العظيم لا يتناسب مع قيمته ومكانته تاريخياً، ولا مع الدور المنتظر منه فى الرواية فنياً، ولهذا ظهر فيها الضعف الفنى، وحدث فيها ما يمكن تسميته بالحسرة وخيبة الأمل بالنسبة إلى قرائها.

ولعل هذا هو الذى دفع كاتبة التقديم لإحدى طبعات هذه الرواية إلى أن تقول : "...... بينما تركزت الرواية وهى تربو على ٣٥٠ صفحة على رصد الفتن والدسائس التى أخذ يحيكها بعض الأشخاص للاستئثار بالخلافة بدلاً من الخليفة الفاطمى، ثم صراع نور الدين زنكى للاستيلاء بدوره على مصر بدلاً

منه، أما صلاح الدين فقد كان يشبه أحد وزراء الظل فى عالم السياسة، فلا وجود حقيقى، ولا حضور من أى نوع فى هذا العمل"[1].

لذلك لا أرانى مجافياً للحقيقة الفنية : إذا قررت أن البعد عن الهدف الرئيسى الذى يوحى به عنوان الرواية بعدم التوافق والتوازن بين هذا العنوان وبين الأحداث والشخوص يعد خطأ فنياً فى الرواية عند جرجى زيدان.

ولقد كان فى إمكان زيدان ـ لولا سوء نيته ـ الابتعاد عن هذا الخطأ الفنى باختيار عنوان آخر، فيسمى مثلاً روايته (صلاح الدين) بـ(ست الملك) أو (أبو الحسن)[2] أو (عماد الدين)، لأنه لو فعل هذا لكان ـ فى هذه الرواية ـ أقرب إلى تحقيق مطالب الفن ...... وهكذا الأمر فى بقية رواياته التى لم يحقق فيها التوافق والتوازن بين عناوينها وأحداثها وشخوصها[3].

وفى بعض عناوين هذا الكاتب ما يدل على الخبث وسوء الطوية على شاكلة ما نراه فى هذا العنوان (شارل وعبد الرحمن) من تقديم لشارل على عبد الرحمن !

هل لأن شارل عنده أهم من عبد الرحمن ؟ !

أم لأن شارل هو الشخصية المحورية الأولى فى الرواية ؟ !

أم لأن شارل مسيحى وعبد الرحمن مسلم ؟

قال أحد الكتاب : لا ندرى لماذا ؟[4]

أما أنا فأقول : لأن عبد الرحمن الغافقى هو قائد الجيوش الإسلامية، فلابد أن يؤخر ذكره عند زيدان عن شارل (قارله) قائد جيوش الإفرنج المسيحى، وحاكم أوستراليا. نقول هذا حين نتعامل مع عنوان الرواية فقط، وحين نغض النظر عن مسألة المطابقة بين محتوى الرواية وعنوانها.

---

(١) رواية صلاح الدين : المقدمة بقلم د/ ثناء أنس الوجود ط دار الهلال ١٩٨٥.

(٢) ابقيناه مرفوعا على سبيل الحكاية.

(٣) ينظر : وقفة مع جرجى زيدان، د/ عبد الرحمن صالح العشماوى : ص٢٧. ط مكتبة العبيكان بالرياض ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٤) ينظر : جرجى زيدان فى الميزان، شوقى أبو خليل : ص١٢٦. ط دار الفكر بدمشق ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

فإذا ما رحنا بعد ذلك نبحث عن هذه المطابقة وجدنا كلاً من (شارل) المقدم، وعبد الرحمن المؤخر عند زيدان فى العنوان ليس شخصية محورية فى الرواية؛ إذ جعل المؤلف محورها على امرأة اسمها (لمباجة) كان لها دور رئيسى فى مسار الرواية وأحداثها، ومع ذلك لم يتخذ من اسمها عنواناً لروايته!

ومن عناوينه الدالة على خبثه وسوء الطوية عنده : (صلاح الدين ومكائد الحشاشين)، وكان فى إمكانه أن يجعله (صلاح الدين ومكائد الإسماعيلية) أو بتعبير ألطف (صلاح الدين وطائفة الإسماعيلية) المعروفة بجماعة الحشاشين وبالباطنية؛ لكنه آثر لفظة الحشاشين التى توحى بما هو معروف لنا جميعاً، لتكون مقترنة فى عنوان الرواية باسم صلاح الدين الأيوبى القائد المسلم الكبير! وبذلك يفهم الناظر لعنوان الرواية عن صلاح الدين شيئاً آخر يختلف عن معانى البطولة والتقوى والورع.

كذلك من عناوينه الدالة على خبثه وسوء نيته : اختياره هذا التاريخ (١٧ رمضان) عنواناً لرواية قال عنها ـ من بين ما قال ـ : "إنها تتضمن تفصيل مقتل الإمام على" ويمكن إجمال ملامح الخبث وسوء الطوية فى هذا العنوان فيما يلى :

١ـ أن ١٧ رمضان هو تاريخ الانتصار الأول للرسول صلى الله عليه وسلم وللمسلمين على كفار قريش فى غزوة بدر الكبرى، وقد أبلى الإمام على فى هذه الغزوة بلاء حسناً سطرته كتب السيرة النبوية، ومعروف للجميع.

٢ـ أنه يريد الإيحاء لقارئ عنوان الرواية بمدى الربط بين ١٧ رمضان الذى كان بداية حقيقية لقيام الدولة الإسلامية فى يوم بدر، و١٧ رمضان الذى قتل فيه الإمام على، وكان بداية انكسار لعهد الخلفاء الراشدين حيث تلاشى هذا العهد المشرق، وبدأ عهد آخر بوصول الأمويين للحكم وانتقال عاصمة الدولة الإسلامية من المدينة المنورة إلى دمشق، ثم بغداد ...... وهلم جرا.

٣ـ مما يؤكد خبثه فى هذا الربط قوله فى هامش الصفحة التى تحدث فيها عن مقتل الإمام على وموته : "هذا ما رواه ابن الأثير من أمر مقتله، وذكر صاحب تاريخ الخميس أنه توفى فى صبيحة يوم ١٧ رمضان مثل صبيحة

بدر! وقيل : ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة من سنة ٤٠ (عن ابن عبد البر)، وفى الصفوة : قال العلماء بالسير : ضربه عبد الرحمن بن ملجم بالكوفة يوم الجمعة لثلاث عشرة بقيت من رمضان، وقيل : ليلة إحدى وعشرين منه سنة ٤٠، فبقى الجمعة والسبت ومات ليلة الأحد، وقيل يوم الأحد .... وقالوا غير ذلك مما ليس هنا مكان تحقيقه"(١).

ونحن نتساءل : ما دام زيدان قد انصرف عن تحقيق التاريخ الذى قتل فيه الإمام على فلماذا آثر ١٧ رمضان على غيره من التواريخ التى ذكرها ؟! أليس ذلك دليلاً على خبثه فى الإيحاء بذلك الربط بين ما سبق تفصيل القول عنه؟!

وبعد :

فيكفى هذا القدر من الحديث المدعّم بالأمثلة عن المجالات والموضوعات التاريخية التى حددها زيدان لرواياته، والتى كان حريصاً فى كل واحدة منها على ذكرها فى صفحة العنوان تحته مباشرة.

إن فى هذا القدر الجامع بين العرض والتعقيب كفاية للتدليل على أربعة أمور مهمة، تمثل خلاصة ما عالجناه فى هذا المبحث :

١- تركيز جرجى زيدان فى رواياته التاريخية على الفترات الحساسة والشائكة التى مرت بالمسلمين، وكأنه يريد أن يقول لقراء رواياته : هذا هو تاريخ المسلمين !

٢- انصرافه عن الفترات المشرقة فى تاريخ المسلمين، وتجاهله عمداً مع سبق الإصرار لتصويرها أو الاعتناء بها عناية كافية !

٣- عدم التطابق بين محتوى الرواية وعنوانها بسبب عنايته بالجوانب الغرامية أكثرَ من الجوانب التاريخية!

٤- خبثه وسوء طويته فى اختيار بعض العناوين لتلك الروايات!

---

(١) الرواية : هامش ص١٨٦ ط دار الهلال ١٩٨٣ تقديم فؤاد دوارة.

الإيغال فى التاريخ البعيد
لسرد المعلومات

يمثل الإيغال فى التاريخ البعيد عن أحداث الرواية لسرد المعلومات إحدى الظواهر اللافتة للنظر، المسترعية للانتباه فى روايات جورجى زيدان.

لذلك كان لابد من الوقوف عند هذه الظاهرة لشرحها وتفسيرها والتمثيل لها. على أن الحديث عن هذه الظاهرة يكشف لنا جانباً، بل قل : جوانب من كنه المادة التاريخية وحيزها فى روايات زيدان.

ونحن نقصد بإيغال زيدان فى التاريخ البعيد لسرد المعلومات : حرصه البالغ على التمهيد لأحداث الرواية بالرجوع إلى الوراء بعيداً لسرد معلومات أغلبها تاريخى، وبعضها جغرافى أو أدبى، ويمضى فى سردها إلى أن يصل إلى الزمن الذى وقعت فيه أحداث الرواية. ولم يقف زيدان بهذا الصنيع عند حد التمهيد الذى يستهل به الرواية، وإنما امتد به إلى لب الرواية ذاتها، فكان يقطع السرد القصصى أحياناً ويذهب يستعرض معلومات بعضها ذو صلة بأحداثها، وأغلبها لا صلة له بالرواية، ولا أثر له فى أحداثها من الوجهة الفنية.

ومما لا شك فيه أن اشتغاله بعلوم التاريخ، ونزعته التعليمية الراغبة فى تحبيب التاريخ إلى القراء، وحرصه على إثبات غزارة ما يملكه من معلومات وثقافة تاريخية، وادعاؤه أن رواياته تصلح أن تكون مرجعاً من مراجع التاريخ... كل هذا كان بمثابة العوامل التى تقف وراء ذلك النهج، تحثه عليه، وتدفعه إليه. وليس ثمة تفسير لتلك الظاهرة عندنا سوى ما قلناه.

لقد اعتاد زيدان على افتتاح كل رواية بفصل أو فصلين لسرد ماسنح له من أحداث التاريخ، ولاستعراض ما يرغب فيه من معلومات. وقد أطلق زيدان على جملة من هذه الفصول ما عبر عنه بلفظ (فذلكة تاريخية) كما هو الحال فى رواياته : فتاة غسان – الحجاج بن يوسف – العباسة – عبد الرحمن الناصر – فتاة القيروان – صلاح الدين – أسير المتمهدى. وجاء العنوان فى رواية عروس فرغانة بلفظ (مقدمة تاريخية) أما الفصل الأول التمهيدى فى بقية

الروايات فعنواناته هكذا :

الرومانيون والأقباط : افتتاحية أرمانوسة.

قباء : افتتاحية عذراء قريش.

الخوارج : افتتاحية ١٧ رمضان.

بنو هاشم وبنو أمية : افتتاحية غادة كربلاء.

الأندلس والقوط وطليطلة : بداية فتح الأندلس.

فتوح العرب فى بلاد الإفرنج : بداية شارل وعبد الرحمن.

جلنار : بداية روايته عن (أبى مسلم الخراسانى).

فى خان سمعان : بداية (الأمين والمأمون).

دميانة : بداية (أحمد بن طولون).

الدولة الأيوبية : بداية شجرة الدر.

فى وكالة الصابون : بداية استبداد المماليك.

جبل لبنان : بداية المملوك الشارد.

حديقة البلدية : بداية الانقلاب العثمانى.

حديقة الأزبكية : مفتتح جهاد المحبين.

أما إيغاله فى التاريخ البعيد لسرد المعلومات من خلال هذه الفصول التمهيدية لأحداث الروايات فبيانه كالتالى :

١- تبدأ روايته (فتاة غسان) بفذلكة تاريخية[1] ـ كما قلت ـ تحدث فيها عن بنى غسان موضحاً أنهم عرب مسيحيون كانوا عمالا لقياصرة الرومان على بلاد الشام، وأنهم نشأوا فى اليمن من بنى قحطان، ثم هاجروا منها بعد سيل العرم، ونزل بعضهم بضواحى الشام قرب ماء اسمه غسان فنسبوا إليه، واعتنقوا المسيحية، وقام منهم ملوك غسان أولهم جفنة وآخرهم جبلة بن

(١) جاء العنوان فى جميع الطبعات القديمة للرواية هكذا، ولكن فى طبعة ١٩٨٣ غير العنوان إلى (ملوك غسان). والموضوع واحد.

الأيهم الملك السابع والعشرون.

كذلك أوضح أن الإسلام قد ظهر فى أيام جبلة، فانقرضت دولتهم بعد فتح الشام فى عهد أبى بكر، ولكن ما تزال لهم بقية الآن فى ضواحى البلقاء واليرموك وحمص.

ثم انتقل فى هذه الفذلكة، فتحدث عن ملوك الحيرة (المناذرة) موضحاً أنهم نصارى من عرب اليمن الذين نزحوا إلى العراق بعد سيل العرم، وكانوا عمالاً للفرس هناك.

ثم انتقل موضحاً أن العالم قبيل الإسلام كانت تتنازعه دولتان عظيمتان: الفرس فى الشرق، والرومان فى الغرب، وأن أكاسرة الفرس كانوا يستعينون بالمناذرة فى الوقت الذى يستعين قياصرة الروم بالغساسنة... الأمر الذى كان سبباً فى نشأة الضغائن المتوارثة والحروب المشتعلة بين المناذرة والغساسنة.

ثم انتقل فتحدث عن قدم النزاع بين الفرس والروم، مشيراً إلى المدائن عاصمة الفرس بالعراق والقسطنطينية عاصمة الرومان، وإلى حدوث الهدنة بين الدولتين بعد ذلك حينما أعاد (موريسيوس) إمبراطور الروم كسرى برويز ملك الفرس إلى الحكم الذى كان قد خلع منه بثورة داخلية.

وأوضح ايضاً : أن موريسيوس قتل سنة ٦٠٢م، وخلفه (فوكاس) قاتله، فقرر كسرى برويز الثأر له، وبخاصة أنه قد تزوج ابنته ماريا، فاعتبر معاهدة الصلح المذكورة ملغاة، وهجم على القسطنطينية بجيشه، وظل يحاصرها حتى ثار أهلها على فوكاس وأرادوا خلعه، فاستدعوا "هراكليوس" ابن واليهم على القيروان سنة ٦١٠م، فلبى النداء واقتحم القسطنطينية بعمارة بحرية وقتل فوكاس وجلس على عرشه.

ثم أوضح ان الفرس قاموا على الروم قومة شديدة فحاصروا القسطنطينية، وبيت المقدس والإسكندرية، فلم تأت السنة الخامسة من حكم هرقل (هراكليوس) حتى استولى الفرس على مصر السفلى، ورحب بهم المصريون ولبثوا تحت حكمهم عشر سنوات. لكن هرقل عاد فحمل على الفرس بجنده واخرجهم من الشام ومصر وأعاد المملكتين إلى حوزة الروم.

وأوضح بعد ذلك : أن هرقل لم يكد يستريح حتى جاء المسلمون فى أوائل الهجرة فاتحين. وكان لا يزال فى سوريا وحصونه متهدمة وجيوشه مبعثرة وسائر قواته مضعضعة .. وكان كرسى حكومة الغساسنة مرة فى عمان بالبلقاء، ومرة فى تدمر، وأحيانا فى الجولان، وأخرى فى بصرى عاصمة حوران فى ذلك العهد، وكانت الأوامر الإمبراطورية ترد من الإمبراطور إلى حاكم دمشق، وهو يبلغها إلى الملك الغسانى.

كذلك أوضح : أن الغساتيين فى السنة السابعة للهجرة (٦٢٩م) كان عليهم ملكان فى وقت واحد، أحدهما (الحارث بن أبى شمر) والآخر (جبلة بن الأيهم) وأنه فى عهدهما جدت وقائع هذه الرواية.

وتبدأ روايته أرمانوسة المصرية بفصل تمهيدى عنوانه - كما قلت - : (الرومانيون والأقباط)، وأبرز ما سرده من معلومات فى هذا الفصل يدور حول: فتح الرومان لوادى النيل، وانتشار المسيحية فى العالم، واعتناق المصريين لها، وانقراض الوثنية، وتمذهب الدولة الرومانية بالدين المسيحى، والخلاف بين كهنة القسطنطينية وكهنة الإسكندرية، واستبداد الرومان بأقباط مصر، ورغبة الأقباط فى التخلص منهم بأى وسيلة.

يقول : "فتح الرومانيون وادى النيل، وأقاموا به قرونا ظهر فى أثنائها الدين المسيحى، وانتشر فى العالم، ودخل الديار المصرية فاعتنقه المصريون، وهم الأقباط ثم اتخذته الدولة الرومانية دينا لها بدلاً من الوثنية، وهدمت تماثيلها. ولكن ما كادت تستقر الأمور حتى حدث نزاع دينى بين كهنة القسطنطينية عاصمة المملكة الرومانية الشرقية، وكهنة الإسكندرية عاصمة الديار المصرية واشتد النزاع حتى تمكنت الضغائن بين الرومانيين وهم الفئة الحاكمة، وبين الأقباط وهم الشعب المحكوم، وعرف المذهب الرومانى بالملكى، والمذهب المصرى باليعقوبى. فآل ذلك إلى نفور الأقباط من الرومانيين واستبدادهم، وإلى رغبتهم فى التخلص من نيره بأية وسيلة. وكان الرومانيون يسومون المصريين سوء العذاب، فلم تفتهم فرصة الإيقاع به، والانتقام منهم.

وفى أوائل القرن السابع للميلاد، كان يحكم مصر وال يونانى الأصل، اسمه المقوقس حنا بن قرقت، وقد كانوا يدعونه بأسماء أخرى، وكان متشيعا "لأهلها ومذهبهم وتقاليدهم وأقام بالإسكندرية شأن الولاة الرومانيين فى ذلك

العهد، لأنها كانت عاصمة الديار المصرية، ومقر الإمارة فيها". ويقول في المقدمة أيضاً : "ولم يكن للأقباط هم في تلك الأيام إلا التخلص من الرومانيين والتحدث بفظائع أعمالهم وظلمهم واستبدادهم، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون المجاهرة بعداوتهم خوفاً "من سخطهم وزيادة الضغط عليهم"[1].

وفي ثنايا ذلك حدثنا زيدان عن بلدة اسمها (بابل) بناها الفرس في مصر، وعن حصن يقال له (حصن بابل أو قصر الشمع) بني على الطراز الروماني[2].

وتبدأ روايته عذراء قريش بفصل تمهيدي عنوانه – كما قلت – : (قباء)[3] كتب فيه عن موقع قرية قباء على بعد ميلين من المدينة، واشتهارها بنزول النبي (ص)[4] فيها أثناء الهجرة، وبنائه (ﷺ) لمسجد قباء الذي أسس على التقوى، كما كتب عن اشتهار قباء في عهد الخليفة عثمان بن عفان، وعنايته بمسجدها، وعن خادم طاعن في السن اسمه (عامر) شهد بناء المسجد ورأى الرسول (ص) يوم نزل هناك، فأوقف حياته لخدمة المسجد، وأقام بأسرته إلى جواره يحرسه وينظفه نهاراً، فإذا فرغ من ذلك خرج مع أولاده يرعون إبل أحد أغنياء المدينة.. إلى أن كان مساء يوم في سنة ٣٥هـ التقى فيه بأسماء بطلة الرواية قادمة من مصر في طريقها إلى المدينة مع أمها المريضة مريم، وزوج أمها الكهل (يزيد) وشاب حسن الهيئة هو مروان بن الحكم قريب الخليفة عثمان ... ومن هنا تبدأ أحداث الرواية.

وتبدأ روايته ١٧ رمضان بفصل تمهيدي عنوانه (الخوارج) عرف فيه الخوارج بأنهم جماعة من رجال الإمام علي، نقموا عليه؛ لأنه قبل التحكيم على أثر وقعة صفين، وكانوا من قبل في مقدمة الذين حرضوه على قبوله.

ثم أشار إلى مبايعتهم لخارجي منهم هو (عبد الله بن وهب)، وحاربوا

---

(١) الرواية ص ٥ – ٧ ط دار الهلال ١٩٨٣ " بتلخيص".

(٢) ينظر : ص ٦.

(٣) هذا يدل على أن الفصول التمهيدية لأحداث روايات زيدان تأتي أحياناً في صورة وصف تاريخي وجغرافي للمدينة التي تكون مسرحاً لأحداث الرواية.

(٤) عبر عنه زيدان بـ(صاحب الشريعة الإسلامية) ينظر : الرواية ص ١، وهذا ديدنه في العديد من رواياته (ينظر مثلاً : فتاة غسان ص ٩ وأحمد بن طولون ص ٢١. وقد يعبر عنه بلفظ النبي دون صلاة وتسليم عليه (ينظر مثلاً : غادة كربلاء ص ٥).

تحت رايته زمناً طمعاً فى السلطان لأنفسهم. كما أشار إلى تألبهم على الإمام على ومحاربته لهم فى مواقع متعددة أشهرها وقعة (النهروان) التى انتصر فيها عليهم، وشتت شملهم. وأشار أيضاً إلى فتح عمرو بن العاص لمصر سنة ٣٨هـ، وقتله لمحمد بن أبى بكر عاملها، وتوليته حكم مصر من قبل معاوية، فأصبح معاوية خليفة مصر والشام ومقر حكمه دمشق، وبقى الإمام على فى العراق والجزيرة والحجاز واليمن، ومقر حكمه الكوفة. كذلك أشار إلى إخفاق سرايا معاوية التى حاولت نزع مكة المكرمة، واليمن من الإمام على. ثم انتقل فأشار إلى مقتل الإمام على سنة ٤٠هـ وهو يتأهب فى أربعين ألفاً من أتباعه لمحاربة معاوية.

بعد ذلك حدثنا زيدان عن (الكوفة عاصمة الإمام على) التى مصّرها سعد بن أبى وقاص سنة ١٧هـ على عهد عمر، موضحاً فى هذا الحديث هيئة مبانيها وعمارتها وأسواقها وحدائقها وبحيراتها وعن قطام بنت شحنة بن عدى غادة الكوفة التى أصيبت بقتل أبيها وأخيها فى وقعة النهروان، فقررت الانتقام لهما ... ومن هنا تبدأ أحداث الرواية.

وتبدأ روايته (غادة كربلاء) بفصل تمهيدى عنوانه (بنو هاشم وبنو أمية) تناول فيه قبيلة قريش العربية الحجازية وبطونها التى أشهرها بطن عبد مناف، وتنقسم إلى فخذين : بنى هاشم وبنى أمية، إلا أن بنى أمية كانوا أكثر عدداً وأوفر رجالاً وأصحاب الزعامة فى الحرب. ثم انتقل زيدان فأشار إلى انتساب النبى (ﷺ) إلى بنى هاشم، ووازن بين مكانة بنى هاشم ومكانة بنى أمية فى الجاهلية، ثم أشار إلى موت أبى طالب، وهجرة بنى هاشم إلى المدينة، وخلو الجو فى مكة لبنى أمية، ومحاربتهم ضمن من حارب النبى (ﷺ) فى بدر وغيرها بزعامة رئيسهم أبى سفيان. ثم أشار إلى إسلام أبى سفيان، وإلى قلة المناصب التى نالها الأمويون فى خلافة أبى بكر، وإلى إنفاذ أبى بكر لهم فى حروب الردة حيث أحسنوا الجهاد، وقوموا الأعراب، وكذلك فعلوا فى حرب الروم بالشام على عهد عمر، فتولى ولاية الشام منهم يزيد بن أبى سفيان حتى مات فى طاعون (عمواس) فخلفه أخوه معاوية.

ثم كتب زيدان عن اختلاف الناس على من يتولى الخلافة بعد مقتل

عثمان وعن التنافس بين على ومعاوية عليها، إلى أن قتل الإمام على سنة ٤٠ هـ، واضطر ابنه الحسن أن يخلع نفسه، فاتفق الجماعة على بيعة معاوية سنة ٤١هـ.

وانتقل فتحدث عن استقلال معاوية بالخلافة وعن دهائه وحسن سياسته وحطه من قدر بنى هاشم وبخاصة أهل البيت منهم، وعن لعنه علياً جهاراً، وقتل جنده لحجر بن عدى الكندى سنة ٥١هـ بسبب رفضه أن يلعن علياً.

ثم أشار زيدان إلى استمرار خلافة معاوية لمدة عشرين سنة اختتمها قبيل وفاته بأخذ البيعة لابنه يزيد، وكان عمر يزيد وقتذاك بضعاً وثلاثين سنة، فبايعه الناس بين راض وكاره. وذات يوم من أيام الخريف فى هذا العام الذى تولى فيه يزيد الخلافة، وفى (دير خالد) التقى رئيس الدير الراهب بغادة كربلاء (سلمى بنت حجر بن عدى)[1] و(عامر الكندى) كفيل سلمى و(عبد الرحمن الكندى) ابن عم سلمى ...... ومن هنا تبدأ أحداث الرواية.

وتبدأ روايته عن الحجاج بن يوسف بفذلكة تاريخية يربط فى سطورها الأولى بينها وبين الرواية التى سبقتها فى النشر (غادة كربلاء) والتى انتهى فيها إلى مقتل الإمام الحسين بن على وأهله فى كربلاء بجوار الكوفة، وماتلا ذلك من وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ ، وخلو الجو لعبد الله بن الزبير يدعو إلى بيعته بالخلافة، مستقلاً بالحجاز عن الدولة الأموية، ثم كتب عن مقاتلة يزيد قبل وفاته لابن الزبير ومحاصرة جند يزيد بقيادة الحصين بن نمير لابن الزبير فى مكة. وكتب عن مبايعة أهل الشام لمعاوية الثانى بن يزيد خلفاً لأبيه الذى رحل، وعن عودة مروان بن الحكم أمير المدينة إلى الشام وتوليه شئون الحكم إلى أن مات مخنوقاً سنة ٦٥هـ على يد زوجته أم خالد بن يزيد بعد حكم استمر تسعة أشهر وبضعة عشر يوماً، فولوا مكانه ابنه عبد الملك بن مروان الذى ازدهرت فى أيامه الدولة، وتأيد سلطانها.

كذلك كتب عن ظهور جماعة (التوابين) من أهل الكوفة، وندمهم على

---

(١) ليس لحجر بن عدى بنت اسمها سلمى ! كما سيأتى التعقيب على هذا الادعاء فى موضعه من البحث!

تخليهم عن الحسين فى كربلاء، ومطالبتهم ابن زياد وأصحابه بدم الحسين، ثم ظهر المختار بن أبى عبيد سنة ٦٦هـ، مطالباً بدم الحسين، ومبايعاً لابن الزبير، ومحارباً للأمويين حتى تمكن من قتل قتلة الحسين، ثم غير دعوته بالدعوة إلى محمد بن الحنفية، وزعم أن جبريل يظهر له، واتخذ كرسياً قال : إن فيه سراً يشبه سر تابوت العهد عند اليهود، وانتهى أمره بقتله على يد جند ابن الزبير. ثم انتقل زيدان فأشار إلى مقتل مصعب بن الزبير سنة ٧١هـ، واسترجاع العراق لحكم عبد الملك بن مروان، ومحاصرة الحجاج بن يوسف لعبد الله بن الزبير فى مكة سنة ٧٣هـ ... ومن هنا تبدأ أحداث الرواية.

وتبدأ روايته (فتح الأندلس أو طارق بن زياد) بفصل تمهيدى عنوانه (الأندلس والقوط وطليطلة) أوضح فيه أن الأندلس إحدى مقاطعات أسبانيا، وأن اسمها الأصلى (وندلوسيا) نسبة إلى الوندال أو الفندال الذين استوطنوها بعد الرومان، فلما فتحها العرب سموها الأندلس، ثم أطلقوا هذا الاسم على أسبانيا كلها. ثم انتقل فأشار إلى ما تعرضت له أسبانيا من سطو القوط(١) عليها، وتحدث عن (طليطلة) عاصمة مملكة القوط فى أسبانيا، موضحاً موقعها على ضفاف نهر التاج فى أواسط أسبانيا، وما كان فيها من حصون وقلاع وقصور وكنائس وأديرة، وأنها كانت مركز الدين والسياسة، وفيها يجتمع مجمع الأساقفة كل عام للنظر فى الأمور العامة.

ثم انتقل فأشار إلى أن ملك أسبانيا عام الفتح هو الملك (رودريك) الذى يسميه العرب (لذريق)، وأنه قوطى الأصل تولى الملك اختلاساً سنة ٧٠٩م، وترك أبناء الملك السابقين ناقمين عليه.

كذلك أوضح أن أسبانيا أيام الفتح كانت منقسمة إلى ولايات تسمى (دوقيات)، ويسمى حاكم كل دوقية (الدوق) أو (الكونت)، ويرجعون فى أحكامهم جميعاً إلى الملك المقيم فى طليطلة.

ثم انتقل فحدثنا عن موقع طليطلة على أكمة مؤلفة من أكمات يحيط بها نهر التاج من كل جهاتها، إلا الشمال، ووراء النهر من الشرق والغرب والجنوب سلسلة جبال، وفيها مغارس زيتون وكروم عنب وغابات سنديان

---

(١) القوط : من القبائل الجرمانية الذين رحلوا من أعالى الهند إلى أوربا طلباً للمرعى والمعاش، وأقاموا فى بوادى أوربا.

وصنوبر.

وفـى منتصـفها كنيسـة كبرى (اتخـذها المسـلمون جامعاً بعد الفتح)!! وكـان فيها من ضروب الأبنـية مزيجاً مـن الطـرز الـرومـانية والقوطية، وحـول المدينـة مـن الشـمال ووراء النهر مـن الجهـات الأخرى سـائر أصنـاف الأشـجار والثمار.

وفـى هـذه المدينـة تـربت (فلـورندا) فـى بـلاط الملـك رودريـك، وكـان خطيبها (الفونس) ابناً لملك القوط ...... ومن هنا تبدأ أحداث الرواية.

وتـبدأ روايـته (شـارل وعـبد الـرحمن) بفصـل تمهيدى عنوانه (فتوح العرب فـى بـلاد الإفرنج) أشـار فيه لفتح الأنـدلس سـنة ٩٢هـ (٨١١م) بقيادة طـارق بـن زيـاد البربـرى الـذى كـان من موالـى موسـى بن نصير عامل بنى أمية علـى إفريقيا. وأشـار إلـى أن ابن نصير كـان فـى عام الفتح شيخاً فوق الثمانين، وإلـى أن الأنـدلس صـارت بعد فتحها تابعة لعامل إفريقيا المقيم فى القيروان.. ثم استقلت على عهد الدولة الأموية الأندلسية.

بعد ذلـك أشـار إلـى مقتل رودريك سـنة ٩٢هـ، وقد تم بعده بسنة فتح قرطبة ومـالقة وطليطلة وغيرها، وتأيدت شوكة المسلمين هنـاك. ثم قدم موسى بن نصـير بجـند إلـى أسبانيا ففـتح مـريدة وسرقوسـة وغيـرهما، ثـم أوغـل فـى أسبانيا حتـى تجـاوز جبـال (البيرينه) إلـى فرنسـا ثـم نربونة. وفـى أثنـاء ذلك شب خـلاف بـين موسـى وطـارق فاسـتدعاهما الخلـيفة إلـى دمشـق للتحقـيق، فولـى موسـى ابنه عبد العزيز علـى أسبانيا، فجعل عاصمته (اشبيلية). ووصل موسى وطـارق إلى دمشق عام ٩٤هـ. وفى أثناء المحاكمة توفى الخليفة (الوليد) فخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦هـ، فأوعز إلى بعض الأمراء أن يقتلوا عبد العزيز، وسجن أباه موسى.

بعد ذلـك أشـار زيـدان إلـى محاصـرة مسلمة بـن عبد الملـك بـن مـروان للقسـطنطينية وفك هذا الحصار فى عهد عمر بن عبد العزيز. كما أشار إلى تولى عبد الـرحمن الغـافقى سنة ١١٢هـ حكم الأنـدلس وإلـى عزمه علـى فتح أوربـا وكانت قرطبة وقتئذ هى عاصمة الأندلس.

ثـم انـتقل فأشـار إلـى عزل عبد الرحمن الغافقـى بعد توليه الحكم للولاة

الضعفاء وأهل المطامع من الأمراء، وإلى إعادته ما اغتصبه أسلافه من الكنائس والأموال إلى أصحابها من أهل الذمة.

وختم زيدان ذلك الفصل التمهيدى بإيضاح ما كان من عبد الرحمن الغافقى من حث المسلمين العرب على الجهاد فى سبيل الله لفتح فرنسا وما وراءها حتى يعم الإسلام جميع أنحاء العالم، ورحل المسلمون للجهاد بادئين بفتح بوردو .. ومن هنا تبدأ أحداث الرواية، وما كان من وقائع بين عبد الرحمن وشارل. إلخ ما احتوته الرواية من أحداث.

أما الفصل التمهيدى لرواية (أبى مسلم الخراسانى) فكان بعنوان (جلنار) وفيه أشار إلى نظام الحكم فى بلاد فارس وخراسان وما وراء النهر قبل الفتح الإسلامى، موضحاً أن الحكام أصحاب النفوذ فى هذه المناطق كانوا يسمون (الدهقان)، وكانوا يعاملون الرعية معاملة الأرقاء، وكان هؤلاء خليطاً من الشعوب الآرية المتسمة بضخامة البدن وبروز الصدر.

ثم أوضح أن أعظم دهاقين خراسان فى أوائل القرن الثانى للهجرة دهقان كانت أكثر ضياعه بجوار مدينة مرو عاصمة خراسان فى ذلك الوقت، وكان لهذا الدهقان ابنة اسمها (جلنار) كثر خطابها من الدهاقين والأمراء، وكان منهم (ابن الكرمانى) الذى رغب أبوها لتزويجها له، لكنها لم تكن تميل إليه ..... ومن هنا تبدأ أحداث الرواية.

وأما الفصل التمهيدى لرواية (العباسة أخت الرشيد) فقد جاء تحت عنوان (فذلكة تاريخية) كتب فيها عن انتقال عاصمة الخلافة الإسلامية من المدينة فى عهد الراشدين إلى دمشق فى عهد الأمويين، ثم إلى بغداد فى عهد العباسيين.

وأوضح أن الدولة العباسية قامت سنة ١٣٢هـ، وأن أبا العباس السفاح هو أول الخلفاء العباسيين، ثم خلفه أخوه المنصور، فقتل أبا مسلم الخراسانى خشية أن يطمع فى الخلافة لنفسه، فثار عليه أتباعه (جماعة الراوندية)، وكادوا يفتكون به لولا أن تصدى لهم (معن بن زائدة)، فرأى المنصور أن يشيد حصناً يأوى إليه بأهله ورجال حكومته، فبنى بغداد على شكل دائرة كما بنى قصره المعروف باسم (قصر الذهب)، وقصره المعروف باسم (قصر الخلد)، وقصراً ثالثاً فى (الرصافة).

كذلك أوضح زيدان صورة بغداد التى بناها المنصور، وما تميزت به من أسوار وأبواب أربعة، وما كان لأهلها من ترف العيش فى عهد الرشيد، وما كان للبرامكة من قوة النفوذ .... ومن هنا تبدأ أحداث الرواية.

وأما الفصل التمهيدى لرواية (الأمين والمأمون) فعنوانه (فى خان سمعان) وفيه عاد زيدان للحديث عن بغداد التى أنشأها المنصور سنة ١٤٥هـ، وعن قصورها ومساجدها وأسوارها وأبوابها والأنهار التى تشقها.

ثم انتقل فتحدث عن (سمعان) صاحب إحدى الحانات الذى عاصر (المهدى والهادى والرشيد) وشهد نكبة البرامكة ونصب جثة جعفر البرمكى بعد قتله على جسر بغداد لمدة ثلاث سنوات ..

ثم انتقل لوصف حانة سمعان .... ومن هنا بدأت أحداث الرواية.

وأما الفصل التمهيدى لرواية (عروس فرغانة) فعنوانه (مقدمة تاريخية) تناول فيها موقع مدينة فرغانة على حدود تركستان، مطلة على ضعاف نهر جيحون، كما تناول فتح المسلمين لها فى أواخر القرن الأول الهجرى على يد قتيبة بن مسلم فاتح تركستان سنة ٩٤هـ. وأشار إلى ما كانت تتميز به من أسواق وقصور وأسوار وأرباض وبساتين وقلاع، وبخاصة قلعة (فهندز). ثم أشار إلى سكان فرغانة عند الفتح من طاجية وفرس وهنود وأتراك وصينين، أرقاهم هم الفرس بالرياسة والسياسة والنفوذ الأدبى والدينى.

ثم انتقل موضحاً أن حكام فرغانة عند الفتح هم الأخاشيد وأن فرغانة كان بها فتاة باهرة الجمال اسمها (جهان) لقبوها بعروس فرغانة.

.... ومن هنا تبدأ أحداث الرواية.

وتبدأ روايته (أحمد بن طولون) بفصل أو مشهد عنوانه (دميانة)، وهى فتاة مسيحية. ولن نوجز هنا ما جاء فى هذا المشهد التمهيدى، إذ لا تاريخ فيه يتصل بالإسلام الذى يزعم زيدان أنه يؤرخ له، والذى صدرت هذه الرواية ضمن سلسلة زيدان المعنية بذلك التاريخ.

إن هذه الرواية أغرب روايات زيدان، فهى فى الحقيقة رواية دميانة النصرانية والخيالية مع حبيبها سعيد الفرغانى (المهندس النصرانى) والخيالى

أيضاً، وينافسه فى حبه (اسطفانوس) الخيالى أيضاً ابن المعلم يوحنا كاتب الماردانى صاحب الخراج. ومسرح الأحداث بشكل كامل منذ بداية الرواية حتى نهايتها فى الأديرة والكنائس، ومع الرهبان والبطارقة.. خيال فى خيال !!!

وتبدأ روايته عن (عبد الرحمن الناصر) بفذلكة تاريخية تتحدث سطورها الأولى عن (قرطبة) عاصمة الأمويين بالأندلس، فى شمالى نهر الوادى الكبير فى جنوب أسبانيا، التى بلغت غاية حضارتها وأوج مجدها فى زمن عبد الرحمن الناصر الذى ملك منذ سنة ٣٠٠ – ٣٥٠هـ.

بعد ذلك أشار زيدان فى هذه الفذلكة إلى أن عبد الرحمن الناصر هو أول من لقب بالخلافة من ملوك الأندلس، وأنه تولى الملك والأحوال مضطربة لاختلاف الأحزاب، وكثرة الطامعين فى السلطان من العرب والبربر، عدا الإفرنج المجاورين له فى أشتوريا وغليكية ونافار وبمبلونة وغسكونية وغيرها. لكن عبد الرحمن الناصر ناضل وحارب حتى دانت له الرقاب وتقرب إليه ملوك عصره وأوفدوا إليه الوفود من القسطنطينية وروما وفرنسا وروسيا وغيرها. وحين ضعفت الدولة العباسية لقب نفسه بأمير المؤمنين، واتفق أثناء ذلك أن قامت الدولة الفاطمية فى المغرب، فأصبحت الخلافة الإسلامية تدعيها ثلاث دول : العباسيون فى العراق، والفاطميون فى المغرب، والأمويون فى الأندلس.

تناول زيدان فى هذه الفذلكة أيضاً ازدهار قرطبة واستبحار عمرانها فى زمن عبد الرحمن الناصر، إذ كثرت قصورها ومتنزهاتها، وتعددت عجائبها كالقصر الكبير الذى كان آية من آيات الزمن، ومسجدها الشهير الذى لم يكن فى الإسلام أعظم منه بناء، وقصر الزهراء، ومسجد الزهراء الفخم، وحدائق قرطبة العديدة وبحيراتها التى تسبح فيها الأسماك بألوانها وأنواعها، ومكتبة قرطبة التى كانت إحدى مظاهر عناية عبد الرحمن الناصر بتشجيع العلماء، وترويجه لسوق العلم، حتى غدت قرطبة فى عهده كعبة الأدباء ومجتمع العلماء ومقصد باعة الكتب ومنهم "سعيد الوراق" الذى كانت مكتبته أشبه بنادى مطالعة منها بمستودع كتب أو دار نسخ، والذى كان كثير الاحتفاء بالفقيه ابن عبد البر .... ومن هنا تبدأ أحداث الرواية.

وتبدأ روايته (فتاة القيروان) بفذلكة تاريخية[1] طويلة عن نشأة التشيع في المغرب العربي، واستلزم منه هذا أن يرجع إلى نشأة التشيع أصلاً، وما لاقاه الشيعة من عناء خلال العصرين الأموي والعباسي؛ بل إنه استطرد، فكتب عن عدة جوانب من تاريخ الدويلات التي انفصلت عن دولة الخلافة، ومنها الدولة الإدريسية التي أنشأها إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى الذي فر مع من فر من الشيعة على عهد الرشيد، ثم إلى المغرب حيث أسس هذه الدولة التي استمرت من سنة ١٧٢هـ حتى سنة ٣٧٥هـ، وكتب عن بني بويه وتغلبهم على بغداد، وعن الدولة الفاطمية (العبيدية) التي كانت (المهدية) بإفريقيا عاصمتهم الأولى، وعن صحة انتسابهم إلى الحسين بن علي، وعن اشتداد ساعدهم في المغرب وهمهم بفتح مصر، وعن اضطهاد أحمد بن طولون للشيعة في مصر، وعن الظروف التي أدت إلى استقلال الأخشيد بمصر وانسلاخهم من دولة الخلافة، وكيف آل الأمر إلى كافور الإخشيدي، ومفترق الطريق الذي انتهت إليه أوضاع مصر بمرضه، وكيف ساعد الصراع الداخلي على انتصار القائد جوهر الصقلي ودخول مصر في حوزة الفاطميين سنة ٣٥٨هـ. على أنه في ثنايا هذا السرد التاريخي الخاص بالأحداث السابقة لزمن تلك الرواية، وتركيزه على الشيعة العلويين ذهب بالقارئ إلى مدن عدة مثل المهدية والقيروان والمنصورية والفسطاط، واصفاً كل مدينة، مسهباً في وصف القيروان بالذات، وفي اختطاط عقبة بن نافع لها سنة ٦٠هـ، مشيراً إلى من كان يسكنها من الأقوام الذين تقاطروا من أنحاء العالم إليها، عرباً وعجماً وبربراً وروماً وغيرهم.

ثم ختم هذا الفصل التمهيدي بالإشارة إلى أن حوادث هذه الرواية قد جرت على عهد المعز لدين الله الفاطمي وقائده جوهر الصقلي. وتلك هي أبرز المعلومات التاريخية التي احتواها الفصل التمهيدي لرواية (فتاة القيروان).

ويبدأ روايته (صلاح الدين ومكائد الحشاشين) بمقدمة تاريخية يسميها (فذلكة) يشير فيها إلى روايته السابقة لهذه الرواية، وهي (فتاة القيروان) التي

---

(١) في الطبعات القديمة جاء عنوان الفصل التمهيدي هكذا، أي (فذلكة تاريخية)، ولكن في طبعة دار الهلال ١٩٨٤ استبدل بـ(الشيعة العلوية في المغرب) والموضوع في الحالين واحد.

انتهت بدخول مصر فى حوزة الفاطميين والعبيديين سنة ٣٥٨هـ، ويوضح فيها بإيجاز ـ وضع الدولة الفاطمية فى مصر فى تلك الفترة.

وتبدأ روايته (شجرة الدر) بحديث موجز عن الدولة الأيوبية، تربط سطوره الأولى بين هذه الرواية، والرواية التى سبقتها عن صلاح الدين، إذ يقول : "فرغنا من رواية صلاح الدين وقد دخلت مصر فى حوزته، ثم توارثها السلاطين من أولاده وإخوته وأولادهم وأحفادهم، وبنى صلاح الدين قلعة القاهرة، وجعلها مقر ملكه بمصر، واقتسم الأيوبية الملك فى مصر والشام، وأفضت السلطنة بمصر سنة ٦٣٧هـ إلى السلطان الملك الصالح بن الكامل".

ومضى يتحدث مشيراً إلى كثرة ما اقتناه هذا السلطان من المماليك الأتراك الذين بنى لهم قلعة يقيمون فيها فى جزيرة الروضة. على أنها كانت المركز الرئيسى لملكه وفيها أهله وحاشيته وجواريه اللاتى كانت منهن جاريته (شجرة الدر) أم ولده خليل الذى مات صغيراً. وأشار أيضاً إلى الحملة الصليبية السابعة على مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا أثناء مرض الملك الصالح، وكيف ظفر قواد هذه الحملة بدمياط بفرار بعض أمرائها، وخيانة بعض أهلها، ولما توفى الملك الصالح خلفه ابنه (غياث الدين طوران شاه) وسموه (الملك المعظم)، لكن النفوذ كان لزوجة أبيه شجرة الدر، حيث دبرت أمور الدولة من بعده، وكتمت خبر موته، حتى جاءوا بابنه (غياث) من سوريا، وبايعوه سنة ٦٤٧هـ، وعاد المصريون لمحاربة الصليبيين، فهزموهم، وأسروا لويس التاسع وحبسوه فى دار ابن لقمان مع كثير من ضباطه وكبار جنده. ولما وقع الخلاف بين رجال غياث الدين ومماليك أبيه قرروا مبايعة شجرة الدر بالملك ... ومن هنا تبدأ أحداث الرواية.

وتبدأ روايته (استبداد المماليك) بمشهد عنوانه (فى وكالة الصابون)، أوضح فى سطوره الأولى أن مصر ظلت تحكم باسم كثير من السلاطين بعد الخلفاء الفاطميين إلى أن آل أمرها إلى (المماليك) الذين استبدوا فى أحكامهم، وضج أهلها بالشكوى منهم، واستمرت الحال على هذا المنوال حتى غزاها الخليفة التركى السلطان سليم فى عهد سلطانها الغورى، فتم له فتحها، ودخلها بعد قتل الغورى فى واقعة (دابق)، وشنق خليفته (طومان باى) فصارت مصر منذ ذلك الحين تابعة لتركيا.

كذلك أوضح أن السلطان سليم جعل فى مصر ثلاث سلطات (سلطة الباشا، وسلطة البكوات، وسلطة الوجاقات (القوة العسكرية)، وكان من بين البكوات شيخ البلد المنوط به حكم القاهرة وأمنها. فلما كانت سنة ١٧٦٣ آلت مشيخة البلد إلى (على بك الكبير) الذى طمع فى الاستقلال بمصر وافتتاح البلاد المجاورة لها.

وأوضح أيضا أن القاهرة فى تلك الأيام كانت ضيقة العمران، قليلة السكان، لا تزيد أحياؤها عن (الحمزاوى والغورية والجمالية والنحاسين وما جاورها)، وكان لها سور ذو أبواب ضخمة تغلق فى آخر النهار. وكان فى الجمالية مجتمع لكبار التجار وأصحاب الثروة يسمى (وكالة الصابون)، وكان من بين تجار تلك الوكالة تاجر مصرى اسمه (السيد عبد الرحمن) ..... ومن هنا تبدأ أحداث الرواية.

وتبدأ روايته (المملوك الشارد) بمشهد عنوانه (جبل لبنان) أوضح فيه أن ذلك الجبل المشرف على البحر الابيض المتوسط آهل بالعشائر، تكسوه المزارع والغياض والثلج، وكانت حكومته إلى منتصف القرن الثامن عشر فى قبضة أمراء من عشائر مختلفة، ينتهى نسب أكبر عشيرة منهم إلى (لؤى بن كعب بن غالب) من قريش، وهؤلاء هم الأمراء الشهابيون أو بنو شهاب الذين حكموا فى لبنان أكثر من بقية عشائرها. وكان مركز حكومتهم هو بلدة (دير القمر) الواقعة غربى الجبل المذكور، وفى أواخر القرن الثامن عشر اتصلت إمارة هذا الجبل بالأمير بشير الشهابى. وكان فى السفح المقابل لدير القمر قرية (بيت الدين) التى فيها معبد لطائفة الدروز، فابتاعها الأمير بشير، واتخذ منها متنزهات له ولأسرته. وكان بجوار (بيت الدين) دير منفرد فيه جماعة من الرهبان.

..... وفى مساء يوم من شهر ديسمبر سنة ١٨١٢م طرق باب هذا الدير رجل أسود اللون طويل القامة غريب الزى معه امرأة مبرقعة عليها ثياب سود حالكات، وعلى يد الأسود طفل ... كانت المرأة المبرقعة زوجة أحد الأمراء المماليك الذين حكموا مصر قبل ولاية محمد على باشا القولى، وقد نبح هذا الأمير المملوكى فى مذبحة القلعة الشهيرة ..... ومن هنا تبدأ أحداث الرواية.

وتبدأ رواية (اسير المتمهدى) بفذلكة تاريخية حدد فى سطورها الأولى

ان وقائع هذه الرواية جرت فى سنة ١٨٧٨م، وان القاهرة وقتئذ كانت قد اتسع عمرانها، وازداد سكانها وروادها، وأن الخلفاء الفاطميين هم الذين أنشاؤها فى منتصف القرن الرابع للهجرة.

كذلك أوضح أن الخديوى إسماعيل أراد أن يجعل القاهرة قطعة من أوربا، فأكثر من الشوارع الحديثة، والأحياء الجديدة المنظمة، والحدائق المتسعة، وأنار المدينة كلها بالغاز، فأصبح ليلها كنهارها، وكثرت بها الأماكن العامة، ولا سيما حول حديقة الأزبكية ..... ومضى يتحدث عن سور أنشىء حول هذه الحديقة، وعن الموسيقى العسكرية التى كانت تعزف كل مساء بالقرب من بيير تستير بالحديقة، وعن تتابع الناس عليها أفواجا للفرجة والتنزه، وهم يرتدون أزياء مختلفة بين العمامة العربية والطربوش العثمانى والقاوون الفارسى والقبعة الإفرنجية والبنطلون والقفطان والسراويل، وبين الخمار المغربى والحبرة المصرية والإزار.

وكان فى شارع العباسية بالقاهرة فى سنة ١٨٧٨ منزل مبنى على الطراز الحديث، وكان لصاحب المنزل زوجة أصغر منه سناً .. استدعاها فى يوم من أيام السنة المذكورة وسألها عن شفيق الذى تحبه بنته فدوى فقالت : لم أره هذا المساء ...... ومن هنا تبدأ أحداث الرواية.

وتبدأ أحداث روايته (الانقلاب العثمانى) بمشهد عنوانه (حديقة البلدية) تحدث فيه عن (سلانيك) أو (سالونيك) أكبر مدن المملكة العثمانية التى اشتهرت بنيل الدستور على أيدى أحرارها، والتى تقع على البحر مثل موقع (ازمير) ويتكون سكانها من أجناس مختلفة : اليهود، والأتراك، والأروام، والمقدونيين، والألبان، وأجناس أخرى. ومجموعهم مائة وخمسون ألفاً، منهم ستون ألفاً من اليهود الذين نزحوا إليها من أسبانيا، كما نزحوا إلى (الأستانة) وغيرها.

وأشار زيدان إلى أن المدينة كان لها رصيف عريض يمتد على شاطئ البحر مسير نصف ساعة، والأشجار على جانبيه، والمنازل الفخمة تطل عليه وعلى البحر.

وفى سلانيك كانت حديقة للبلدية هى أحسن متنزه لتمضية الأوقات فى

المنادمة والمحادثة، ففيها أشجار ورياحين وأزهار ومطعم وقهوات و(تياترو). لذلك كان يأتيها الشاب والشيخ والصبية والعجوز، والكل يتحدثون ويتسامرون بما يطيب لهم بغير مراقبة أو حذر. فلما جاء زمن الاستبداد على عهد السلطان عبد الحميد، صاروا يتخاطبون همساً خوفاً من الجواسيس والوشاة، إذ بلغت الجاسوسية فى زمنه مبلغاً ليس له مثيل، ولا سيما فى أواخر أيامه، حيث تبدأ هذه الرواية وأحداثها.

وتبدأ روايته (جهاد المحبين) بمشهد عنوانه (حديقة الأزبكية) أشار فيه إلى احتفال سكان القاهرة يوم ٢١ يونيو سنة ١٨٨٧ بمرور خمسين عاماً على حكم فكتوريا ملكة الإنجليز، فزينوا الحديقة بالأنوار، وتقاطروا زرافات ووحداناً إليها، وكان من بينهم شاب جاء لتفريج كربته بمشاهدة هذا الاحتفال، وفى الحديقة راح يقص على صديقه حبيب أسباب همه وغمه ...... ومن هنا تبدأ أحداث الرواية.

وبعد :

فذلك هو كنه المادة التاريخية التى حرص جورجى زيدان على تقديمها للقراء فى بداية كل رواية من رواياته.

وأعتقد أنك قد استشعرت وأنت تتابع معى ذلك العرض الذى سبق لما احتوته فصوله التمهيدية لرواياته أنه قد صنع هذا ليزود القارئ بقدر من المعرفة التى تساعده على تصور أحداث الفترة التى تسبق أحداث الرواية، وتمنحه قدراً من القدرة على تقبل ما يستجد - بناء على هذه المعرفة - من أحداث، وكأن زيدان بصنيعه هذا يحرص على إرضاء القراء، أو على الأقل : عدم إغضابهم وإثارة شكوكهم فى بعض الأحداث التى يذكرها فى داخل الرواية، وبعض الصفات التى يطلقها على بعض الشخصيات !!

ومما لا شك فيه : أننا لا نستطيع أن نقلل من القيمة التاريخية للمعلومات التى احتوتها تلك الفصول التمهيدية، والتى أتى بها من إيغاله فى التاريخ البعيد أو السابق للرواية. لكن هذه المعلومات التاريخية من الوجهة الفنية لطبيعة الرواية ليس لها - فيما أحسب - فائدة فنية؛ بل هى ضد لغة الفن أصلاً؛ لأننا أمام عمل روائى لا أمام مبحث من مباحث التاريخ، ينتهز فيه الكاتب الفرصة ليستعرض معلوماته التاريخية ونحوها مما يعرفه من معلومات.

وعلى كل حال فإن زيدان لم يقف عند ذلك الحد الذى يخصص فيه الفصل الأول من الرواية لسرد المعلومات التى تسنح له قبل استهلاله للحدث الروائى؛ بل إنه فعل هذا فى لب الرواية ذاتها، حيث تراه فى كثير من الأحيان يقطع الحدث الروائى الذى هو بصدد سرده ليحدثك عن حضارة العصر الذى جرى فيه ذلك الحدث، أو يصف لك مدينة أو أكثر من مدينة وقع فيها الحدث، أو يذكر لك معلومات عن أمر يريد أن يثقفك به. والغريب أنه فى بعض الأحيان يسهب فى ذلك إسهاباً يذهب بك بعيداً عن الأحداث الأصلية للرواية، فيضطر إلى العودة إليها باختراع وسائل تعبيرية للربط لم نعهدها فى طبيعة الرواية على ما يجئ التمثيل. وترى زيدان أحياناً إذا حاول هذا الربط للأحداث جاء ربطه ضعيفاً مهلهلاً. يضاف إلى هذا أن زيدان بقطعه للحدث الروائى بالمعلومات الراغب فى ذكرها يدخلك فى دائرة الملل من قراءة رواياته، ولذلك فإنى أعده روائياً مملاً بسبب كثرة الاستطرادات إلى المعلومات التاريخية وغير التاريخية !!

صحيح أن تلك المعلومات التى يستعرضها بعيداً عن الحدث الروائى الذى هو بصدده قد يكون لها دور يستثير اهتمام بعض القراء لمزيد من القراءة حولها فى كتب أخرى، لاستكمال ما لم يجدوه فى الرواية، أو للتحقق من صحة ما يقوله زيدان، والتثبت من سلامته.

وصحيح أنه يمكن لنا أن نعذره فى استعراض تلك المعلومات ما دام يهدف إلى تعليم التاريخ كما قال فى توضيح منهجه.

ولكن عذرنا له لا يمكن أن يكون مقبولاً فى مواقف بدا فيها زيدان يستعرض معلومات لا نجد مبرراً لذكرها، مما قد يدفعنا إلى سوء الظن به، ومواقف بدا فيها مسهباً إلى درجة تجلب إلينا الملل، ومواقف يوجز فيها القول عن حدث من صميم الرواية، ويطيل القول عن معلومات لا صلة لها بالحدث الروائى مما قد يدفعنا إلى سوء الظن به أيضاً.

ولنقرأ معاً روايته (فتاة غسان) شاهداً على بعض ما نقول، حيث تراه (فى حوار حماد مع سعدى أم البطلة هند) يوجز القول عن قدم بناء الكعبة المشرفة، ودوام حج الناس إليها، واتخاذ العرب لها - قبل الإسلام طبعاً - مجمعاً للأوثان، وعلق سلمان تابع حماد على هذا الحديث بأن عقلاء قريش

يزورونها لعبادة الله، وإن كان قد ضل فريق منهم عن سواء السبيل[1].

وترى زيدان أيضاً وقد أتى فى السرد القصصى للرواية بفقرة أوجز فيها الكلام عن دولة الأنباط التى أطاح بها الروم فى بدايات القرن الثانى الميلادى، ثم خلفتها دولة الغساسنة[2] وقد فعل زيدان هذا لسبب واهٍ، لا أثر له فى أحداث الرواية !

وعندما أراد عبد الله أن يكشف لحماد سر مولده، أبعد إلى الوراء، فتحدث عن الأنساب العربية الأولى، والممالك القديمة، وملوك الحيرة، وأخيراً النعمان بن المنذر – وهو المراد بالحديث – ثم موقعة ذى قار الشهيرة[3].

ومعنى هذا أن زيدان ينتهز الفرصة السانحة فيفيض، فى الوقت الذى لا تقتضى الأحداث سوى النعمان بن المنذر وموقعة ذى قار! بل إنه لم يقف عند هذا فقط، بل راح يتكلم عن الدولة الفارسية بإشارات خاطفة منذ القرن الثامن قبل الميلاد إلى الملك يزد جرد الذى قضى عليه المسلمون، ووصف المدائن ثم إيوان كسرى، فى ثلاثة فصول أخفق فى دمجها بمجرى الرواية ![4]

ولنقرأ أيضاً روايته (فتح الأندلس) حيث تراه – مثلاً – يقدم لك رواية يتوقف فيها من وقت لوقت ليصف لك كنيسة طليطلة وارتفاعها وعدد أعمدتها، او ليشرح لك سبب التباغض بين الروم والقوط، أو ليتحدث عن المجامع الدينية فى أسبانيا وكونها على ثلاث درجات، وعن الجند الأسبان فى عهد القوط وأنواع فرقهم .. إلى غير ذلك مما اضطره إلى وضع حواشى عديدة لشرح تلك المعلومات التاريخية !

وتراه يضيف إلى الرواية تفاصيل مفتعلة، تشتت فكر القارئ، وتأخذه بعيداً عن المحور الأساسى للرواية، وتجعل الرواية أشبه ما تكون بقصص المغامرات التى تتكئ على المفاجأة المسرحية. حيث راح يفصل بافتعال قصة بدر الذى أسر فلورندا، وأراد أن يتخذها جارية أو زوجة له، ثم اتضح فى

---

(١) الرواية ٢٦٢/١ ط دار الهلال ١٩٨٣ – تقديم حسين نصار.
(٢) السابق : ١٨٤/١.
(٣) السابق : ٦٥/٢ – ٨٣.
(٤) السابق : ٨٣/٢ – ٩١.

النهاية أنها ليست إلا أخته !!![1]

وتراه كذلك يقحم قصة المؤامرة اليهودية التى يراها عاملاً أساسياً فى انتصار طارق بن زياد !![2]

صحيح أنه قد اعتمد فى إقحامه لهذه القصة على روايات عربية ذكرت ترحيب اليهود فى الأندلس بفتح المسلمين لها، كما ذكرت معاونتهم للمسلمين فى البداية؛ ولكن اليهود كانوا من القلة بحيث لم يزد تأييدهم للعرب عن كونه عاملاً ثانوياً محدود القيمة، وليس عاملاً رئيسياً كما يزعم زيدان فى هذه الرواية.

وتراه فى هذه الرواية أيضاً يذكر لك حواراً طويلاً بين (أوياس) وابن أخيه (ألفونس) فى فصل عنونه بـ(فلسفة التاريخ)، وفى ثنايا هذا الحوار راح يستعرض قضية العلاقة بين السياسة والدين وتأثير كل منهما فى الآخر، وبالتالى فى صناعة الأحداث وتوجيهها..

"ولا أخفى عنك أن ملوكنا القدماء لم يهتموا بنشر مذهبهم ولم يتبينوا علاقة الدين بالسياسة. ولكن الرومان لم يغفلوا عن اغتنام الفرص لاسترداد سلطانهم بطريق الدين، فجعلوا يدسون أنوفهم فى مصالح الدولة رويداً رويداً. ويبثون مذهبهم بين الرعايا بوسائل مختلفة حتى تولى ريكاردو المذكور منذ قرن وبعض قرن فاستولوا على عقله حتى نبذ ديانة أجداده، واعتنق المذهب الكاثوليكى وجعله مذهب المملكة فتم النفوذ لرومية، حتى أصبح مجمع الأساقفة الذى يجتمع فى هذه المدينة يدير أمور الملك كما يشاء. وربما أتوا بالأوامر من رومية نفسها....."[3].

"ويلاحظ أن الكاتب فى تحليلاته التى يستطرد بها من خلال السرد الروائى يكمن أكثرها فى جانب التحليل النفسى للأشخاص والتعليق على سلوكياتهم بما استفاده من معلومات شتى، ولكن ما يلفت النظر حقاً، هو تضمينه لتحليلاته بعض المعلومات أو الإنجازات التى توصل إليها العلم فى

---

(١) ينظر : الرواية ص ٣٣١ وما بعدها.
(٢) ينظر : الرواية ص ٣٢٤ وما بعدها.
(٣) الرواية : ص٦٢.

مجال الطبيعة او الكيمياء او غيرها، وكانت هذه المعلومات بالنسبة لزمانه تمثل قفزة مهمة، وربما كانت جديدة على القارئ المعاصر له، صحيح أن بعضها يبدو بمقاييسنا بسيطاً، ولكنها فى زمانه كانت شيئاً له أهميته، يصف المحّبة الطاهرة فيقول : "والمحبة الطاهرة تزداد شدّة بما تلاقيه من المقاومة، كما تزداد الحرارة بالاحتكاك[1] هنا يشير إلى العلاقة بين الحرارة والاحتكاك، وقد تكون هذه العلاقة معروفة منذ زمان بعيد، ولكنها مع عصر النهضة بدأت تأخذ منحى مقتناً فى نظرية أو تجربة ..... كذلك نجد "زيدان" يتطرق إلى بعض الأفكار العلمية، التى تنطلق من هذا الاتجاه، فيتحدث عن فكرة إنقاذ من يتعرض للموت. نتيجة البرد الشديد، فقد رات "فلورندا" أحد أعوانها والحراس يضربونه ضرباً مبرحاً، فأسرعت إلى الرئيس وسألته عن سبب ذلك فقال :

"لا تجزعى فإنهم إنما يفعلون ذلك لحفظ حياته"

قالت : "وكيف يحفظون حياته وقد أماتوه من الضرب؟".

فضحك الرئيس وقال : "يظهر أنك لم تسمعى (بالدنق)".

قالت : "وما الدنق يا مولاى؟".

قال : "هو الموت من البرد الشديد .... فالظاهر أن رسولك هذا أوشك أن يدنق من البرد، فعمدوا إلى ضربه ليتحرك دمه وتعود إليه الحرارة فلا يموت...".

قالت : لم يكن يشكو بردا مطلقا بل رأيته يضحك مسروراً.

فضحك الرئيس حتى قهقه وقال : "والضحك فى البرد من علامات الدنق""[2].

"وواضح أن الكاتب يهدف إلى حشد كمّ من المعلومات بقصد إفادة القارئ، سواء نجح فى توظيف هذه المعلومات لخدمة الفن الروائى أو فشل.. الذى يعنيه فيما يبدو هو حشو دماغ القارئ بما يعرفه من معلومات علمية وتاريخية وجغرافية وغيرها، وسواء كانت هذه المعلومات متوارثة أو مستحدثة""[3].

وخذ مثلاً من روايته (عبد الرحمن الناصر) التى تناول فيها من بين ما

---

(١) الرواية : ص٤٥.

(٢) الرواية : ص ٢٥٤.

(٣) ينظر: الرواية ص ٨ ومابعدها.

تناول اهتمام الخلفاء والأمراء المسلمين بالعلم والعلماء، وعنايتهم باقتناء الكتب والإغداق على مؤلفيها وناشريها، وهذا أمر نحسبه لزيدان، ونقدره له، ونشكره على أنه قد قدم لقرائه صورة وضاءة عن هذا الجانب؛ لكنه أعاد فيه وزاد، وأطنب وأسرف، وبدلاً من أن يقدم لنا صورة موجزة مكثفة قدم لنا صورة مكبرة، وراح يتحدث طويلاً وطويلاً عن كيفية اهتمام هؤلاء الخلفاء بالعلم، وحبهم له، وإقبالهم عليه، وتقريبهم العلماء إليهم، وحرصهم على اقتناء الكتب، والإنفاق على مؤلفيها وناشريها، وكيف كانوا يتنافسون فى الحصول على الكتب، فالأمير عبد الله ينافس أخاه الحكم، وإذا سبق أحدهما إلى اقتناء كتاب جديد عد ذلك مفخرة له، وأدى هذا الوضع إلى أن تصبح التجارة فى الكتب وسيلة مضمونة للكسب والإثراء، فكثر الذين يشتغلون ببيع الكتب ونسخها.

ومضى زيدان فى إطالة القول عن ذلك مانحاً البطولة الفعلية فى الرواية لأحد الوراقين (سعيد الوراق)، وأكثر فى تصوير هذا الجانب؛ وراح يعرف ببعض الكتب الأصول فى تراثنا العربى، ويتناول حياة مؤلفيها، والظروف التى أحاطت بالتأليف والنسخ، وكيف عرض سعيد الوراق لأبى الفرج الأصفهانى وكتابه الأغانى، والمدة التى استغرقها تأليف هذا الكتاب وأهميته وضرورة اقتنائه، وكيف أن (عابدة) وقفت عند (العقد الفريد) لابن عبد ربه، وتعجبت كيف أن مؤلفه جمع فيه ما لا سبيل له فى غيره من العروض والشعر والأخبار والأمثال والتاريخ والعظات الدينية والفوائد الصحيحة. وأسرف زيدان فى تجسيد هذا الجانب عند كل من (عابدة) و(سعيد)، فهى تحفظ الشعر الجاهلى والإسلامى والمحدث، وقرأت جمهرة القرشى، وحفظت نوادره، وديوان الحماسة للبحترى، وطبقات الشعراء لابن قتيبة، ولغيرهم من الأدباء، واستشهد المؤلف فى الرواية بشعر كثير لزهير ولغيره من الشعراء !

فهل زيدان بإسرافه فى هذا كان يكتب رواية فنية أم يكتب بحثاً فى المكتبة العربية ؟!

على أنه كرر فى هذه الرواية – رغبة فى سرد المعلومات :- ما لا تدعو إليه الحاجة الفنية، إذ أشار مرات كثيرة فى فصول الرواية؛ إلى أن الولاة والأمراء المسلمين لم يكونوا يرغبون فى اقتناء كتب الفلسفة، مراعاة للدين؛ على ما يفسره الفقهاء فى ذلك العهد، ثم ما لبث أن أعاد هذه الفكرة بنصها،

وهو بصدد [illegible]ثه عن الأمير عبد الله حيث يقول فى صفحة ١٢٩ : (وقد رأيت فيما تقدم إنكاره أمر هذه الكتب على أخيه حينما قيل له إن أخاه يقتنيها. وكان ذلك الاعتقاد شائعاً فى العالم الإسلامى مسايرة لما يريده الخلفاء، وهؤلاء كانوا ينكرون أمر هذه الكتب مراعاة للدين على ما يفسره الفقهاء فى ذلك العهد، وكان رجال السلطة يراعون أقوال الفقهاء احتفاظاً بنفوذهم لدى العامة")[١].

وخلاصة القول : أن زيدان بما صنعه فى رواياته من حرص بالغ على سرد المعلومات، والإسراف فى تجسيدها، قد جعل الرواية من رواياته ثقيلة مملة بما حمله لها من تكديس وحشو ونقل للمعلومات من كتب التاريخ وغيرها.... الأمر الذى نجم عنه الإتيان بأشياء عديدة إن كانت لها قيمة من الناحية التاريخية أو الأدبية أو الجغرافية أو العلمية فإنها من الوجهة الفنية لطبيعة العمل الروائى لم تخدم السياق الموضوعى للرواية، ومن ثم لم تكن لها قيمة فنية، بل جاءت ضد لغة الفن أصلاً كما سبق القول والبيان.

---

(١) بانوراما الرواية العربية الحديثة، د/ سيد النساج ص١٩١.



روايات جورجى زيدان ، والصدق التاريخى
أباطيـل وحقائــق

وقع جماعة من الدارسين فى استنتاج خاطئ مما درسوه من بعض روايـات جرجـى زيـدان، هـو أن رواياتـه تتسم كلهـا بالصـدق التاريخـى والدقـة والأمانـة فـى النقل عن كتب التاريخ، فليس فى الروايات - فيما يزعمون - شىء يخالـف الحقـيقة التاريخـية، ولا فـيها شـىء يقـدح فـى دقـة زيـدان وأمانـته التاريخية![1]

والواقع أن هؤلاء الدارسين الذين يجرهم الاتكاء على المنهج الانتقائى إلى إصدار الأحكام العامة التى هى فى الحقيقة تنطبق على البعض دون البعض الآخر قد غرهم ما كان يصنعه زيدان فى رواياته من ذكر المراجع التاريخية التى استقى منها مادته التاريخية فى الصفحة التالية لصفحة العنوان، فاعتقد هؤلاء الدارسون أن ذلك ينم عن صدق زيدان التاريخى ودقته وأمانته فى جميع ما يذكر. ولـو كـان هـؤلاء الدارسـون قـرأوا الـروايات جمـيعها قـراءة تاريخـية فاحصة، وقابلـوا مـا جـاء فيها بالمصـادر التاريخـية الموثوقة لبان لهم عكس ما اعتقدوه. ففـى روايـات زيـدان كـم هائـل مـن الـدجل والتـزييف والتحـريف وقلب الحقائق وكثرة الأخطاء.

إن الصدق التاريخـى والدقـة التاريخية والأمانـة التاريخية التى توهمها هؤلاء الدارسون فى روايات زيدان تقتضى من بين ما تقتضى :

١ - الالتزام بالحقائق التاريخية الثابتة، وعدم الكذب والدجل والخداع والتحريف بتغييرها وقلبها، وعدم التسامح والتساهل فى التقيد بما ورد فى كتب التاريخ.

٢ - الاعتماد علـى الروايات المتفق عليها بالإجماع عند المؤرخين، أو الـروايات المشـهورة المـتداولة فـى كـتب الـتاريخ، فـلا يصـح الاعـتماد علـى الـروايات المشكوك فى صحتها، ولا على الروايات الضعيفة.

---

(١) ينظر مثلا: تطور الرواية العربية الحديثة: ص ١٠٢ .

٣- الاعتماد على كتب التاريخ المعول عليها، لكى تكون مثل الأشخاص والواقعات فى الرواية التاريخية على النحو الذى وردت به فى هذه الكتب، لا بتغيير ملامحها ومعالمها المعروفة فى هذه الكتب.

٤- وبالنسبة للتاريخ الإسلامى بالذات يشترط المحافظة على الصورة المثلى للأحداث والشخصيات، بمعنى أنه لا يصح تشويه التاريخ الإسلامى ولا النيل من أعلامه لشيء فى النفس، ولا السخرية بنصوصه ورموزه.

٥- عدم الوقوع فى الأخطاء التاريخية التى ينجم عنها تحريف الحقيقة، وقلب الواقع، ولو كان ذلك على سبيل السهو، فما بالنا لو كان ذلك عن عمد ومسبوقاً بإصرار عليه.

٦- عدم التلاعب بالمصادر والمراجع، والالتزام بالأمانة التامة فى النقل عنها.

هذه هى بعض مقومات الصدق التاريخى التى ينبغى أن يلتزم بها المؤرخ المحض، وكاتب الرواية التاريخية .. فهل تحققت هذه المقومات فى روايات زيدان ؟ نبدأ الإجابة على هذا السؤال بذكر الأمثلة التالية:

* فى رواية (غادة كربلاء) يحرف الكلم عن موضعه، فيقول على لسان الصحابى الجليل (حجر بن عدى) : "اتركونى أتوضأ وأصلى ... فإنى ما توضأت ولا صليت"[(١)]. والمراجع كلها ومن بينها تاريخ ابن الأثير الذى نقل عنه زيدان تقول حرفياً : "فإنى ما توضأت إلا صليت"[(٢)]، وشتان شتان بين العبارتين، فما قاله زيدان يجعل حجرا كافرا "ما توضأ ولا صلى"، والثانية هى حقيقة حُجْر، منتهى الإيمان "ما توضأ إلا صلّى"!!

* ومن شواهد تحريفه للكلم عن موضعه ودسه الرخيص قوله فى رواية (فتح الأندلس) : " فلما عرض يوليان على موسى فتح الأندلس، ويكون هو عوناً له فى ذلك، بعث موسى إلى الخليفة الوليد يستأذنه، فأذن له على أن يخوضها بالسرايا، ولا يغرِّر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال فرأى موسى أن يجرِّب ذلك برجال من الموالى المسلمين غير العرب، يرسلهم لفتحها، ولم ير

---

(١) الرواية : ص٤٤ طـ دار الهلال ١٩٨٤.

(٢) ينظر على سبيل المثال : طبقات ابن سعد، ترجمة حجر بن عدى.

خيرا من طارق يوليه قيادة تلك الحملة، فأعدَّ سبعة آلاف من الموالى والبربر وفيهم بعض العرب، وسلَّم قيادتهم إلى طارق، وأمره أن يعبر بهم بحر الزقاق إلى الأندلس"[1].

"والجدير بالذكر، أن جملة : "ولا يغرِّر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال"، أوردها المورخ ابن الأثير فى الجزء الرابع وذكر ابن الأثير أن ذلك كان سنة ٩١هـ وان موسى ارسل "طريفا" فغزا جزيرة سُميِّت باسمه، ثم ارسل طارقا، فيكون كلام زيدان : "فرأى موسى أن يجرِّب ذلك برجال من الموالى المسلمين غير العرب يرسلهم لفتحها"، كلام لا صحةَ له، وهو يظهر أن العرب طبقة متميزَة فوق الموالى البربر. مع أن الإسلام سوَّى بين الجميع، وجعل التقوى اساس المفاضلة، بغضِّ النظر عن الجنس، على ان جملة الخليفة الوليد : "ولا تغرِّر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال". لا تعنى التجريب برجال من الموالى غير العرب، لقد حدَّد الخليفة حرصه على المسلمين عامة، ولم يحدد حرصه على العرب فقط دون غيرهم"[2].

ومن القصص الكاذبة التى يوردها زيدان فى رواياته : قصة ذكرها فى روايته (شارل وعبد الرحمن) هى : "أن امرأة شاهدت فى الدير شابا مجنونا (سكنه شيطان)، فسألت عن قصته، فقال رئيس الدير : اعلمى يا ابنتى أن هذا الشاب من جملة الأفرنج الذين تجندوا لمحاربة أولئك العرب، حين بلغهم إقدامهم على فتح هذه البلاد، وكانت له والدة لا يعرف من الأهل سواها، ولا هى ترجو سواه، فتركها فى بيتها وسار إلى الحرب، فاتفق فى اثناء غيابه ان جاء المسلمون إلى ذلك البلد، ونهبوا بيت المرأة، وساقوها فى جملة السبايا الى قلعتهم فى تلك المنطقة، فلما عاد الشاب إلى بلده وأخبروه بما حدث لأمه، ساق جواده إلى تلك القلعة ومعه جماعة من الرفاق، فأطلَّ على القلعة وكانت موصدة، فأشرف عليه أحد المسلمين من فوق السور وسأله عن غرضه، فقال له : أطلب والدتى فإنها أسيرة عندكم، فأجابوه : لا نرد لك أمك إلا إذا أعطيتنا الجواد الذى تركبه، وإلا فإننا نذبحها أمام عينيك، فغضب - واسمه داتوس - لذلك غضبا شديدا، وقال لهم : لا أعطيكم، وافعلوا بوالدتى ما تشاؤون، قال ذلك

(١) الرواية : ص١٩٦ ط دار الهلال ١٩٨٤.
(٢) جرجى زيدان فى الميزان : ص١٢١.

وهو يظن أنهم يخوّفونه بتهديده بقتلها، وأنهم لا ينوون إعدامها فعلاً، ولكنه ما لبث أن رآهم احتزوا رأسها ورموه إليه وهم يقولون : هذه والدتك فإليك هي، فلما رأى والدته صعد الدم إلى رأسه، وغاب عن رشده، ولما عجز عن الوصول إلى القاتلين لتحصّنهم وراء الأسوار، جعل يلطم وجهه ويصفّق ويبكي ويركض فرسه يميناً وشمالاً كالمجنون، ثم انقطع عن أصحابه وأقام عندنا وقد قص عليّ خبره، فاعتقدت من ذلك الحين أن العرب أهل ظلم وعسف، لا دين عندهم ولا رحمة"!(1).

ومما يدل على أن هذه القصة غير صحيحة، وأنها من اختراع ودجل زيدان :

١- أن دستور الحرب عند المسلمين الفاتحين كان يقوم على قواعد عديدة منها "لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة".

٢- أن زيدان لم يحدد لنا اسم البلد الذى وقعت فيه هذه القصة، وأن المسلمين لم يكن لهم قلاع ولا حصون قرب (بواتيه) فى فرنسا ! وهل يعقل أن يخاف المسلمون من الخروج إلى ذلك الإفرنجى وهو قلة مع رفاقه ؟ ولماذا يذبحون أمه إن لم يعطهم الجواد ؟ ماذا خسروا بعدم إعطائهم الجواد لتذبح وتعاقب؟! ثم إن كلمة (نهبوا) ووصف العرب بأنهم أهل ظلم وعسف فى تلك القصة المفتراة تدل على نفسية ناسجها الحاقد على المسلمين، المفترى على تاريخهم وأخلاقهم الكريمة فى الحرب وفى السلم معاً.

والقسم الأكبر من روايته (شارل وعبد الرحمن) تدور أحداثه فى الأديرة، ويتكرر فيه تقبيل يد الرهبان للتبرك بهم، وذكر حقوقهم من الإحترام والتقديس(2). هذا فى الوقت الذى لم يذكر القرآن الكريم فى الرواية إلا مرة واحدة(3)، وكأنه كتاب عادى، لا علاقة للمسلمين الفاتحين به. وهو لا يكتبه إلا

---

(١) الرواية : ص١٦٢، ١٦٣ - وقد أشار زيدان فى هامش ص١٦٣ إلى أنه نقل هذه القصة عن (ريو) !

(٢) ينظر : الرواية صفحات ١٥٧، ١٥٨، ١٦١، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٨٧، ٢٨٩.

(٣) ينظر : الرواية ص٣٢٦.

بلفظة (القران) غير متبوعة بالوصف اللائق به (كريم – عظيم – شريف)؛ بل إنـه يذكـر أن المسلمين اجتمعوا للصلاة وتـلاوة آيـات القرآن، قبيل المعركة مباشرة[١]، ثـم يقول بعد ذلك : إنهم لم ينتصروا وهزموا فى (بواتييه)[٢]، وكأنه يقول : إن قراءة القرآن الكريم وأداء الصلاة لم تنفع المسلمين بشيء فى ميدان القتال. وفـى هذا مـا فيه من الدس الرخيص لإظهار عدم جدوى الصلاة وتلاوة القرآن الكريم فـى المواقف الصعبة! علـى أنـه يقوى دسـه الرخيص بقوله عن شارل وهو يبحث عن عبد الرحمن الغافقى ليبارزه : "فأقبل شارل على جواده، كأنـه جبل .... وعلى رأسه خوذة فى قمتها صليب ...... وقد رفع بيمناه دبوسا من حديد علـى شكل الصليب، وأمسك بيسراه رايـة عليها رسم الصليب .... رسم السيد المسيح مصلوباً !!!!"[٣].

* وفـى روايته (عروس فرغانة) يقول كاذبا : "وكان المعتصم قد بنى مسجداً فـى سـامرا، وبالـغ فى اتقانـه علـى شكل لـم يسبق لـه مثيل فـى الإسلام. فجعل جدرانـه ومحرابه من مرايا حتـى إذا وقف الخليفة للصلاة رأى من يدخل المسجد من خلفه"[٤]. ويقول علـى لسـان حمـاد عن المعتصم : "جعلنى سادن الكعبة التـى أنشـأها فى سـامرا ليحول المسلمين عن كعبة مكة ويذهب بما بقى للعرب من مصـادر الرزق حتى يميت عرب الحجاز. لأنهم يرتزقون من الحجاج فأنشـأ الكعبة فـى سامرا ليغنى المسلمين عن الحجاز فقطع ضرغام كلامه قائلاً : "ولكنه لـيس أول من فعل ذلك من الخلفـاء أو الأمـراء فقد حـاول ذلك الحجاج والمنصور ولم يفلحا"![٥].

والواقـع أنـنا نتسـاءل فـى استنكار : "كـيف يبنـى المنصـور والمعتصـم كعبتـين؟ وكـيف يحـاولان تحـويل المسـلمين عـن قبلـتهم وشـعائر حجهـم وهمـا عربيان مسلمان، وابنا عم النبى (ﷺ)، ومن الخلفاء المسلمين فـى أمته وشريعة الله التى أنزلت عليه؟!!.

---

(١) ينظر : الصفحة نفسها.
(٢) ينظر : ص٣٣٠، ٣٣١.
(٣) ص ٣٢٩، ٣٣٠.
(٤) الرواية : ص١٥١. ط دار المعارف للطباعة والنشر سوسة. تونس.
(٥) الرواية : ص١٦٤ .

إن الدعوة العباسية – مع قرب عهد الناس فيها للإسلام – لم تقم إلا بإظهار الدفاع عن حوزة الإسلام، وتجديد شريعته وشعائره، فكيف يقع ذلك منهما؛ بل من المنصور وهو الذى حمل علماء المسلمين فى جميع بقاع الأرض على تدوين علوم الكتاب والسنة، فكان عهده مبدأ لتدوينها بإجماع المؤرخين..؟!!

ولو كان ما ادعاه زيدان صحيحاً، فما الذى حمل المنصور على الحج إلى مكة وترك كعبته، حتى توفى فى طريق مكة على أميال منها محرماً ناسكاً؟! بالإضافة لما اشتهر عن المنصور من الزهد وتشدده فى أمر الدين، فالرجل مؤسس ملك واشتدت وطأته على أعدائه، فأشاعوا عليه هذا العمل ليصرفوا الناس عنه، كما صرفوا عن بنى أمية بمثل ذلك وأنهم هدموا الكعبة"[1].

وفى روايته (عروس فرغانة) أيضاً :

قال عن الخُرَّمية : "وهى جمعية سرِّية قامت على مقاومة أصحاب السيادة، وزعيمها فى ذلك العصر بابك الخرَّمى صاحب أردبيل، وكان الخرمية يسعون فى تأييد سلطته سراً..."[2].

"بينما الخرَّمية : طائفة فارسية أسسها مزدك فى أيام قباذ أبى كسرى الأول (كسرى أنو شروان). وقد نشأت من طائفة الخرمية المزدكية طائفة الخرمية البابكية التى تنسب إلى بابك الذى ادعى الألوهية.

ومن أهم مبادئ الخرمية تحويل الملك من العرب المسلمين إلى الفرس والمجوس، وهم بذلك أثاروا حرباً شعواء على الإسلام والعرب، واحتالوا فى إزالة الملك عن العرب إلى العجم، فموَّهوا هذه النحلة، وزينوها للجهال، ودعوا إليها فى السر، ومحصول أمرهم التعطيل والإلحاد، ومن مبادئهم تألية البشر .. كما رفضوا جميع الفروض الدينية، وأباحوا لأنفسهم شرب الخمر، ونادوا بإباحة المحرمات والاشتراكية فى النساء[3]. !!

---

(١) جرجى زيدان فى الميزان : ص٢٠٦.
(٢) ينظر : الرواية : ص٢٣٢.
(٣) للتوسع : ينظر : تاريخ الإسلام : ١٠٨/٢ وما بعدها.

هذه الطائفة وبهذه المبادئ .. أخذ جرجي يمجدها ويثني عليها وجعلها "جمعية سرية قامت على مقاومة أصحاب السيادة"، هذا القول أين سنده، أين دليله، أين مرجعه ؟!! لا أحد يدري"[(١)].

* وزعم في روايته (أحمد بن طولون) أن المسلمين في مصر اغتصبوا من النصارى بعض كنائسهم، وحولوها إلى مساجد ليصلوا فيها![(٢)]

وكثيراً ما يردد زيدان هذا الادعاء في رواياته، إذ تراه مثلاً يقول في روايته عن (عبد الرحمن الناصر) : "... ومن عجائب قرطبة مسجدها الشهير. ولم يكن في بلاد الإسلام أعظم منه، ولا أعجب بناء، وكان في مكانه كنيسة للنصارى، قاسمهم موضعها المسلمون عند الفتح، كما فعلوا بالجامع الأموي في دمشق!"[(٣)].

وواضح أنه بترديده لهذا الكلام يوحي للقراء بأن المسلمين يغتصبون أماكن الصلاة الخاصة بالنصارى! وأنكر زيدان ما عرف عن المسلمين الفاتحين من حمايتهم للكنائس وحرصهم على عدم هدمها أو أخذ أعمدتها وتحفها. وتناسى زيدان ما يعرفه النصارى قبل المسلمين مثلاً عن عمر بن الخطاب حين كتب لأهل إيلياء كتاباً أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، وكان مما كتبه : "أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها، ولا من صليبهم ولا من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود". وكان ذلك في سنة ١٥هـ[(٤)].

وبعد أن أعطاهم الأمان، وسار حتى دخل كنيسة القيامة، وحضره وقت الصلاة فيها، قال للبطريك : أريد الصلاة. فقال له : صل موضعك. فامتنع عمر، وخرج فصلى على الدرجة التي على باب الكنيسة منفرداً. فلما قضى الصلاة قال

---

(١) جرجي زيدان في الميزان : ص٢٠٤، ٢٠٥.
(٢) الرواية : ص١١.
(٣) الرواية : ص٧.
(٤) ينظر : تاريخ العالم الإسلامي للدكتور محمود زيادة : ١٦٦/٢، ١٦٧. ط دار الطباعة المحمدية - القاهرة - بدون تاريخ.

للبطريرك : لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدى، وقالوا : هنا صلى عمر[1].

* ويزعم زيدان فى روايته (فتاة القيروان) أن صاحب "سجلماسة" هو الأمير حمدون ! وأن لهذا الأمير المزعوم بنتاً اسمها (لمياء) أراد جوهر الصقلى أن يخطبها لابنه، ليكتسب ثقته، أو يتخلص من شره على الأقل ![2].

وصاحب سجلماسة – كما جاء فى كتب التاريخ العربية – هو محمد بن واسول، ولم يذكر ابن الأثير فى كتابه (الكامل فى التاريخ) أن لمحمد بن واسول بنتاً شغلت بال جوهر الصقلى كما يدعى زيدان !

فانظر إلى تزييف التاريخ وإلى الخيال ما يصنعان ؟ وما قيمة هذه الرواية إذا علمنا أن "المياء" خيال فى خيال ؟! وما قيمة الأحداث التى ذكرت فيها ؟!

لقد زيف زيدان التاريخ من أجل شيء واحد، هو القصة الغرامية التى تخيلها بين الحسين بن جوهر الصقلى، ولمياء (فتاة القيروان) ابنة ذلك الحاكم المتخيل لسجلماسة !!

هذا وقد احتوت هذه الرواية على شاهد آخر لتحريف زيدان لحقائق التاريخ، فقد ادعى أن محمد بن عبد الله بن الحسن المثنى بايع أبا جعفر المنصور، ثم نكث فى البيعة، الأمر الذى دفع أخاه إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى إلى الفرار إلى مصر، ومصر يومئذ فى حوزة العباسيين! وأقام إدريس فى مصر، متخفياً ثم وافاه بعض الشيعة سراً، وكان من بينهم صاحب البريد، فحمله إلى المغرب، حيث رحب به الشيعة هناك وبايعوه، فأنشأ له دولة فى مراكش عرفت بالدولة الإدريسية[3] وكان ذلك فى عهد الرشيد ![4]

والحقيقة التاريخية قبل هذا التحريف تنص على أن سبب ذهاب إدريس إلى مصر ليس ما أدعاه زيدان بل هرب رجلان بعد موقعة (فخ) التى وقعت فى

---

(١) ينظر : السابق ص١٦٧.

(٢) الرواية : ص١٧ وما بعدها ط دار الهلال ١٩٨٤م.

(٣) هو إدريس بن عبد الله بن الحسن بن المثنى بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه – وتحريف زيدان موضعه فى الرواية : ص ٥ ط دار الهلال ١٩٨٤.

(٤) الرواية : ص ٥.

عهد الخليفة العباسى الهادى، أولها يحيى بن عبد الله بن الحسن الذى ثار فى بلاد الديلم فى عهد الرشيد، وثانيهما أخوه إدريس بن عبد الله الذى نجح فى إثارة أهل المغرب الأقصى على العباسيين.

يقول السلاوى :

"أما إدريس فإنه فرَّ من الواقعة المذكورة، ولحق بمصر وعلى بريدها يومئذ واضح مولى صالح بن المنصور، ويُعْرَف بالمسكين، وكان واضح يتشيّع لآل البيت، فعلم شأن إدريس وأتاه إلى الموضع الذى كان مستخفياً به، ولم ير شيئاً أخلص له من أن يحمله على البريد إلى المغرب ففعل، ولحق إدريس بالمغرب الأقصى هو ومولاه راشد، فنزل بمدينة "وليلى" سنة اثنتين وسبعين ومائة، وبها يومئذ إسحاق بن محمد بن عبد الحميد أمير "أوْرَبَة" من البربر والبرانس، فأجاره وأكرمه، وجمع من البربر على القيام بدعوته، وخلع الطاعة العباسية، وكشف القناع فى ذلك. ولم يلبث إسحاق أن جمع عشيرته وذكر لهم نسب إدريس وقرابته من الرسول (ﷺ)، وأطنب فى فضله ودينه وعلمه، فبايعوه فى ٤ رمضان ١٧٢هـ، فقويت شوكته وامتدت رقعة بلاده حتى شملت الأراضى التى تقيم فيها قبائل زناته غربى القيروان إلى المحيط الأطلسى، وتشمل المغرب الأوسط والأقصى"[(١)].

فليس للمنصور إذن علاقة بهذا الأمر !

على أن زيدان لم يذكر المرجع الذى ذكر نكث المنصور لعهده مع إدريس، ثم هل كان نكث العهد إن وجد طبعاً، سبباً لهروب إدريس إلى مصر أم معركة "فخ" أيام الهادى؟!

* ويدعى زيدان فى روايته (صلاح الدين) أن الدين للعامة.

يقول : "ولا تجد شيئاً يستهوى العامة مثل الدين"[(٢)].

---

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى : ٦٧/١.

(٢) الرواية : ص٦٢.

وأعتقد أن هذا الادعاء غنى عن التعليق، فإن كان لابد من التعليق عليه ولو بكلمة اكتفيت بقولى : إن فى عبارة زيدان من الدلالة على موقفه من الأديان ما هو ظاهر وجلى، لا يخفى على أحد.

وزيدان فى هذه العبارة يكرر عبارة لينين الشهيرة (الدين أفيون الشعوب) بصياغة جديدة !!

لقد حيرنى أمر هذا الإنسان : أهو مسيحيو الديانة ؟ أو ماسونى النزعة؟ أو ما تشير إليه عبارته السالفة ؟!

العلم عند الله وحده !!!

أما مبلغ علمنا عنه – وفق الظاهر – فهو مسيحي من لبنان هاجر إلى مصر.

* وفى روايته (شجرة الدر) تحدث مرة أخرى – كما تحدث فى روايته عن (العباسة) حديثاً يؤكد به رأيه فى البرامكة، ومما قاله فى هذا الموضوع : "... إنى أشير إلى ما فعله الرشيد بجعفر .. ألم يقتله ويقتل البرامكة؛ لأنهم شيعة؟"[1] مع "أنهم أصحاب الفضل الأول فى الحضارة العباسية"[1].

والحقيقة : أن البرامكة زنادقة فرس، ولم يكونوا فى يوم من الأيام شيعة!

هذا وقد ادعى زيدان فى هذه الرواية أن بيبرس قد توجه إلى (بغداد)؛ لكى يرجع حبيبته التى تخيلها زيدان إلى حوزته مرة أخرى، وكانت بغداد يومئذ محاصرة من التتار[2].

والواقع : أننا لم نظفر فى كتب التاريخ جميعاً على ما يؤكد هذا الادعاء الزيدانى، فركن الدين بيبرس لم يزر بغداد يوماً، لا قبل الحصار ولا بعده، ولا أثناءه !

* وفى روايته (الأنقلاب العثمانى) :

---

(١) ينظر : الرواية ص ١٥٣ ط دار الهلال بدون تاريخ.
(٢) ينظر : الرواية ص٢٥٩ وما بعدها.

يسمى يهود الدونمة "أحرارا". ويسمى جمعيتهم بجمعية "الاتحاد والترقى المقدسة". ويعترف بأنهم "ماسونيون" حيث يصف محفلهم، ويتكلم عن أهداف الماسونية موضحا أنها: "نيل الدستور، وإنقاذ الدولة من الدمار بالطرق السليمة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا"[1].

وهذا دجل وكذب إذ كان هدفهم الوصول إلى هدم الدولة العثمانية ليصلوا إلى فلسطين كوطن قومى لليهود !؟!

* وفى روايته (أسير المتمهدى) نجد ما سماه (سورة المبايعة)، وهذا هو نصها فى ثنايا السياق الذى أوردها فيه :

وقف أحد الخلفاء – خلفاء المهدى – يلقّن الأسرى سورة المبايعة، وهم يرددونها بعده، حانين رؤوسهم إجلالاً، وهى : "بسم الله الرحمن الرحيم، بايعنا الله ورسوله ومهديه، بعنا أرواحنا وأموالنا وعيالنا فى سبيل الله، فلا نهرب من الجهاد، ولا نزنى، ولا نسرق، ولا نشرب الخمر، ولا نعصيه فى معروف"[2].

قد تكون هذه صيغة مبايعة كتبها محمد أحمد المهدى زعيم الثورة المهدية فى السودان ليبايعه بها أنصاره. ولكن أن يسميها زيدان سورة المبايعة فهذا دس رخيص قد يفهم منه قارئ الرواية العادى بأن هناك سورة فى القرآن الكريم تسمى سورة المبايعة !!

* وفى روايته (المملوك الشارد) يذكر ما سماه (الآية الذهبية)!

ولم يمر على المسلمين فى جميع أنحاء الأرض آية بهذا الاسم؛ ولا أدرى أنا ولا غيرى، ولا زيدان الذى اخترعها تلفيقا وبهتانا ما مصدر هذه الآية الذهبية ؟!!

وفى روايته (فتاة غسان) يعبث عند ذكره لفتح مكة المكرمة بالنص المشهور لرسول الله (ﷺ) : "من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن دخل

---

(١) ينظر : الرواية ص١٣، وما بعدها. ط دار الهلال ١٩٨٥ – والحديث عنهم هو الغالب على صفحات الرواية.

(٢) الرواية ص١٧٢، ١٧٣.

المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن" [١] حيث أضاف عبارة (من سيوف المسلمين) بعد لفظة (آمن) [٢]! وأخفى زيدان – بالطبع – عهد الرسول (ﷺ) إلى أمراء الجيش عند دخول مكة : "أن لا يقاتلوا أحدا إلا من قاتلهم"[٣].

ويقوم زيدان أحياناً بتغيير أمور تاريخية أجمعت عليها مصادر التاريخ– الأمر الذى يدل على أنه يعبث بالتاريخ من ناحية ويأتى بما لا يلائم طبيعة الرواية من ناحية أخرى.

مثال ذلك : أنك تراه فى رواية (فتح الأندلس) يذكر من بين ما يذكر قصة بنت يوليان حاكم سبتة التى تذكر المصادر العربية أن أباها كان قد أرسلها إلى قصر لذريق، حتى تتأدب بأدب بنات الملوك، ولكن الملك القوطى استهام بها فانتهك شرفها، وكتبت هى إلى أبيها بخبرها، فلحفظه ذلك على لذريق.

لقد رددت المصادر العربية هذه القصة، وعنها نقلها الأسبان، وأصبحت فلورندا (أولاكافا كما سميت عندهم أيضاً) محوراً لكثير من القصائد الملحمية الشعبية الأسبانية، ومن أبرزها (قصيدة لذريق آخر ملوك القوط)، واستوحى منها كثير من الشعراء الأسبان ومؤلفيهم المسرحيين على امتداد العصور عدداً جد كثير من الأعمال الأدبية.

لم يتابع زيدان الروايات العربية ولا الأسبانية التى أجمعت على أن لذريق انتهك شرف الفتاة فعلاً، وذكر أن لذريق همّ بها ولم يفعل !

ولم يكن هذا التغيير الذى قام به ضرباً من العبث بالتاريخ فحسب؛ وإنما كان غير ملائم لمأساوية القصة أيضاً ؛ لأن اعتداء لذريق على الفتاة – بدون شك – أكثر ملاءمة لتلك المأساوية، إذ هو يستثير أحاسيس الشفقة والعطف على الفتاة، كما يستثير فى الوقت ذاته مشاعر الكراهية والسخط على الملك القوطى الذى ارتكب هذه الجريمة الشنيعة.

---

(١) ينظر : السيرة النبوية لابن هشام: ١٦/٣ مكتبة التراث الإسلامى – حلب.
(٢) ينظر : الرواية : ٣٠٥/١ ط دار الهلال ١٩٨٣.
(٣) ينظر : السيرة النبوية : ١٩/٣.

وتجدر الإشارة – فى هذا الصدد – إلى أن الطعن فى أمانة زيدان التاريخية قد امتد من رواياته التاريخية ليحوم حول مؤلفاته غير الروائية فى التاريخ.

فعلى سبيل المثال قال أحمد السكندرى :

"كان هذا الفاضل يؤلف الكتب الروائية، ويأتى فيها بالممكن والمستحيل، والمستملح والمستنكر؛ فكنا لا نتعرض لها بمسخ أو نسخ؛ لعلمنا أن الذى قاده إلى هذه المواقف هو استرسال الخيال، وهو قد يفضى بصاحبه فى النثر إلى مثل ما يفضى به فى الشعر، فيكون أعذبه أكذبه، ولاعتقادنا أن نفعها أكبر من إثمها، وأن الكتب العربية الصحيحة لا تزال بعد منتشرة فى جميع أرجاء العالم، ناطقة ببيان الغث من السمين، والصحيح من الباطل، على أنه ما من كتاب وضعه بشر إلا وكان فيه لهوى النفس والسخائم الدينية والعصبية والجنسية؛ بله الخطأ والغفلة أثر أى أثر إلا ما شذ وندر"[1].

وعلى سبيل المثال – أيضاً – اتهمه الدكتور محمد حسين هكيل فى (الجريدة) سنة ١٩١٢ بالبعد عن صفات المؤرخ، حيث قال : "…. زيدان كان أحرى الناس – على سعة معارفه التاريخية - بأن يختط هذه الطريقة، ويرمى لهذا الغرض. وأول المطلوب من المؤرخ الذى يرمى لهذا الغرض أن يتحرى فى التاريخ الذى يكتب كل دقيقة وجليلة، وأن يفسر الحوادث بالدقة والضبط. وقد رأينا أن صاحب (تاريخ آداب العرب) لم يقم بذلك على الوجه الأكمل"[2].

كذلك اتهمه هيكل مرة أخرى بأنه "لم يدخل إلى روح العرب لكى يستطيع أن ينشرها أمام نظره ويفتش فيها ويعرف دقائقها…"[3].

وانتقد المصلح الهندى الشيخ شبلى النعمانى كتاب زيدان المعنون بـ(تاريخ التمدن الإسلامى) فاتهمه بالكذب فى رواية الحوادث، والخطأ المقصود

---

(١) من مقاله الذى نقد فيه كتاب زيدان الموسوم بـ(تاريخ العرب قبل الإسلام) وقد نشر المقال فى مجلة (المنار) يوم ١٠/٢٥ ؟ ص٦٨١ وينظر : نقد طه حسين لكتاب زيدان الموسوم بـ (تاريخ آداب اللغة العربية) وهو منشور فى مجلة الهداية : الجزءان السادس والسابع يونيو / يوليو سنة ١٩١١م.

(٢) فى أوقات الفراغ لمحمد حسين هيكل : ص٢٣١ الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٦٨.

(٣) السابق : ص٢٣٢.

فى الاستنتاج. على أنه قد اتهمه بالشعوبية، وبالخوض فى أمور إسلامية لا يحسن الخوض فيها. واتهمه بأنه يعمل على تحقير الأمة العربية وإظهار مساويها[1].

والخلاصة : أننا لو رحنا نعدد أمثلة عدم أمانته التاريخية، واعتماده على الروايات الضعيفة، وتشويهه لحقائق التاريخ الثابتة، لكتبنا فى ذلك كتابا ضخماً !

ولكن حسبك من القلادة — هنا — ما أحاط بالعنق كما يقولون.

وبعد :

فهذا غيض من فيض اخترناه من عدة روايات ليكون أدلة واضحة على ابتعاد زيدان فى مواقف كثيرة عن الحقيقة التاريخية، وعلى عدم اتسام رواياته بالصدق التاريخى فى مواضع كانت تستوجب منه أن يلتزم بالحقيقة وبالصدق، ما دام يهدف — كما كان يدعى — أنه يؤرخ للإسلام، ويعلم هذا التاريخ للناس!

---

(١) نشرت مجلة المنار هذه الاتهامات والانتقادات فى سلسلة من المقالات سنة ١٣٣٠ هـ/ ١٩١٢م.

شمول روايات زيدان على أخطاء ومغالطات تاريخية

يعد شمول روايات جرجى زيدان على العديد من الأخطاء والمغالطات التاريخية المتعمدة لهوى فى نفسه من أبرز الظواهر السلبية والخطيرة التى يقف عليها أى دارس مدقق لتلك الروايات من الوجهة التاريخية.

وفيما يلى بعض نماذج من هذه الأخطاء مصحوبة بالتصويب والتصحيح لكل خطأ. ثم نردّ بعد ذلك على بعض من حاولوا تبرير وقوعه فى هذه الأخطاء.

من أخطائه التاريخية قوله – مثلاً فى المشهد المعنون بـ"وقعة اليرموك" فى روايته فتاة غسان: "ولما تكامل جمع المسلمين فى اليرموك بلغ عددهم ستة وثلاثون ألفاً منهم تسعة آلاف بقيادة خالد، فيهم ألف من الصحابة، من جملتهم مائة ممن شهدوا وقعة بدر الكبرى، ومن قوادهم : أبو عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة وأبو سفيان بن حرب، وكانت الحرب بينهم وبين الروم قبل قدوم خالد تساندا، أى كل أمير على أصحابه لا يجمعهم أحد"(١).

والحقيقة التاريخية أن أبا سفيان بن حرب لم يكن أحد هؤلاء القواد الأربعة الذين عددهم، وإنما الرابع هو (يزيد بن أبى سفيان).

يقول الدكتور محمود محمد زيادة : ".... سارت الجيوش الإسلامية حتى وصلت الشام، ونزلت الأماكن التى عينت لها، فنزل عمرو بن العاص العربة، ونزل أبو عبيدة الجابية .... ونزل شرحبيل الأردن، ونزل يزيد بن أبى سفيان البلقاء"(٢). وجاء خالد فوجد المسلمين يقاتلون الروم متساندين يصلى

---

(١) الرواية : ١٥٦/٢ ط الهلال ١٩٨٣، وينظر أيضاً ص ١٦٠.

(٢) تاريخ العالم الإسلامى، د/ محمود محمد زيادة : جـ٢ (خاص بالخلفاء الراشدين) ص٩٥.

كل أمير بجنده على حدة، فعسكر هو أيضا على حدة وصلى بجنده، وبدأت مناوشات كان الظفر فيها للمسلمين"(١).

على أن زيدان ذكر أن عدد المسلمين فى واقعة اليرموك ست وثلاثون ألفاً وأشار فى الهامش(٢) إلى أنه نقل هذا عن ابن الأثير! والغريب أنه فى كتابه (تاريخ التمدن الإسلامى) ذكر وهو يتحدث عن هذه الواقعة أن عدد المسلمين يومئذ كان خمسين ألفاً، وأشار فى هامش الصفحة التى ورد فيها هذا إلى أن أقرب الآراء إلى الصحة هو أن عدد المسلمين كان خمسة وعشرين ألفاً(٣).

ومعنى هذا أنه تناقض مع نفسه، ولم يلتزم بذكر العدد الذى أشار إلى قربه من الصحة. فلا هو الذى ذكر العدد الذى رجحه، ولا ذكر أحد العددين اللذين جاءا فى روايات أخرى يقول بعضها : إنهم أربعون ألفاً، ويقول بعضها إنهم ستة وأربعون(٤).

ثم إن زيدان لم يقف عند الخطأ فيما سبق ذكره، بل راح يزيف ويكذب بادعائه أن أبا سفيان بن حرب - الذى وضعه فى الرواية مكان يزيد بن أبى سفيان - قال - قبيل اليرموك -:

"يا مشيخة قريش ومهاجرى الفتح الذين هاجروا يوم فتح مكة وأسلموا. لا يهمنا من هذه الحرب إلا الانحياز إلى الغالب، فإذا غلبت الروم كنا معهم، وإذا انتصر المسلمون فإننا معهم !"(٥).

وواضح أن زيدان يوحى بدجله وتزييفه هذا إلى القارئ بأن قريشاً وأبا سفيان يومئذ ليسوا من المسلمين !!

ومن نماذج قلب زيدان للحقائق التاريخية الثابتة : ادعاؤه أن يزيد بن معاوية مات قتيلاً ! جاء هذا الادعاء فى خاتمة روايته (غادة كربلاء) حيث يقول : "ونظر إليها عبد الرحمن نظرة المحب المفتون، وقال : لا أدرى كيف

---

(١) السابق : ص٩٩.

(٢) ينظر : الرواية هامش ص١٥٦ جـ٢.

(٣) ينظر : تاريخ التمدن الإسلامى لجرجى زيدان : ٧٨/١ وهامشها طـ دار الهلال مراجعة د/ حسين مؤنس - بدون تاريخ.

(٤) ينظر : تاريخ العالم الإسلامى، د/ محمود زيادة : ٩٩/٢.

(٥) رواية (فتاة غسان) : ١٦٠/٢ ط الهلال ١٩٨٣.

أبدى لك حبّى ؟ وقد أحرزت أشرف خلال النساء، وأندر خلال الرجال، فجمعت بين الجمال والوقار والحكمة والعقل والشجاعة.. وحسبك أنك قتلت ذلك الدعىّ – يعنى يزيداً – وأنقذت المسلمين من ظلمه، وانتقمت لأبيك انتقاماً عجزنا كلنا عنه"[(١)].

والحقيقة : أن يزيد توفى سنة ٦٤هـ/ ٦٨٣م، وكانت وفاته طبيعية لم يقتله أحد ![(٢)]

وفى مطلع هذه الرواية أيضاً ذكر أن فتح مكة وإسلام أبى سفيان كانا سنة ٧هـ ![(٣)] والثابت تاريخياً أن ذلك كان فى العام الثامن الهجرى[(٤)].

وفى روايته (أرمانوسة المصرية) : حديث مفصل عن عروس النيل التى تقدم ضحية له.

يقول على لسان مرقس : "لا فاضَ النيلُ ولا ارتوت الأرض إذا لم يكن ذلك إلا بهذه الطريقة – طريقة ضحية النيل – اطمئنوا وألقوا الأمر علىّ، وأنا أنقذها، أين هى لأراها؟" ويقول مرقس : "ولكن ما هذه العادة القبيحة؟ وهل تظن النيل يعقل حتى يكون لهذه الضحية تأثير فى مجراه؟" فيجيبه قسيّس: "لا ياولدى إنها من العادات الوثنية التى تنفر منها أذواقنا، ويأباها الطبع ولا تسلم بها الديانة، بل تنهى عنها لأنها قتل للنفس"[(٥)].

لقد أراد جرجى أولاً أن يقول: إن الأقباط المصريين توصلوا بتفكيرهم قبل الإسلام إلى الإقلاع عن ضحية النيل، والحقيقة تقول: إن الذى منعها هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه[(٦)].

وفى روايته ١٧ رمضان يقول :

---

(١) رواية (غادة كربلاء) : ص٣٦٩ طـ الهلال ١٩٨٤.
(٢) ينظر : تاريخ الأمم والملوك للطبرى : ٣٨٣/٤ – القاهرة ١٣٥٧ هـ.
(٣) غادة كربلاء ص٥ طـ ١٩٨٤.
(٤) ينظر : السيرة النبوية لابن هشام : ٣/٤ طـ مكتبة التراث الإسلامى – حلب بتحقيق د/ محمد فهمى السرجانى.
(٥) الرواية ص ٩٠-٩٦، ص ١٠٠-١٠٤ والفصل بعنوان (الاحتفال بالضحية).
(٦) جرجى زيدان فى الميزان ص٥٤، ٥٥.

" .. خليج أمير المؤمنين وقد حفره عمرو ابن العاص لما فتح مصر منذ عشرين عاما لإرسال المؤونة فيه إلى الحجاز تلافيا لما كانوا يخافونه من القحط هناك، وكان قد حفره بإشارة الخليفة عمر بن الخطاب لما كانت الخلافة فى المدينة"[1].

"والحقيقة التاريخية تقول : خليج أمير المؤمنين، قناة قديمة تصل بين خليج السويس ونهر النيل، واسمها القديم منذ أيام الفراعنة : "سيزوستريس"، جددها المسلمون بتنظيفها وإصلاحها للتجارة العامة، ولإصلاح مشروع يجلب الخير العميم لمصر بإنعاش تجارتها وليس لنقل الخيرات إلى الحجاز .. أما نقل الطعام إلى الحجاز عام الرمادة، فهذا أمر طبيعى يحدث عالمياً فى كل عام بدافع انسانى بين دول عبر القارات، لا ضمن دولة واحدة أميرها عمر بن الخطاب رضى الله عنه"[2].

ومن الأخطاء التاريخية التى نعثر عليها فى رواية (غادة كربلاء) : ادعاؤه أن العباس بن عبد المطلب هاجر فى بدء الدعوة وظهور الإسلام إلى المدينة![3]

والحقيقة : أنه لم يهاجر، وبقى فى مكة حتى عام الفتح حيث علم بتحرك الرسول والمسلمين قاصدين مكة فرأى أن يهاجر ببنيه مسلمين؛ لكن ذلك لم يتحقق[4] . وادعى زيدان فى الرواية أيضا: أن بنى أمية وسائر قريش لم ينالوا من المناصب ما ناله المهاجرون الأولون !

والحقيقة أن أبا بكر جعل منهم يزيد بن أبى سفيان قائداً على جيش إلى الشام، وجمع لأخيه معاوية ما كان تحت يده، وزاد له "الشامات" كلها، فكيف يصح قول زيدان: " لم ينل بنو أمية وسائر قريش من المناصب ما ناله المهاجرون الأولون.."؟! ثم أليس المهاجرون الأولون من قريش ؟![5]

---

(١) الرواية : ص ١٣٥.
(٢) جرجى زيدان فى الميزان : ص٨٦.
(٣) الرواية : ص٥ ط دار الهلال ١٩٨٤.
(٤) ينظر : دراسات فى السيرة النبوية، د/ عبد الشافى عبد اللطيف وآخر : ص١٨٢.
(٥) ينظر : الرواية ص٦.

وفى الصفحة السابعة قال : أحزاب معاوية كلها من قريش – أهل البأس والشدة - ثم قال : "وهم جند الشام" .. وهذا خطأ تاريخى أيضاً، جند الشام ليسوا من قريش، وإن كان بعضهم بين هذا الجند.

ومن أخطائه التاريخية فى رواية (المملوك الشارد) ادعاؤه أن الشهابيين ينتسبون إلى قريش! [1]

والحقيقة أن بنى شهاب لا ينتسبون إلى قريش، فقد جاء فى (معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى) لزامباور ص١٦٨، ١٦٩ أنهم أمراء لبنان، ولم يرد فى شجرة نسبهم ما يفيد أنهم من قريش !

على أن زيدان قد زعم فى هذه الرواية أن الأمير بشير الشهابى زار مصر! والواقع : أن ذلك أمر مشكوك فيه، لأن هذا الأمير كان من رجال وأتباع أحمد باشا الجزار عدو المصريين! [2]

وزعم أيضاً أن هذا الأمير اجتمع مع (إبراهيم باشا) على أسوار (عكا) أثناء حصارها! [3] وهذا خطأ تاريخى أيضاً، "مع أن بشيراً شخصية انتهازية تمالئ الأقوى" [4].

كذلك ادعى أن حملة إبراهيم باشا إلى السودان كانت لإمداد إسماعيل !

والحقيقة التاريخية : أن إبراهيم باشا سار بحملة لتأديب (نمر) أمير شندى، الذى أحرق إسماعيل، أى حينما سار إبراهيم إلى السودان كان أخوه إسماعيل ضمن الأموات !! [5]

ومن أخطائه التاريخية المقصودة لسوء طويته وصفه للمسلمين فى روايته (شارل وعبد الرحمن)، بأنهم "ساروا كأنهم بحر يتلاطم بالأمواج"، بينما الفرنجة "كثيرون" [6] "والثابت تاريخياً أن المسلمين كانوا سبعين ألفاً، والفرنجة هم البحر المتلاطم بالأمواج، فكأنه لا يريد التماس عذر لانسحاب

---

(١) ينظر الرواية : ص٣، ٥.
(٢) ينظر : ص٦٦.
(٣) ينظر : ص١١٣.
(٤) جرجى زيدان فى الميزان : ص٣٠٢.
(٥) ينظر : ص٨٣.
(٦) الرواية : ص١١٣.

المسلمين فى بواتييه، فهم بحر يتلاطم بالأمواج، وعددهم أقل منهم عَدداً، وذلك ليؤكِّد الفخر للفرنجة بالنصر"[1].

يضاف إلى هذا أنه أقلم الرواية على خرافة، وجعل محورها على امرأة اسمها "المباجة" لها دور رئيسى فى مسار الرواية وأحداثها.

والمصادر العربية الإسلامية تقول :

تزعم الكتب الأفرنجية أن عثمان بن أبى نسعة الخثعمى قد أسر فى إحدى غزواته ابنة أودو دوق أكويتانية، وكانت رائعة الجمال، فهام بها وتزوَّجها، وتسمى تلك الكتب ابنة أودو أسماء مختلفة : نوميرانسة، مينين، لامباجية[2]، وكذلك تسمى تلك الكتب عثمان نفسه مونوسة، وتجعله من البربر.

وقالوا : فلما سكن عثمان إلى زوجته ترك الغزو، وأصبح ضلعه مع صهره أودو، ونذيراً إليه بتحرك الجيوش الإسلامية نحو بلاده، فيقال : إن عبد الرحمن الغافقى أرسل إلى عثمان من تغلّب عليه فقتله، وقيل بل قُتِل فى حادث آخر[3]، "ومع أن الغالب على هذه الرواية أنها موضوعة من أساسها، فإنها تدل على أن عبد الرحمن الغافقى لم يكن غافلاً عن بعث الطلائع قبل أن قام بهجومه الرئيسى"[4].

لقد نسجت الروايات الأوروبية الكنسيَّة حول مونوسة أوهاماً، ونحلت حولها تفصيلات لاستنتاج أمر، أو بناء أمور اتخذتها فيما بعد حقائق لا ريب فيها، وخلطت – كما جاء فى تاريخ غزوات العرب – بين مونوسة وعثمان بن أبى نسعة الخثعمى، أحد ولاة الأندلس لمدة خمس أشهر، ابتدأت من شعبان سنة ١١٠هـ، كل ذلك يجعل من مونوسة خرافة، وعلى الخصوص إذا علمنا أن مونوسة اسم لأرض، ففى البيان المغرب لابن عذارى : إن والى الأندلس غزا مونوسة[5]، وفى تاريخ ابن خلدون : غزا أرض مقوشة فافتتحها"[6].

---

(١) جرجى زيدان فى الميزان، شوقى أبو خليل : ص١٣٨.
(٢) تاريخ غزوات العرب، صفحة : ٨٧.
(٣) الإسلام فى الحوضين الشرقى والغربى، صفحة : ١٢٨.
(٤) دولة الإسلام فى الأندلس، جـ :١، ص : ٨١ – ٨٥.
(٥) البيان المغرب، جـ :٣، ص : ٢٨.
(٦) تاريخ ابن خلدون، جـ : ٤ ، ص : ٢٥٨.

ومما تقوله الرواية الأوروبية الكنسيّة : إن رجلاً من الجنس البربرى اسمه "مونوس Munus" ترامت إليه من حدود ليبيا "إفريقية" أخبار الظلم القاسى الذى كان يعانيه أبناء جنسه فى هذه البلاد، فصانع الفرنجة، وصاهر أودو من أقطانية، وأخذ يعمل على إيذاء العرب، أعداء أسبانية، ووثب بهم بالفعل، وأصبح فى حرب دائمة معهم، ولكن أنصاره كانوا على خلاف متصل معه، ولم ينهض عبد الرحمن الغافقى لحربه إلا بعد أن أرسلت نحوه حوالى عشر حملات، فنهض عبد الرحمن لمونوسة، وتتبعه، ففر إلى خوانق الجبال، وتحرج مركزه، وضيق المسلمون عليه الخناق وقتلوه، وقبضوا على زوجته وأرسلوها إلى بلاط الخليفة. وتفيض الرواية كما نسجتها وتخيلتها المراجع الأوروبية الكنسيّة بعدها بذكر أعمال العنف والاضطهاد التى أنزلها عبد الرحمن بحلفاء مونوسة من النصارى، وخاصة أهل شرطانية، وكيف أنه أحرق "أناباديوس" أسقفها بعد ذلك[1].

ويمكن تقديم سؤال واحد نترك إجابته للقارئ، ننهى به خرافة مونوسة "المباجة". لقد نصّت الرواية الأوروبية الكنسية على أن المسلمين قبضوا على زوجة مونوسة، وأرسلوها إلى بلاط الخليفة، أى إلى دمشق، على بعد آلاف الأميال عن الأندلس، آلاف الأميال عن أرض فرنسة، مسرح رواية زيدان فكيف رافقت مونوسة، أى لمباجة فى عرف زيدان الحملة مع الغافقى، لتعمل دسّاً وتخريباً ووقيعة، مع أنها فى بلاط الخليفة بدمشق، بحسب نص الرواية الأوروبية الكنسيّة؟!

وعلى أية حال فإن المؤلف يذكر فى الرواية أن هانئ (العربى) قائد الفرسان – وهو شخصية خيالية – أحبّ ربة الحسن والجمال والأنوثة مريم، أو "مغيم" بحسب قول زيدان، ونافسه على حبها بسطام "البربرى" – وهو شخصية خيالية أيضا – فتقتل مريم بسطاما لتتنعّم بحبيبها هانئ (العربى)، ثم ينافسه فى حبها القائد العظيم عبد الرحمن الغافقى !!

ويجعل زيدان لمباجة : [أدرى بجيش المسلمين من عبد الرحمن] هكذا وهى نصرانية تكيد للمسلمين، وهى عندهم فى معسكرهم لا يدرون طويتها، لقد

(١) القصة فى "فجر الأندلس" ص : ٢٥١ وما بعدها.

جعل زيدان التنافس بين العرب والبربر يمثله التنافس بين هانئ وبسطام، ثم جعل الغافقي يخفق قلبه لفتاة، فتشغله عن أمور الفتح والجيش كله.!!

وكل هذا مغالطات غنية عن التعليق(١).

ومن أخطائه التاريخية في روايته (عبد الرحمن الناصر) : هذه الرسالة: "من قسطنطين ورومانين المؤمنين بالمسيح، الملكين العظيمين ملكي الروم" في سطر - هكذا النص - ثم "إلى العظيم الاستحقاق والفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس أطال الله بقاءه" في سطر آخر(٢).

فهذه الرسالة لا أصل لها في المراجع التاريخية على الإطلاق. ناهيك عن عدم جرأة أي ملك أوربي في ذلك العهد على تقديم اسمه على اسم عبد الرحمن الناصر !

ومن الأخطاء التاريخية في رواية (صلاح الدين ومكائد الحشاشين : زعمه بأن (راشد بن سنان) صنع جنة مصغرة يُدْخِلُ إليها الحشاشون من يخدرونه، وفيها أنهار عسل ولبن وحور عين !

والحقيقة أن هذه الجنة المخترعة من صنع (الحسن بن الصباح)، صنعها بُعيد استيلائه على قلعة (ألموت) من نواحي بحر قزوين، وكانت في هذه القلعة، وتم عملها سنة ٤٨٣ هـ(٣).

وبدهي أن ما زعم فيها من أنهار عسل ولبن وحور عين من باب السذاجة والخيال السقيم، ولا يقدر على ذلك إلا رب العزة جل شأنه في الجنة التي أعدّها لعباده المتقين.

ومن الأخطاء التاريخية الفادحة التي وقع فيها عمدا ذكره لشخصية نسائية (هي ست الملك) ضمن شخصيات روايته (صلاح الدين) التي تختص بحقبة تاريخية معينة، وهي الحقبة التي عاش فيها العاضد لدين الله (تولى الخلافة ٥٥٥هـ وخلفه صلاح الدين ٥٦٧هـ) وعاش فيها المستضيء بأمر الله

---

(١) جرجي زيدان في الميزان : ص١٣٠ وما بعدها.
(٢) الرواية ص ٥٥.
(٣) الرواية - المشهد المعنون بـ(عند زعيم الحشاشين) ص١٤٩.

أحد الخلفاء العباسيين فى العراق، واشتهر فيها نور الدين محمود فى الشام، وصلاح الدين الأيوبى فى مصر.

هذه الشخصية النسائية المذكورة أوردها زيدان فى الرواية، وأسند لها أدواراً كبيرة فيها، بنى عليها الجانب العاطفى الغرامى الذى تخيله بين ست الملك هذه وبين عماد الدين (من خاصة صلاح الدين)، وينافسه أبو الحسن (محتال طامع فى الخلافة)، لكن ست الملك لا تحبه، وإنما تُبادل عماد الدين الحب والعشق.

وست الملك فى الرواية أخت للعاضد، ونالت من عناية المؤلف ما صارت به فى الرواية أهم من شخصية صلاح الدين الذى تحمل الرواية اسمه!

فإذا ما رحت تبحث وتنقب فى كتب التاريخ عن أخت للعاضد تسمى بهذا الأسم لم تجد شيئاً؛ بل تظفر بست الملك بنت العزيز بالله أخت الحاكم بأمر الله الفاطمى صاحب مصر، [1] والتى كانت من الفضليات الحازمات المدبرات، وماتت سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م، أى قبل قيام الدولة الأيوبية بزمن طويل، وقبل العاضد بكثير، فبين قيام الدولة الأيوبية والدعوة للعباسيين فى مصر، وانقراض الدولة العبيدية أيام العاضد وبين ست الملك ١٥٢ سنة.

ومعنى هذا أن المؤلف نقل شخصية تاريخية من عصرها إلى عصر آخر يبعد عنها بعشرات السنين دون مراعاة للأمانة التاريخية ! ودون التزام بطبيعة العمل الروائى التاريخى الذى يعد من أبرز مقوماته وأهمها على الإطلاق: بقاء الحرية الممنوحة للكاتب فيه داخل الإطار التاريخى، حتى لا يصبح التاريخ مجالاً لعبث العابثين، وتزييف المزيفين.

ولا وجه للاعتراض بأن المؤلف قد أورد هذه الشخصية النسائية المتخيلة، وسماها بذلك من باب أن الأسماء تتشابه !

إذ يمكن الرد على هذا الاعتراض بأننا فى عمل يسميه صاحبه تاريخياً تعليمياً، وقد جعلها أختاً لشخصية تاريخية حقيقية، وصورها محبة عاشقة، غارقة فى لواعج الغرام، تصطك ركبتاها، وتسرى بها قوة كهربائية عندما

---

(١) ينظر : الكامل فى التاريخ لابن الأثير : ٣٠٤/٧، ٣٠٥ والأعلام للزركلى : ١٢٠/٣.

تلمس يد عماد الدين، وتعذب وتلوع وتتعب أبا الحسن، وتذله بحبه لها وبعدم مبادلته الغرام !

على أننا لا نستطيع أن نوجد تفسيراً فنياً ولا موضوعياً لذلك العبث الذى قام به المؤلف بجعل ست الملك أختاً للعاضد، وهى ست الملك أخت الحاكم!

فقد كان فى وسع المؤلف أن يخترع له شخصية امرأة مسماة باسم آخر مثل (ست الدار) (ست أبوها) (ستيته) (ستوته) دون أن يتعمد هذا الخطأ التاريخى الفادح ! ودون أن يشوش علينا معلوماتنا التاريخية الصحيحة!

ومن أخطائه التاريخية المقصودة : قوله فى إحدى صفحات روايته عن (أبى مسلم الخرسانى) : "وأمر القصاصين أن يتلوا على الجيش أقوال عنترة وغيره من أشعار الجاهليين فى الحماسة والفخر استنهاضاً للهمم، وتحريضاً للجند، على عادة العرب فى حروبهم حينذاك". ويقول فى الصفحة التى بعدها : "وطلب إليه بعضهم أن يقص عليهم قصص حرب البسوس، ويوم ذى قار الذى انتصف فيه العرب من العجم وغيرهما من أيام الجاهلية المشهورة، فأجابهم إلى كل ما طلبوه، سواء أكان قصة، أم شعراً، أم ضرباً على الطنبور، بينما رفيقه ينقر على الدف نقراً حسناً ... فطرب الجميع"[(1)].

والحقيقة التاريخية أن المسلمين إنما كانوا يقرعون قبيل المعارك سورة الأنفال. فهى سورة الجهاد لما فيها من ذكر ثواب المجاهدين، وفضل الشهداء، والثبات عند ملاقاة الأعداء ونحوها، وما سمعنا أن جيشنا المسلم كانت أقوال عنترة وأشعار الجاهلين تدفعه إلى الجهاد، وما سمعنا أن جيشنا المسلم كانت ذكريات حرب البسوس وأيام الجاهلية المشهورة تحمسه إلى الشهادة !!

ويلاحظ كنتيجة طبيعية من سرد كلام جرجى زيدان أن أقوال عنترة وغيره من أشعار الجاهليين وحرب البسوس وأيام الجاهليين المشهورة.. لم تشحذ همم المجاهدين، ولم تشجع أو تحمس أحداً .. قال جرجى زيدان: "فطرب الجميع" ما دامت هذه الأشعار تقال على نغم الطنبور والدُّف ؟!!"[(2)].

---

(١) الرواية : ص ٧٨، ٧٩.

(٢) جرجى زيدان فى الميزان، شوقى أبو خليل : ص١٤٨.

ومن مغالطاته فى هذه الرواية أيضاً إظهاره لشخصية (خالد بن برمك) مسلماً ملتزماً، بينما تضمنت الرواية فقرة يقول فيها : "لقد انقضت أيام النوبهار – أى بيت النار – وتخلصنا من عبادة النار لما هدانا الله بالإسلام"[1].

والحقيقة التاريخية التى نصت عليها مصادر التاريخ – والأدب أيضاً – أن البرامكة لم يكونوا مسلمين ملتزمين بحيث يصح وصفه لخالد بن برمك بالمسلم المتلزم ! إنما كانوا – وإن تظاهروا بذلك – يميلون إلى المجوسية التى كان عليها الفرس.

ولقد وُصِفَ خالد بن برمك – مثلاً – بأنه "حاسد يكيد للإسلام وأهله، ويحب الإلحاد وأهله"[2].

ومعروف – تاريخياً - أن أولئك البرامكة قد آووا كثيراً من الزنادقة أمثال محمد بن الليث الخطيب، وهشام بن الحكم الرافضى، ومعروف كذلك أنهم قد شجعوا "المانونية" و"الزرادشتية" و"المزدكية" معللين هذا التشجيع بأن من حق الإنسان أن يعبر عن رأيه بحرية ![3]

وجاء فى بعض المصادر التاريخية والأدبية من أبيات الشعر ما يفيد أن أولئك البرامكة كانوا ممن يطربون – والعياذ بالله – لحديث الشرك والكفر فى مجالسهم الخاصة، على شاكلة ما قاله الأصمعى فيهم :

إذا ذُكِر الشِّرك فى مجلس ... أنارت وجوه بنى برمك
وإن تُليَت عندهم آية ... أتوا بالأحاديث عن مزدك

وقال كلثوم بن عمرو بن الحارث التغلبى "أبو عمرو" :

إن البرامكَ لا تنفكُّ أنجية ... بصفحة الدين من نجواهم نَدَبُ
تجرَّمت حجج منهم ومنصلهم ... مضرَّج بدم الإسلام مختضبُ

وقال آخر :

---

(1) الرواية ص١٣.
(2) ينظر : تاريخ الطبرى : ٢٨٨/٨.
والبداية والنهاية لابن كثير : ١٨٩/١٠.
(3) ينظر : هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا، شوقى أبو خليل فصل البرامكة من ص١٣٤ – ١٥١، وينظر أيضاً كتابه جرجى زيدان فى الميزان ص١٤٦.

إنّ الفـــــــراغ دعانــــــــى   إلـــــــى ابتـــــناء المســــــاجد
وإنّ رأيـــــــى فـــــــيها   كـــرأى يحيـــى بـــن خالـــد

وجعل جرجي زيدان أسباب قتل أبى جعفر المنصور لأبى مسلم الخراسانى ما تتضمنه العبارة التالية من عبارات الرواية [1]:

"ألست الكاتب إلىّ تبدأ بنفسك، وتخطب عمتى آمنة بنت على، وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس ؟! لقد ارتقيت – لا أم لك – مرتقى صعباً!".

ونحن إذ نراجع كتب التاريخ لا نجد فى دوافع تدبير المنصور لقتل أبى مسلم أى واحد من هذه الأسباب التى اخترعها زيدان ! وإنما هو راجع إلى العداء الذى كان بين الاثنين، والذى بدأ منذ أيام أبى العباس السفاح، حيث كان أبو مسلم يظهر استخفافاً بأبى جعفر، وعمل على الحط من هيبته بإنفاقه الأموال الضخمة فى الترفيه عن العرب، ثم بتقدمه عليه فى الطريق بعد أداء فريضة الحج وهو أميره.

وعندما أتى أبا مسلم نعى أبى العباس السفاح، فكتب إلى جعفر يعزيه فى وفاة أخيه، ولم يهنئه بالخلافة، أو يبعث إليه بالبيعة ... ثم بايعه بعد مماطلة ليدخل فى روعه القلق من ناحيته.

ولما انتهى أبو مسلم من حرب عبد الله بن على ولأه المنصور الشام ومصر، فغضب أبو مسلم وقال : "هو يولينى الشام ومصر وخراسان لى؟!" وعوّل على المسير إلى خراسان ليستقل فيها، عند ذلك أوجس المنصور خيفة من ناحية أبى مسلم، وخشى خروجه عليه، وعوّل على التخلص منه قبل أن يستفحل شره.. فدبر أمر قتله.

"وفى رأينا أن المنصور إنما قام بهذا العمل مدفوعاً بما كان بينه وبين أبى مسلم من حزازات شخصية قديمة، وقد زاد أبو مسلم النار اشتعالاً، بتماديه فى زهوه وإعجابه بنفسه وإسرافه فى قتل النفوس البريئة بغير شفقة أو رحمة، ومما يؤخذ عليه قتله سليمان بن كثير"[2].

---

(١) الرواية : ص١٧٣.
(٢) تاريخ الإسلام : ١٠٣/٢ .

وفى الرواية يقول زيدان : "ولا يخفى عليك ان ال بيت النبى لا يرون فرقا بين العربى والعجمى؛ بل هم يفضلون العجم على العرب، ولذلك كانت شيعتهم من الفرس".

وفى هذه الفقرة جانب صحيح هو إيمان آل بيت النبى ﷺ بالمساواة فى الإسلام بين العرب والعجم، وجانب ينقصه الدليل المؤيد له هو ادعاؤه بأن آل بيت النبى ﷺ كانوا يفضلون العجم على العرب !

صحيح أن الفرس كانوا من شيعة الإمام على، وصحيح أن الإيرانيين فى عصرنا هذا من شيعة آل البيت؛ لكن ليس معنى هذا أن ذلك راجع إلى تفضيل آل البيت للعجم على العرب، والحقيقة أن انحياز بنى أمية الذين اغتصبوا الخلافة من آل بيت النبى للعنصر العربى هو الذى دفع الفرس إلى أن يكونوا من شيعة آل البيت. ويضاف إلى ذلك – طبعاً – حب الناس جميعاً – عرباً وغير عرب – لآل بيت رسول الله ﷺ، وقديما قال الكميت :

ومالى إلا آل أحمد شيعة	ومالى إلا مذهب الحق مذهب
بنى هاشم رهط النبى فإننى	بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب

وفى رواية (أسير المتمهدى)

حاول جرجى أن يظهر الجنود الذين يحاربون فى السودان أنهم جنود عرابى[1] وهذا منتهى المغالطة التاريخية.

"إن عرابى والمهدى حاربا عدواً واحداً هو المستعمر الإنكليزى، ومن الحقائق التاريخية أن المهدى لما حاصر الخرطوم، وساءت حال غوردون، وسقطت الخرطوم بيد الأنصار يوم الإثنين ١٨٨٥/١/٢٦م، قتل غوردون.. فغضب المهدى .. لقد أراده حياً ليفتدى به عرابى من أسر الإنكليز، وليخرجه من منفاه البعيد فى سيلان ليساعده فى فتح مصر! فإن بين الزعيمين عواطف متبادلة، فكلاهما عالم مسلم وحَّدت العقيدة بينهما.

فكيف قاتل العرابيون المهديين؟!

---

(١) ينظر : الرواية ص١٣١، ١٣٢.

قاتلوهم فى خيال وافتراءات وتشويهات زيدان !![1]

والعجيب حقاً : أن زيدان كان على الرغم من وجود تلك الأخطاء التاريخية التى أوردناها آنفاً وأشباهها مما لم نذكره كان يدعى أنه ينقله من مصادر التاريخ الإسلامى !

اقرأ – على سبيل المثال – قوله – مدافعاً عن روايته (فتاة غسان) : "إن ما أوردناه ونورده من الحقائق التاريخية فى رواية (فتاة غسان) منقول عن مؤرخى الإسلام، إما حرفياً وإما معنوياً، وخصوصاً الحوادث الإسلامية، فإن مصادرها إسلامية محضة؛ لأننا أبعد الناس عما يذهب إليه بعض الإفرنج فى تأويل تلك الحوادث، واستنتاج ما يستنتجونه منها"!![2]

على أننى لا أعجب فحسب من دفاع زيدان عن الأخطاء التاريخية الفادحة التى وقع فيها عن تعمد وإصرار، إنما أعجب أيضاً من أولئك النقاد الذين وضعوا أيديهم على شواهد من أخطائه، وعدم أمانته التاريخية، فضلاً عن تحريفاته المسيئة إلى الشخصيات الإسلامية من رجال السلف الكرام!

وعلى الرغم من هذا فإنهم راحوا يدافعون عنه بأنهم لا يعتقدون فى سوء قصده، وبأن ما صنعه من الأمور المألوفة فى القصص، وبأن زيدان يقلد فى ذلك كتاب الرواية التاريخية الغربيين الذين لا يتحامون ذلك فى رواياتهم!![3]

لقد قال الشيخ محمد رشيد رضا مثلاً : "وقد كان المؤلف – يقصد زيدان – وقع فى هذا تقليداً للإفرنج الذين لا يتحامون مثله"[4].

ونحن نرى أنهم أخطأوا فى هذا الدفاع، إذ لا يصح – بحال – أن يدافع أحد عن كاتب يدخل الأخبار الكاذبة على التاريخ الإسلامى؛ لأن التاريخ الإسلامى له حقه من الإجلال والتوقير والحفاظ على نصوصه الصحيحة الثابتة،

---

(١) جرجى زيدان فى الميزان : ص٢٨٩.

(٢) مجلة الهلال، فى ١٨٩٧/١/١٥م.

(٣) ينظر : تقريظ الشيخ محمد رشيد رضا لرواية فتاة غسان فى المنار مجلد ٦ سنة ١٩٠٣ ص٣٩١.

(٤) ورد هذا ضمن تعليق للشيخ رشيد رضا يرد به على رسالة وصلته من أحد القراء الفضلاء – على حد تعبيره – يلومه على تقريظه رواية (الحجاج بن يوسف) المليئة بالإساءة إلى الشخصيات الإسلامية (المنار مجلد ٥ سنة ١٩٠٢ ص٣٩٨).

لأنـه ليس كأى تاريخ آخر، إنما هو تاريخ يتصل بدين الله الحق الخالد، وبالرجال الذين دانـوا بهـذا الـدين، وحملوا لـواء الدعوة إلـيه، فـأى تـزييف لهـذا الـتاريخ جريمة شنيعة، وأمر لا ينبغى السكوت عليه.

علـى أن الادعاء بأن زيدان قد وقع فى هذه الأغلاط تقليداً للإفرنـج الذين لا يتحامون مثله"! إدعـاء يبطله واقع الأمروحقيقته عند زيدان، إذ أن زيدان قد فعل ذلك عمداً مع سبق الإصرار، ولم يكن حسن النية، ولا مقلداً لكتاب الغرب.

يدعم ذلك مـا يفصح عنه منـهجه العملـى فـى نقد الـروايات التاريخية للآخرين، إذ كـان يحاسبهم علـى أخطـائهم التاريخية فـى الـوقت الـذى يصنع هو فيه ذلك فـى روايـاتـه المتصلة بتاريخ الإسلام، والعجيب أن الأخطـاء التاريخية لأولـئك الـذين نقـد زيـدان أعمـالهم بمقياس الصـحة التاريخية أخطـاء لا تتصـل بتاريخ الإسلام، ممـا يؤكد تعمده لتزييف التاريخ الإسلامى، ولو كان حسن النية لتحاشى فى رواياته عن التاريخ الإسلامى ما يحاسب عليه الآخرين.

لقد نشر زيدان – مثلاً – فـى أواخر عام ١٨٩٢م نقداً لرواية عنوانها (الأمير مراد) من تـأليف كاتـب اسمه (خليل سعد) أحد أبناء المهاجرين بالشام، وكانـت مؤلفة بالإنجليزية. وقد استهل نقده للرواية بالثناء على صاحبها، وأشار إلـى أنهـا "منسـجمة العـبارة، مشـوقة للمطالعـة؛ لغـرابة وقائعهـا وتناسـق حوادثها" ثم استأذن فـى إبداء ملاحظاتـه النقدية على أساس أن "الانتقاد يقود إلـى الحقيقة" كمـا قـال، وأوضـح أنـه سيكتفى – فـى هـذا الصـدد بالملاحظـات التاريخية – وكـان موجز مـا أبداه من تلك الملاحظـات : أن الكاتب أدار أحداث روايته فـى (سوريا) فى منتصف القرن الثامن عشر، ولكنه أورد أشياء وعادات لا تمت إلـى تلك الحقبة الزمنية بمقدار ما تمت إلى منتصف القرن التاسع عشر. وذكـر زيـدان مـن هـذه الأشياء والعادات : استخدام المؤلـف للطـربوش كغطـاء للـرأس، والـريال المجيدى فـى المعـاملات المالـية، والألـواح الحجـرية (يقصد الإردوازيـة) فـى الكـتابة؛ بـل ينسـب إلـى إحـدى الشخصـيات النسـائية البسـيطة معارف طبية تـتعذر معرفتها علـى بنات تلك الأيـام، ثـم يجعل شخصـية نسـائية أخرى تصـافح خطيبها بهز اليد. وعقب زيدان قـائلاً : "إن المؤلـف لـو قـال إن

الرواية حدثت فى منتصف هذا القرن (التاسع عشر) لسددونا كل باب للانتقاد من هذا القبيل"[1].

بل رأى زيدان أن مؤلف الرواية قد وقع فى التكلف عند ربط حوادث الرواية، ومثل زيدان لذلك بأن المؤلف أدخل حادثة لا علاقة لها بالرواية الأصلية لمجرد ذكر عادة من العادات، فى حين أن "الأصل فى ذلك أن تكون حوادث الرواية مرتبطة ببعضها كالسلسلة، بحيث لا يمكن الاستغناء عن حلقة واحدة منها، بغير أن يختل نظامها"، واختتم نقده بأنه لم يرد الحط من قدر المؤلف، ورجاه أن يعمل بالملاحظات السابقة – ومنها الملاحظات التاريخية – عند طبع الرواية باللغة العربية[2].

وهناك رواية أخرى عنوانها (إحدى ليالى كليوباترا) لمؤلف أطلق على نفسه اسم (نيرون) ، انتقدها زيدان على أساس مطابقتها أو عدم مطابقتها للحقائق التاريخية والعلمية، ومسايرة حوادثها للزمان والمكان، فأخذ على مؤلفها أنه ذكر اسم الجلالة (الله) فى سياق خطاب كليوباترا، ورأى زيدان أن هذا لم يكن معروفاً فى مصر وقتئذ لوثنية ديانتها. وانتقد زيدان مؤلف هذه الرواية فى تسميته لصياد باسم (نعمان) وهو اسم عربى، وعند زيدان أن هذا الاسم ليس له مثيل بين الأسماء المصرية القديمة. ولفت نظر المؤلف إلىاستنارة النجفة بالضغط على زر يشبه الأنوار الكهربائية، وهذا لم يكن موجوداً فى زمن الرواية[3].

وهناك رواية ثالثة هى (عذراء الهند) لأحمد شوقى، تنتهى وقائعها إلى زمن رعمسيس الثانى المعروف باسم سيزستريس، أحد فراعنة مصر الأقدمين، وقصد أمير الشعراء من تأليفها سنة ١٨٩٧م ما كان عليه أهل العصر الذى تتناوله الرواية من الخرافات والترهات، ولذلك أكثر فيها من ذكر الجن والعفاريت والسحرة والكهان والمنجمين والرقى والطلاسم.

انتقد زيدان هذه الرواية، وركز هذا الانتقاد على ما فى الرواية من أخطاء تاريخية وجغرافية، وذكر من هذه الأخطاء : أن حوادث الرواية وقعت

---

(١) مجلة الهلال : أول ديسمبر ١٨٩٢ ص١٣٨، ١٣٩.
(٢) السابق والصفحة نفسها.
(٣) ينظر : مجلة الهلال عدد أول أكتوبر سنة ١٨٩٢م.

منذ خمسين قرناً، ومعلوم أن رعمسيس الثانى من أهل القرن الرابع عشر قبل الميلاد، فلا تتجاوز حوادث الرواية القرن الثالث والثلاثين. ونذكر من هذه الأخطاء أيضاً : أن المؤلف ذكر بلاداً أسماها (الهند الغربية) مع أن الهند الغربية تطلق على جزائر فى قارة أميركا لم تكن معروفة قبل أواخر القرن الخامس عشر للميلاد، أم لعله يريد انقسام الهند إلى مملكتين شرقية وغربية فى عصر رعمسيس مما لم نقف عليه.

وأخذ زيدان على شوقى ذكره لممارسة التنويم المغناطيسى، وتساءل : هل يريد أنه كان معروفاً فى تلك الأزمان، وما دليله ؟!

وقال زيدان فى ملاحقته لشوقى بذلك النقد التاريخى لروايته : "..... ورأينا الشيخ الهندى السائر فى تلك البوادى المقفرة يستضيئ بسلك معدنى يشعله، فهل يراد به معدن المغنسيوم المعروف الآن؟ وهل دله التاريخ على استخدام ذلك المعدن فى عهد الرعامسة؟! وورد فى خلال الرواية ذكر كثير من الحيوانات الخرافية الغريبة، كالثعبان الهائل الذى ينير نوراً باهراً، والأفيال العراض الطوال فى أجرام الجبال، والبشر فى صورة القردة، والببغاء الأسود، وغير ذلك من غرائب المخلوقات، ويخال لنا أن المؤلف إنما أراد بإيرادها ما كان يعتقده أهل الهند فى تلك العصور، ولكنه أورد خبرها على لسانه كمن يعتقد حقيقتها، أو يشير إلى اعتقاد أهل العصر لذلك[١].

وهكذا يتضح من تلك الأمثلة الثلاثة التى اقتبسناها من نقد زيدان لروايات غيره أنه اعتمد فى نقده على مقياس مطابقة الرواية أو عدم مطابقتها للحقائق التاريخية، وأنه فى نقده هذا كان ضد مخالفة الروائى لحقائق التاريخ؛ لكنه لم يلتزم بهذا المبدأ فيما سطره قلمه من روايات !! الأمر الذى يؤكد ما قررناه آنفاً من تعمده تشويش وتحريف حقائق التاريخ الإسلامى المجيد !!

وإذا كنا قد رأينا فى الأمثلة الثلاثة التى سبق ذكرها من نقده التاريخى لروايات غيره ذلك التناقض التام بين نقده هذا وما صنعه فى رواياته من مخالفة لحقائق التاريخ - فإن هذا التناقض نجده أيضاً بين أقواله التى قالها عن ضوابط الرواية التاريخية، وبين ما صنعه فى رواياته مما ذكرناه.

---

(١) مجلة الهلال عدد أول فبراير ١٨٩٧ ص٤٢٣، ٤٢٤.

لقد قال – مثلاً – : "إن الرواية التاريخية يجب أن تمثل الحادثة المرادة تمام التمثيل مقيدة بالزمان والمكان وسائر الأحوال"[1].

وفى موضع آخر : يعدّ الرواية التاريخية من أبواب التاريخ وفلسفته، وآداب الناس، وعوائدهم، وسلوكهم، ولا تعد من باب الفكاهة والإمتاع[2].

وفى موضع ثالث : يأخذ على الروائيين التاريخيين تسامحهم فى مخالفة الحقائق؛ لأن هدف الرواية – كما يقول - : خدمة التاريخ وتشويق القراء إليه[3].

وهذه الشواهد الثلاثة تؤكد إيمانه بمسايرة الرواية التاريخية لحقائق التاريخ، وأحوال الإجتماع. ومع هذا حدث فى رواياته العكس !!! حيث رأينا فيها تسامحه مع الحقائق، وتساهله فى التقيد بما ورد فى كتب التاريخ، وتغييره لملامح الشخصيات ومعالمها المعروفة فى هذه الكتب، ومما زاد الطين بلة تشويهه للتاريخ الإسلامى، وتعمده النيل من أعلام الإسلام لشىء فى نفسه نابع من تعصبه لانتمائه الدينى، وتقليده للمستشرقين المغرضين !

(١) مجلة الهلال عدد أول مايو ١٨٩٣.
(٢) ينظر : السابق عدد أول سبتمبر ١٨٩٦.
(٣) ينظر : السابق عدد أول مايو ١٨٩٩.

التشويه المتعمد لسيرة أبطال الإسلام
فى روايات زيدان

مما يلاحظ بوضوح فى تلك الروايات التى كتبها جرجى زيدان : حرصه البالغ فى كل رواية على تصوير الخلفاء والقواد والأبطال المسلمين تصويراً يشوّه سيرتهم العطرة، ويقدمهم لقراء رواياته تقديماً يوحى بأنهم نماذج سيئة، وشخصيات وصولية تضحى فى سبيل الملك بكل شىء، حتى بأقرب الناس إليهم! وتنغمس فى الملذات والشهوات التى حرمها الله !

وفيما يلى أمثلة مما احتوته رواياته التاريخية من ذلك التشويه المتعمد الذى ارتكبه، وبالغ فيه، وأكثر منه إلى الحد الذى يجعلك وأنت تقرأ له تستشعر أنه لم يكتب تاريخاً ليتعلمه الناس كما ادعى، بل كتب تاريخاً ليشوه ما فيه من صفحات تتلألأ بالرفعة والأمجاد، وتلك ناحية – بدون شك – تدل دلالة جلية على خلو رواياته من الصدق التاريخى الذى يعد من أهم مقومات الرواية التاريخية ومقاييسها، كما أنها تنم عن محاولته إفساد مفهوم الشخصية والبطولة الإسلامية التى شهدت بها مصادر التاريخ الموثوق بها، على مر العصور وكر الدهور.

فى روايته (فتاة غسان) : يصف خالد بن الوليد وصفا منفرا يبدو فيه أثر الجدرى على وجهه، ثم يسطر بقلمه العابث حكاية خيالية خلاصتها : أن خالد بن الوليد تزوج أمرأة مالك بن نويرة قبل أن يجف دم زوجها ![1]

والحق : أن هذه الحكاية من خيال بعض المؤرخين أمثال جرجى زيدان؛ إذ لا يمكن – إطلاقاً – أن يتزوج قائد مسلم عظيم من السلف الصالح مثل خالد سيف الله المسلول امرأة وهى ما تزال فى العدة؛ لأنه هو ورفاقه من صحابة رسول الله (ﷺ) من أحفظ الناس لشرع الله وقوانين السماء؛ بل إن المسلم العادى لا يجرؤ على هذا فى كل عصر وأوان.

وزيدان فى هذه الرواية يفصح عن تعصبه لانتمائه الدينى بإعراضه التام عن التعبير عن الرسول (ﷺ) باسمه، إذ يعبر عنه بصاحب الشريعة

---

(١) الرواية : جـ٢ ص ١٤٨ وما بعدها .

الإسلامية، أو النبى بدون صلاة وتسليم عليه [1]، وهكذا كان نهجه الغالب عليه فى بقية رواياته[2].

وفى روايته (أرمانوسة المصرية أو فتح مصر) :

تراه يصف العرب المسلمين الذين فتحوا مصر بقيادة عمرو على لسان أركاديوس قائد حصن الروم فى حديثه مع أرمانوسة هكذا : "أرانى فى حلم، ولا أستطيع تصديق الخبر.. أيدخل هؤلاء العرب الحفاة العراة حصوننا، ونحن جنود الروم ومعنا العدة والسلاح، وأولئك شرذمة ؟!"[3].

ثم تراه يعد الفتح نهباً وسلباً وليس رسالة وتبليغ دعوة وإخراجا للناس من ظلمات الكفر والجهالة إلى نور الإيمان والهداية .. يقول – فى معرض تصويره لأركاديوس - : "فرأى العرب قد أمعنوا فى المدينة قتلاً ونهباً، فجعل يتململ ويتأسف على ما أصابه العرب منهم، فقالت أرمانوسة : ما بالك يا حبيبى تتململ ؟ قال : أتململ أسفاً على ما حل بجندنا ! ألا ترين أن العرب ينهبون المدينة ويقتلون حاميتنا ؟[4]

وفى موضع ثالث من الرواية : تأمر أرمانوسة الخدم بإقفال باب القصر، وأن يمكثوا بداخله خوفاً من أن يصيبها ضرر من (السالبين) العرب الذين دخلوا البيوت "ينهبون" و"يسلبون"[5]. والعرب عند زيدان ما هم إلا جماعة من البدو راكبو جمال ورعاة ماشية [6]. !!

وتجاهل زيدان أن هؤلاء العرب المسلمين بفتحهم لمصر قد خلصوا الأقباط من الضرائب العالية المرهقة، ولم يأخذوا منهم إلا العُشر مما كان يأخذ الروم، وضمنوا لهم الحرية الدينية المطلقة، وجلبوا إلى وادى النيل الخير، ولم يضع عمرو يده على شىء من ممتلكات الكنائس، ولم يرتكب عملاً من أعمال السلب والنهب، وكان التسامح رائده، فصبغ مصر بالعروبة والإسلام إلى الأبد.

---

(1) ينظر : الرواية ص٩.

(2) ينظر : عذراء قريش ص١، وغادة كربلاء ص٥، وأحمد بن طولون ص٢١.

(3) رواية أرمانوسة : ص٣٠٦ ط الهلال ١٩٨٣، وقد جاء هذا الوصف أيضا فى روايات أخرى منها (فتاة غسان) ينظر : الرواية ١٩٠/٢، ١٩١ ط دار الهلال ١٩٨٣.

(4) أرمانوسة : ص٢٦٤.

(5) أرمانوسة : ص٢٤٩.

(6) ينظر : الرواية ص ٢٩٨ .

والواقع : أن زيدان فى كل رواياته التى تناولت فتوحات المسلمين مثل فتاة غسان، وأرمانوسة، وفتح الأندلس، وشارل وعبد الرحمن، وعبد الرحمن الناصر، وعروس فرغانة - قد شوه الملسمين بصورة مستفزة تجاوز فيها سمات المؤرخ الموضوعى المنصف للحقيقة والكاتب الروائى الملتزم بمواصفات ومقاييس الرواية التاريخية الجيدة، فهو مثلاً فى (عروس فرغانة) يصفهم بالمستعمرين الذين لم يقيموا فى فرغانة إلا بعد فتح تركستان سنة ٩٤هـ بأعوام عديدة![1]، ويقول فى رواية (شارل وعبد الرحمن) : "فلما جاء المسلمون خيموا فى ظاهرها [أى مدينة بوردو]، ثم فتحوها عنوة، وأمعنوا فيها سلباً ونهباً"![2] على أنه فى روايات لم يكن موضوعها الفتح الإسلامى قد نهج النهج نفسه، فيقول مثلاً فى روايته (العباسة) : "كان المال ينصب فى خزائن العباسيين انصباب السيل؛ إذ كانوا يشاطرون أهل الأرض غلاتهم، فضلاً عن الجزية وغنائم الحرب"![3] .

وفى رواية عذراء قريش: قال تحت عنوان الرواية فى الصفحة الأولى ما نصه:

"ويمسك محمد بن أبى بكر بلحية عثمان ويقول له : قد أخزاك الله يا عثل"!! ويلتفت إلى حبيبته ليقول لها عند جثة عثمان رضى الله عنه : "إنى صريع حبك"..!! وهذه العبارة موجودة فى داخل الرواية أيضاً[4]، وفيها من التهكم على سيدنا عثمان ما هو واضح وجلى!.

على أن ذلك لم يحدث من محمد بن أبى بكر، لكنه الدس الرخيص والدجل الصارخ من زيدان فى روايات يدعى انها تورخ للإسلام !

وفى روايته ١٧ رمضان :

يثير من القضايا الحساسة الشائكة قضية الفتنة التى انتهت باستشهاد ذى النورين سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه، ليتخذ من إثارتها غراباً ينعق فى الزمن القديم، وليس له من هدف سوى الدس الرخيص والتشويه

---

(1) ينظر : الرواية ص ٥.
(2) الرواية : ص ١١.
(3) الرواية ص ٦.
(4) ينظر : ص ١٠٨

والتشهير برجال السلف الكريم. ولنقرأ معا هذه السطور من إثارته لهذه المسألة الحساسة الشائكة على لسان شخصيتين من شخوص الرواية هما شخصية سعيد وشخصية جده (أبى رحاب)، حيث يقول سعيد : "إن القاتل هو على بن أبى طالب"! [1] ويقول جده : "إن علياً برئ، وإنما يتهمه أهل المطامع والأغراض"[2]، وكرر زيدان ذلك فى صفحة أخرى بهذه العبارة : "......تآمرتم على نصرة رجل قتل الخليفة عثمان"![3]

والواقع : أن المؤلف بإثارته لهذه القضية إنما يصرخ فى الآبار القديمة ليكون لصراخه صدى فى نفوس قرائه قد يجعل بعضاً منهم يعتقد ويجزم بأن القاتل هو الإمام على ! أو – على أقل تقدير - : يشك ويرتاب ! على أن عبارة "القاتل هو على" ! أمر لم يقل به أحد، حتى أعدى أعداء سيدنا على رضى الله عنه وكرم الله وجهه.

ثم إن زيدان – فيما استنطق به سعيد فى هذه القضية – قد جرى على غير عادة الكاتبين الذين حاولوا تحديد مسئولية قتل الخليفة الثالث، إذ فريق منهم يحمل الخليفة أكبر نصيب من التبعة لأسباب ليس هناك مجال ذكرها، وفريق آخر يحمل الفتنة عبد الله بن سبأ، وفريق ثالث : لا يقول : إن علياً قتل عثمان كما جاء على لسان الشخصية التى اخترعها زيدان، وإنما يقول ما هو ألطف من ذلك وأخف – على فرض صحته – وهو أن علياً تهاون فى نصرة سيدنا عثمان، فحملوه تبعة قتله، وكأن علياً – والكلام هنا لأستاذنا المرحوم الدكتور محمود زيادة – "كان الأمة بأسرها، أو أنه إن شاء أطال عمر عثمان، وإن شاء قضى عليه، ويخلقون عداوات بينه وبين عثمان، وإن المتتبع للأحداث يرى أن علياً لم يقصر، وقد نصح مراراً، ولكن لم يسمع لقوله، وأخيراً خرج، أو – على الأصح – طلب إليه الخروج إلى ما له بينبع، ومع ذلك ترك أبناءه على باب عثمان .... ولما اشتد الحصار على الخليفة أرسل إليه كتاباً ...... فبادر على إليه، ولكنه لم يدرك من أمره شيئاً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً"[4].

---

(1) الرواية : ص ٤٠ ط الهلال ١٩٨٣.

(2) الرواية : ص ٤١..

(3) الرواية : ص١٣٨.

(4) تاريخ العالم الإسلامى : ٢/ ٢٥٠

وينظر جهد على والصحابة فى تاريخ ابن الأثير: ٣/ ٨١-٨٧.

هذا، وقد ذكر زيدان – في هذه الرواية ايضا - عبارة بحق سيدنا على بن ابى طالب رضى الله عنه، وكرم الله تعالى وجهه لا تليق بمقامه الرفيع ومنزلته العالية، قال على لسان أبى خولة : "فقد أرسلته مع حبيبك ليساعده على إنقاذ أبى تراب"، وكتب بين قوسين بعد كلمة أبى تراب مباشرة (على بن أبى طالب)(١).

وبطلة هذه الرواية هى (قطام) من الخوارج. فتاة الكوفة الفتانة بجمالها الباهر، وذات الحيلة والدهاء. وهى تريد الانتقام لمقتل أبيها وأخيها اللذين قتلا فى النهروان. وحبيبها الخيالى هو سعيد الأموى المفتون بسواد عينيها، والمستعد بفعل كل شىء من أجل الزواج منها، فاشترطت أن يكون مهرها هو قتل الإمام على. وهى لا تفكر فى الحب والغرام؛ بل فى القتل والانتقام، ولا تحب إلا الانتقام، ومن ينتقم لها هو الخليق بأن تعطيه قلبها. فأبدى سعيد استعداده فى الانتقام لها. ولنقرأ – معا – مايلى من الرواية:

"فلما تحققت قطام وقوعه فى الشرك، أرادت أن تتمكن من عهده بصكٍّ تستكتبه إيَّاه، فأمسكت نقابها بيدها، وتظاهرت بإصلاحه، فانكشف معصمها عن الأساور والدمالج، وبانت عيناها وقد ذبلتا من البكاء فازدادتا جمالاً، ورنت إليه وتأمَّلته كأنها تزن مقدرته على ما وعد به، أما هو فلا تسل عن حاله بعد تلك النظرة، فثارت عواطفه، ونظر إلى العجوز كأنه يحرِّضها على التوسط فى الأمر....".

صحا – سعيد – من سُكْره لحظة تبيَّن فيها خطر الأمر، على أنه ما لبث أن عاد إلى سكرة الغرام، وقال لها : أتحسبين سكوتى يا قطام عن تردد أو خوف؟ لا وحبك، فما أنا ممَّن يضنُّون بالنفس فى سبيل الحب، فكتب لها عهداً على نفسه أن يقتل علياً، فقالت له : لا تعرِّض نفسك للقتل يا حبيبى، ما لنا وللصكوك، ألا يكفينا القول ؟

---

(١) ابن أبى تراب، قالها زياد بن أبيه عندما كان على الكوفة والبصرة سنة عندما أحضر حجر بن عدى : (زياد لحجر : يا عدو الله ما تقول فى أبى تراب؟ قال، ما أعرف أبا تراب، قال : ما أعرفك به ! قال : ما أعرفه، قال : أما تعرف على بن أبى طالب؟ قال : بلى، قال : فذاك أبو تراب، قال : كلا، ذاك أبو الحسن والحسين)، (تاريخ الطبرى، جـ : ٥، ص : ٢٢٦).

فلما آنس سعيد هذا التقرُّب وسمع قولها "حبيبى"، أخذ يبثها حبه وغرامه وتفانيه فى سبيلها، وطابت له تلك الخلوة القصيرة، وانتشى بمبادلتها أيّاه عواطف الحب، واعتقد أنه أسعد إنسان على وجه الأرض بفوزه بحبها له.

وكتب سعيد – حسب ما يدعى زيدان – ما ننقله حرفياً بنقاطه وفراغاته : "أنا سعيد بن .... الأموى، أعاهد قطام بنت شحنة على قتل على بن أبى طالب مهراً لزواجى بها، فإذا لم أفعل لم أكن كفؤاً لها، وعلى عهد الله وميثاقه"، كتبه سعيد الأموى.

وفى التاريخ الإسلامى شخصية حقيقية اسمها (قطام بنت الشجنة التيمية كما فى الطبرى، أو قطام بنت علقمة كما فى الكامل للمبرد، أو قطام بنت الأخضر كما فى شرح ابن أبى الحديد، أما قطام بنت عدى بن شحنة فلا وجود لها فى كتب التاريخ! وقطام التى جرى بينها وبين ابن ملجم الاتفاق فى الرأى على قتل الإمام على هى من الخوارج، من تيم الرباب، وذكرتها كتب التاريخ باسم قطام فقط. [1]

وقد ذكر زيدان فى الرواية أن قطام سافرت إلى دمشق والتجأت إلى معاوية بعد قتل الإمام على. وقطام بنت الشجنة التيمية لم تسافر إلى دمشق ولم تقابل معاوية ... فكأن ما بنى على ذلك محض خيال، وتشويه للرواية التاريخية!

وفى الرواية زيدان يقتل قطام، وتاريخياً قطام التى هام بها ابن ملجم لم يذكر المؤرخون مصيرها، وهذا يعنى أنها انهت حياتها كأى فرد فى الأمة، ولو وجد فى حياتها ما يخالف ذلك لذكر، لأنه لافت للنظر[2].

وفى روايته (غادة كربلاء) :

يشهر بيزيد بن معاوية خليفة المسلمين فى موقف يجعله فيه محباً لسلمى الخيالية فى الرواية، إلى الحد الذى يجعله يسعى للظفر منها بقبلة وقضاء ليلة معها من ليالى الفسق والفجور، ولنقرأ – معاً – تلك السطور مما يقول :

---

(١) ينظر: ترجمتها فى الروضة الفيحاء فى تواريخ النساء لياسين بن خير الله العمرى ص ٣٢٣ ومابعدها، ط الدار العربية للموسوعات١٩٨٧.

(٢) ينظر: السابق والصفحات نفسها.

"...... وقبل أن تستتر أطل يزيد ورآها، فانذهل لجمالها، ووقف مبهوتا لا يدرى ما يقول ... فغمرت يزيد موجة من الإعجاب بجمالها وهيبتها، فلم يستطع سوى الانعطاف إليها، فقال لها بنغمة المحب المفتون : لا تحجبى وجهك عن خلق الله يا أجمل خلق الله"......................

- واهتمت العجوز بتسريح شعرها وتجميلها فمشطتها وهيأتها - ليزيد-، فأصبحت سلمى بعد أن تزينت أشبه بالملائكة منها بالآدميين، حتى أن العجوز عشقتها وتعلق قلبها بها.

- ومد يده ورفع الغطاء عن وجهها، وقلبه يكاد يطفح سرورا للظفر بها، لأنه لم يشهد من قبل مثل ما فى وجهها من الجمال والهيبة، وقد زاده ذلك التمنع رغبة فيها وشوقاً إليها.

- فمشى رويداً رويداً حتى أقبل على الفراش، ودنا من رأسها وكان مغطى إلى الجبهة فانحنى وأمسك الغطاء بأطراف أنامله ورفعه ... فظلت سلمى ساكنة وعيناها مغمضتان، وقد أشرق محياها وزاده الدفء إشراقاً واحمراراً، فلم يتمالك يزيد عند رؤيتها من الإعجاب بذلك الجمال الجذّاب، وحدثته نفسه أن يوقظها ويجلس إلى جانبها، فأومأت العجوز إليه أن يتركها تنام، وأمسكت بيده، فمشى إلى جانب النافذة وقالت له همساً : لا تتعجّل يا مولاى!! إن العروس عروسك تتمتع بها متى شئت، دعها تهدأ الآن وتسترح، فإذا جاء الليل كانت كما تبتغى، فقال : ولكننى لا أريد منها إلا قبلة، قالت : لم يكن ثمة بأس من ذلك لولا خوفنا من أن تستيقظ، فقال لها : هل أدخلتها الحمام؟ قالت : نعم يا سيدى، كن مطمئناً من هذا القبيل ... فقال لها : أعدى لنا ما نحتاج إليه من الشراب والطعام لنقضى الليلة فى هذه المقصورة، قالت : سمعاً وطاعة وسارت فى أثره.................

فلما أقبل عليها ورأى جمالها قال فى نفسه : حرام أن يمس هذا الجسم بسوء فوافقها يزيد على رأيها ترغيباً لها فى خدمته، على أن ينال منها مرامه بعد سفره، واكتفى بأن يتمتع برؤية ما ظهر من عينيها .... وهو يريد أن ينام ليبكّر فى الرحيل ويخلو بالفتاة فى حوران[1].

---

(١) الرواية : ص ١٥١، ١٢٥، ٢٤٨.

ويكفينا الخبر التالى بحق يزيد بن معاوية الذى جعل زيدان وأمثاله حياته خمراً وطنبوراً وخلاعة وعشقاً :

نقل الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (جـ : ٨، ص : ٢٣٣) : أن عبد الله بن مطيع (داعية ابن الزبير) مشى فى المدينة هو وأصحابه إلى محمد بن على بن أبى طالب (المعروف بابن الحنفية) فأرادوه على خلع يزيد، فأبى عليهم، فقال ابن مطيع : إن يزيد يشرب الخمر، ويترك الصلاة، ويتعدّى حكم الكتاب. فقال لهم : ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته، وأقمت عنده، فرأيته مواظباً على الصلاة، متحريًا للخير، يسأل عن الفقه، ملازماً للسنّة. قالوا : فإن ذلك كان منه تصنُّعاً لك، فقال : وما الذى خاف منى أو رجا حتى يظهر إلىّ الخشوع؟ أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه، وإن لم يكن أطلعكم فما يحلّ لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا. قالوا : إنه عندنا لحق وإن لم نكن رأيناه. فقال لهم : أبى الله ذلك على أهل الشهادة. فقال : "إلا من شهد بالحق وهم يعلمون"، [الزخرف : ٨٦]. ولست من أمركم فى شىء ....

هذه شهادة رجل من آل البيت[1] بحق يزيد، لم أجد أصدق منها ولا أقوى فى الرد على زيدان، لأنها شهادة صادرة من مؤرخ مشهود له بالصدق التاريخى، وقد كان زيدان مؤرخاً، فما باله لم ينهج نهج المؤرخين الصادقين الأمناء؟!

وفى روايته (الحجاج بن يوسف) :-

تطاول على عبد الله بن الزبير، البطل المسلم الذى أمضى شبابه فى الجهاد فى سبيل الله، وانتصر فى شمال إفريقيا، واشتهر بإيمانه العميق – تطاولاً وصل إلى حد وصفه بكلمة (ملحد) ![2]

وفى روايته فتح الأندلس : يخلط بين ثلاث كلمات : المسلمين، والعرب، والبربر، ويحتار فيما يستخدمه، ففى عشرات المواضع كان يقول :

---

(١) الحافظ ابن كثير قرشي ، كما هو معروف. فنالل الشهادة أيضاً من قريش التى ينتمى إليها آل البيت.

(٢) ينظر : ص١٠٢ طـ دار الهلال أغسطس ١٩٤٩م شوال ١٣٦٨ هـ - يلاحظ هنا أن دار الهلال تقدم التقويم الإفرنجى على التقويم الهجرى.

- إن العرب جاءوا الأندلس.
- سمعوا بنزول العرب إلى بلادهم.
- إن العرب غالبون لا محالة.
- جند العرب.
- إن العرب إنما يريدون الغزو.
- شاهدوا العرب بخيلهم وإبلهم.
- معسكر العرب.
- ثم سمع بقدوم العرب.
- الأنضمام إلى العرب

ما سبق نكرته على سبيل المثال .. والآن كيف يقول زيدان : إن الجيش المرسل بربرى كله، ويستعمل كلمة العرب لهذا الجيش؟ أما كان الأحرى والصحيح، أن يستعمل كلمة : "مسلمين"؟! فهى تجمع العرب والبربر، وتظهر أن عقيدة هى الإسلام، وحدت بينهما؛ فقاموا لنشر لوائها ؟!

وزيدان فى هذه الرواية – أيضاً – وفى روايات أخرى مثل شارل وعبد الرحمن يحرص على وصف طارق بن زياد بالقائد البربرى[1]، وهو وصف يستخدمه لإخراجه من الجنس العربى من ناحية، ولأن لفظة البربرى لدى القارئ العادى لها من الدلالة والإيحاء ما هو معروف لدى العامة !

وفى رواية (شارل وعبد الرحمن) التى تحكى جزءاً من عصر الولاة بالأندلس زعم بأن القواد وأمراء الجند من المسلمين كانوا مشغولين بحب فتيات النصارى، وقد فتنوا بجمالهن! وأن هذا الحب قد صرفهم عن أمر الفتح، فتركوا جنودهم فى ساحات القتال![2] وزعم أنهم كانوا يهتمون بالغنائم أكثر من اهتمامهم بما عداها، وجرى على تصوير حروب المسلمين على أنها حروب غنائم! ويبالغ فى إظهار البربر على أنهم يسعون إلى الغنيمة ليس غير. يقول – مثلاً – : "أكثرهم جاؤوا للنهب والسلب، وخصوصا البرابرة ومن على

---

(١) ينظر رواية فتح الأندلس ص٥، وشارل وعبد الرحمن ص ٥ أيضاً.
(٢) ينظر : ص ٣٨.

شاكلتهم، فهؤلاء لا يفهمون معنى الجهاد أو الفتح، ولا يعرفون ما هو الإسلام، لأنهم إنما انتموا إليه رغبة فى الغنائم"[1].

وتراه يسمى البربر "البرابرة"! [2]، " وشتان بين المعنيين، بين قبائل تسكن الأطلس والمغرب الأقصى، وبين معنى "البرابرة" التى أطلقت على القبائل الهمجية التى جاءت إلى أوربا فدمَّرتها، وأبادت مدناً وقرى، وفتكت بشعوب بأسرها، وشمل أذاها الإنسان والحيوان والنبات، حتى الجماد متمثلاً فى هدم الآثار الرومانية أينما حلّوا، فسمِّيت هذه القبائل لهمجيتها وبدائيتها ووحشيتها (البرابرة) وهم قبائل الهون والجرمان والفندال. فشتان بين المعنيين!؟"[3].

وتدفعه الرغبة فى التشهير إلى الحد الذى يجعل للبطل المسلم عبد الرحمن الغافقى الذى أوصل الإسلام إلى قلب فرنسا : خباء فيه العشرات من النساء! ويجعله يهيم فى حب فتاة له، ويتخذ قهرمانة مشرفة على خباء نسائه، وقائمة بتولية وعزل حتى الخلفاء![4] ... فهل هذه حقائق، وأين مصدرها؟!

وزعم أن المسلمين اغتصبوا من النصارى كنائسهم[5] وجعل المرجع لهذا "رينو عن أيزيدور"، ويستمر فى ذلك إلى نهاية الرواية، مع أنه يورد فى صفحات أخرى ما يناقض هذا على لسان سالمة أم مريم[6].

ولئن داهم المسلمون ديراً أو كنيسة فى سهول فرنسا، فذلك لإيقاف المقاومة المنطلقة منه، فقد كانت بعض الأديرة والكنائس حصوناً للمقاومة. وقد اعترف جورجى زيدان نفسه بذلك فى الرواية ذاتها[7].

وفى روايته (عبد الرحمن الناصر) :

وصف هذا القائد المسلم العظيم بأنه ظالم من الظالمين !!! وأنه أحد عصور الاستبداد !!!، وأن قصوره (مجالس شراب وجوارى وغلمان)!!!، وأنه

---

(١) الرواية : ص٣٨.
(٢) ينظر : ص٢٨، ٣٢٥، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٦.
(٣) جرجى زيدان فى الميزان، شوقى أبو خليل : ص١٣٦، ١٣٧.
(٤) الرواية : تنظر صفحات ٥٠، ٥٧، ٦٨، ٧٤، ٩٥.
(٥) ص٨.
(٦) ينظر ص٣٤، ٣٩، ٤٣، ٦٨.
(٧) ينظر ص١٦٤.

يعفى ضيوفه من الشراب، اما هو فسكير مدمن! ذاب فى جاريته الزهراء، وملك آلاف النساء، وهو طالب للملك متى ناله أحل لنفسه كل محرم !!!، وقد غلب حبه للزهراء على عقله وأخذ بمجامع قلبه !!![1]، و"منذ عرفها والسعد خادمه فى الحرب والإدارة السياسية"!!!؛ فأسباب انتصارات عبد الرحمن الناصر ليست عزيمته ولا إيمانه، ولا فروسيته؛ بل جاريته الزهراء! .. كل هذه الصفات ونحوها مما شوه به زيدان صورة عبد الرحمن الناصر صفات للخليفة نفسه الذى وصفه فى موضع آخر من روايته بأنه (رافع لواء الإسلام والمسلمين)![2]

كأن زيدان يوحى لقراء روايته بأن رافع لواء الإسلام والمسلمين تلك هى صورته !!!

أين الصدق التاريخى؟ وأين الأمانة التاريخية ؟ ولماذا يقلب زيدان الحقائق التاريخية التى نطقت بها مصادر التاريخ التى تحدثت عن عبد الرحمن الناصر، فذكرت ـ من بين ما ذكرت ـ أنه :

أول من لقب وزيره بذى الوزارتين، مقتديا فى ذلك بالعباسيين، لجمعه بين خطتى السيف والقلم، ففى سنة ٣٢٧هـ (٩٣٨م) لقب أحمد بن عبد الملك بن شهيد ذا الوزارتين".

وكان الوزير يقوم ببعض أعمال الحاجب إذا اشتد ضغط العمل عليه. وعمل الحاجب الإشراف على أعمال الدواوين الذين يطلق على كل منهم اسم الوزير، فكان الحاجب يقوم بعمل رئيس الوزراء اليوم، ويتولى رياسة مجلس الوزراء الذى يشرف على شؤون الدولة ..

وكلمة استبد بالأحكام ينقضها النظام القضائى الرائع فى الأندلس وعلى رأسه قاضى القضاة أو "قاضى الجماعة"، وحكمه نافذ فى جميع أرجاء الأندلس، ويشترط فى القاضى أن يكون متعمقا فى الفقه، مشهوداً له بالنزاهة والاستقامة ... ويختار قاضى القضاة من ينوب عنه فى الأقاليم، يسمى كل منهم "مسدد خاصة"[3].

---

(١) ينظر : ص ١٨٧ وما بعدها.
(٢) ينظر : ص ١٤١.
(٣) ينظر : تاريخ الإسلام ٢٦٤/٣.

وكان للمظالم ديوان خاص يعرف بديوان المظالم، وهو هيئة قضائية عليا تشبه محكمة الاستئناف فى الوقت الحاضر، ويسمى رئيس هذا الديوان "صاحب المظالم"، وسلطته أعلى بكثير من سلطة القاضى، يقول ابن خلدون عن المظالم : "وهى وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة، تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المعتدى، وكأنه يمضى ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه، ويكون نظره فى البينات "الحجج" والتقرير[1] واعتماد الأمارات والقرائن[2] وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق وحمل الخصمين على الصلح واستحلاف الشهود، وذلك أوسع من نظر القاضى".

ويعين صاحب المظالم يوماً يقصده فيه المتظلمون إذا كان من الموظفين ليتفرّغ لأعماله الأخرى، أما إذا أنفرد بالمظالم، نظر فيها طوال أيام الأسبوع، وكانت محكمة المظالم تنعقد فى المسجد.

والحديث عن نظام القضاء وديوان المظالم يطول.. وما سبق يكفى لدحض ما قاله جرجى زيدان بحق عبد الرحمن الناصر"[3].

وفى روايته (أبو مسلم الخراسانى) أجرى على لسان أبى مسلم من الافتراء ما ينبئ عن أن العرب كانوا يحتقرون غير العرب، ويسومونهم سوء العذاب، ويفتخرون عليهم بالنبوة! على أنه قد طمس معالم التاريخ الإسلامى فى هذه الرواية بالدس والإفتراء !

وفى روايته (العباسة):

شوه صورة هارون الرشيد، وفسر تصرفاته مع أخته العباسة وجعفر البرمكى وما أثير حولهما من أخبار تفسيراً لا يتفق مع ما عرف عن الرشيد من أنه كان يحج عاماً ويغزو عاماً، بل وبما لا يتفق مع أيسر قواعد التفكير والمنطق السليم.

---

(١) التقرير استقصاء البحث من الخصوم فى المسائل حتى يقروا بما يوضح وجهة نظر القاضى.

(٢) يعنى الأخذ بدلالة القرائن والعلامات التى يتبينها القاضى من حال الخصمين عند فقد الأدلة أو الشهود.

(٣) جرجى زيدان فى الميزان : ص٢٢٧، ٢٢٨.

وشوّه زيدان أيضاً سيرة الشاعر الزاهد أبى العتاهية، وجعل له فصلاً كاملاً فى إلقاء القبض عليه، وفى مكره وملاحقته للنخاسين.. بينما الحقيقة التاريخية تقول: كانت سيرة أبى العتاهية وعظا وتذكيرا للرشيد، ليس فيها عند الرشيد ما يشوبها، وليس فى حياته حتى توفى شئ مما يدعيه زيدان!

وفى روايته (أحمد بن طولون):

يصف هذا القائد المسلم مؤسس الدولة الطولونية بأنه "أمير ضعيف جبان غشوم ظالم، كان إبان حكمه يرهق شعب مصر بالضرائب، وبخاصة الخراج، وأنه قد جبن فى إنجاد منطقة النوبة! وأن أهل بلاد (البجة) فى جنوب مصر غزو البلاد فى عهده، فلم يقدر عليهم، بينما تمكن ملك النوبة النصرانى (لتمسكه بالنصرانية) من ردهم وفك الأسرى من أيديهم![1]

ومما لا شك فيه : أن كل هذا الدجل والتشويه يخالف ما قاله زيدان نفسه فى ص ١٤٠ وما بعدها، وما قاله المؤرخون عن ابن طولون، إذ ذكروا أن ابن طولون كان "بعيد النظر، عالى الهمة، قوى البأس، شديد المراس، اتسع ملكه حتى امتد من العراق إلى برقة ومن النوبة إلى آسية الصغرى، وخشى بأسه أمبراطور الروم، على ما بين بلاديهما من بعد الشقة، ووعورة الطريق، فأهدى إليه عدة مصاحف للقرآن الكريم، وأرسل إليه من تحت يده من المسلمين"[2].

"وكان ابن طولون سياسياً محنكا، وقائداً ماهراً، خبيراً بأساليب الحروب وتعبئة الجيوش كما كان إدارياً حازماً"[3].

وكانت صدقات ابن طولون على أهل المسكنة والستر من الضعفاء والفقراء وأهل التجمل متواترة .. سوى مطابخه التى أقيمت فى كل يوم للصدقات فى داره وغيرها. ويذبح فيها البقر والكباش، ويغرف للناس فى القدور والفخار والقصاع على كل قدر أو قصعة أربعة أرغفة، فى اثنين منها فالوذج والاثنان الآخران على القدر، وكانت تعمل فى داره وينادى : من أحب أن

---

(١) ينظر : ص ١٤٨ وما بعدها.
(٢) تاريخ الإسلام : ١٢٩/٣.
(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان : ٦٨/١، ٦٩.

يحضر دار الأمير فليحضر. وتفتح الأبواب ويدخل الناس، وابن طولون ينظر ويتأمل فرحهم بما يأكلونه ويحملون فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته"[1].

ولقد وقف ابن طولون على موارد الثروة على اختلافها وعرف كيف يستغلها لمصلحة دولته من غير أن يرهق الأهلين بالمكوس والضرائب، وعمل على ترفيههم ونشر العدل بينهم، فاستتب الأمن، واستقرت الأمور، وسادت الطمأنينة بين الناس، وشمل الرخاء البلاد في عهده، حتى بيع عشرة الأرادب من القمح بدينار واحد. هذا إلى تحصينه الثغور، والاحتفاظ بجيش كامل العدد والعدة، كما ضرب بسهم وافر في سبيل الإصلاح، فاهتم بالزراعة وعني بإقامة الجسور وحفر الترع.

أما أخلاقه وصفاته، فقد كان مضرب الأمثال في الكرم والجود، وفي الشجاعة والبسالة، وفي صدق الفراسة، وفي العدل والتواضع، وكان يقرب إليه العلماء، ويجزل لهم العطاء[2].

وفي روايته (فتاة القيروان) التي تحكي أخبار الفاطميين ومن عاصرهم حاول التشكيك في أنساب الكثيرين من حكام المسلمين، كما عمد إلى التشكيك في نسب المعز لدين الله الفاطمي!

وفي روايته (صلاح الدين ومكائد الحشاشين) : تلفيق وتزوير وإفساد للتاريخ، وعدم عناية بالتصوير الحي لشخصية هذا البطل المسلم العظيم، ولم يسجل مواقفه الحاسمة، ونسب إليه قصصاً غرامية باطلة! وصرف قراءه عن الحديث عن الدور المهم الذي قام به صلاح الدين بالحديث عن مكائد الحشاشين (الإسماعيلية) وتهديدهم لصلاح الدين، واعتمد على روايات تلك الجماعة الضالة المنحرفة !

اقرأ معي هذا المقطع المقتبس من الرواية، وتأمل كيف يصور شخصية هذا القائد العظيم تصويراً ترى فيه جسده المحمل بالذهب والجواهر وغيرهما من المعادن الثمينة:

"قال العم حسن : هذا هو يا صاحبي صلاح الدين الوزير، وهذا الثوب الذي عليه هو خلعة السلطة خلعها عليه هذا الخليفة نفسه منذ ثلاث سنوات،

---

(١) الخطط للمقريزي : ٣١٦/١.
(٢) تاريخ الإسلام : ١٣٠/٣.

وهى كما ترى عمامة بيضاء من نسيج تنيس لها طرف مذهب وتحتها ثوب ديبقى مطرز بالذهب وكذلك الجبة التى عليه، فإن تطريزها من الذهب، وفوق ذلك طيلسان مطرز بالذهب، وانظر فى عنقه، هل ترى العقد ؟ إنه من الجوهر يساوى عشرة آلاف دينار وإلى جانبه سيف محلى بخمسة آلاف دينار، وتحته حجرة "فرس" قيمتها ثمانية آلاف دينار، وعليها سرج مذهب وسرسار ذهب مجوهر، وفى رأسها مائتا حبة جوهر وعلى رأسها قصبة بذهب، وفيها شدة بياض بأعلام بيض، هذا هو صلاح الدين".(١)

لم يصور لنا فتوحاته، ولا بطولاته، ولا حسن عقيدته وورعه وزهده، ولم يذكر إلا هذه الصورة المتناقضة تماما مع الصورة التى أوردتها مصادر التاريخ عن صلاح الدين الذى يقول ابن كثير المؤرخ عنه : "لم يترك فى خزانته من الذهب سوى جرام واحد – أى دينار واحد – صورياً وستة وثلاثين درهما، وقال غيره : سبعة وأربعين درهما، ولم يترك داراً ولا عقاراً ولا مزرعة ولا بستاناً، ولا شيئاً من أنواع الأملاك"(٢).

ويقول عنه ابن الأثير : "وأما كرمه فإنه كان كثير البذل، لا يقف فى شىء يخرجه، ويكفى دليلاً على كرمه أنه لما مات لم يخلف فى خزائنه غير دينار واحد صورى، وأربعين درهما ناصرية.. ولم يلبس شيئاً مما ينكره الشرع"(٣).

وزيدان لا يصف صلاح الدين كلما ذكره إلا بأنه (كردى) !!

مثال ذلك :

- "وصار النفوذ إلى هذا الكردى".
- "لاستقبال ذلك الكردى".
- "لملاقاة هذا الكردى".
- "ألم يكن الوزراء هم أصحاب النفوذ، وكلهم من الأجانب الأرمن أو الأتراك، وهذا كردى، وما الفرق بينهم؟".

---

(١) رواية صلاح الدين ص١٨.
(٢) البداية والنهاية : ٤/١٣.
(٣) الكامل فى التاريخ : ٢٢٦/٩.

- "ولا يهمنا سبب وصول هذه الخصلة إلى ذلك الكردى".

- "ولنرجع الآن إلى ما كنا فيه من النجاة من هؤلاء الأكراد".

- "فهمت ما تريده، وهو نعم الرأى، ولكن هل رضى الخليفة أن يزوج أخته لهذا المولى الكردى؟".

- وقال عن صلاح الدين إنه جشع : "فبقاؤك هنا سواء أكان باسم نور الدين أم باسمك إنما هو جشع".

- وجعل وجود صلاح الدين فى مصر شراً : "يرى أبو الحسن يا مولاى أن العقدة التى يطلب حلها إنما هى يوسف صلاح الدين هذا، فإذا ذهب تخلصنا من كل هذه الشرور".

وما سبق فيه أربع طعنات :

أ- وصف صلاح الدين بجنسيته طعن لما قام به باسم الإسلام، فما وحد البلاد العربية ودفع الصليبيين باسم جنسيته، بل قام بها بدافع من دينه وإسلامه فحسب.

ب- أما سؤال زيدان : ما الفرق بين الأجانب الأرمن والأتراك والأكراد، فجوابه لا تفاضل إلا بالتقوى والعمل لصالح هذه الأمة، ويتربع صلاح الدين كمسلم على ذروة الخير والعمل العظيم لهذه الأمة، فيكفيه من الفخار والعزة : حطين وفتح بيت المقدس.

ج- أما القول عن صلاح الدين: إنه مولى، فهذا الافتراء والدس لا نجيب عليه بتعليق إلا قولنا : يحق لزيدان أن يطعن بصلاح الدين ليظهر تعصبه ضد بطل حرر البلاد من الصليبيين!!

د- أما القول بجشع صلاح الدين وشروره، فنقول :

لم يحدد زيدان ما هى الشرور التى قام بها صلاح الدين، إلا إذا كانت انتصاره فى حطين وتحرير بيت المقدس"[(١)].

وفى رواية (شجرة الدر) التى تحكى نهاية العصر الأيوبى وبداية عهد المماليك فى مصر حاول أن يصور نساء السلطان الصالح نجم الدين أيوب

---

(١) جرجى زيدان فى الميزان، شوقى أبو خليل : ص٢٥٥ "بتصرف يسير".

بصورة النساء اللاتى يتاجرن بأعراضهن، فى سبيل الحصول على ما يتطلعن إليه ![1]

وأبرز فى الرواية أيضاً ـ القائد المسلم العظيم بيبرس فى صورة من يعيش حياته كلها من أجل حبيبته (شوكار)، لأن حبه لها قد تمكن من قلبه تمكناً شديداً، فصورتها لا تغادر عينه، وحبها لا يترك قلبه حتى ومدينة (بغداد) عاصمة الخلافة العباسية محاصرة من التتار![2]

يشوه صورة بيبرس على هذا النحو بحبيبة تخيلها ذهنه السقيم ! بل ويقول عن بيبرس : - بعد سهره الطويل قلقاً على شوكار ـ "وبينما هو فى ذلك إذ سمع أذان الفجر فتوسد الفراش التماساً للراحة، وكان نومه مضطرباً متقطعاً، ولم تبرح صورة شوكار من خاطره لحظة. ولما نام رآها فى الحلم حزينة باكية تعاتبه. ولا ندرى من قصَّ على زيدان هذا الحلم ؟! وتشويهاً لحياة بيبرس قال عنه : توسد الفراش بدل قيامه لصلاة الفجر عند سماع الأذان؟!؟[3]

وفى روايته (أسير المتمهدى) :-

يسخر من اللغة العربية، مع أنها لغته التى بها يتكلم، وبها يكتب، وبها يصدر مجلته الهلال ... يسخر منها، ويتهكم عليها فيقول : (على لسان أحد شخوص الرواية) :

"يا للعجب منك يا صاح! كيف تكون شاباً ذكياً عاقلاً تعيش فى عصر التمدن، ثم لا ترتاح للتكلم باللغة الفرنسية؟! إن جميع المواطنين المتمدنين لا يتكلمون إلا بها الآن، وقد أهملوا اللغة العربية لتعقدها وصعوبة التلفظ بها، فلا يتكلم بها الآن إلا البسطاء الذين لم يتثقفوا"[4].

وقد فات على زيدان وهو يتهكم على اللغة العربية أشرف اللغات أنه أوقع نفسه فى تناقض عجيب، إذ جعل البسطاء الذين لم يتثقفوا ينطقون بالعربية مع تعقدها وصعوبة التلفظ بها، وجعل المتمدنين الذين تثقفوا بغيرها

---

(١) ينظر : ص ١٦ وما بعدها.
(٢) ينظر : ص ٥٩ وما بعدها ، ص ٩٩ وما بعدها.
(٣) نذكر هنا أن شوكار فتاة متخيلة ، كما سيأتى التفصيل.
(٤) الرواية : ص ٢٥، ٢٦ والكاتب مسئول عما يورده على لسان شخوص رواياته، لأنه هو الذى يستنطقها، ويحملها وجهة نظره وما يريد أن يبثه من سموم ونزعات وأهواء.

قادرين على التلفظ بها، لأنهم عجزوا عن تجاوز الصعوبة والتعقيد، فتكلموا بالفرنسية لغة عصر التمدن! .. المعقول طبعاً أن يحدث العكس! ثم من قال : إن العربية كما وصفها زيدان ؟!!

وفي روايته (أسير المتمهدي) أيضاً : صور الدراويش أنصار المهدي زعيم الثورة المهدية التي اندلعت في السودان بأنهم سذج بسطاء أغبياء[1]، وراح يتهكم على المهدي وعلى أتباعه بما تفصح عنه - مثلاً - هذه العبارات :

"وبعد قليل رأىأفواجا من الدراويش تسير مهرولة، ويتقدمها أربعة يحمل كل اثنين منهم آنية كبيرة من النحاس شُدَّ عليها رق من الجلد، ومعهما ثالث ينقر عليها نقرات تقلق الأذن، ولكن الدراويش يطربون لها"[2].

"هذا منشور من سيدنا الإمام المهدي صلوات الله عليه"!![3]

شفيق جاسوس للإنكليز .. يدخل أينما يشاء، ولا يلفت نظر أحد من الأنصار!! قبض عليه المهديون، فتظاهر أنه منهم مؤمن بدعوتهم حفظاً لحياته، فأحبوه، ودخل في خدمتهم .. وبدأ يتجسس للإنكليز[4].

وليس من الغريب أن يصدر هذا من زيدان، فإنه كان متضامناً فكرياً، وملتزماً روحياً مع أعداء هذه الثورة الإنجليز؛ بل كان مترجماً في قلم المخابرات بحملة (هيكس) التي أرسلت لإحباط هذه الثورة؛ بل إن شفيقاً في الرواية هو جرجي زيدان نفسه، لانطباق أوصاف شفيق عليه.

فشفيق في الرواية "من مستخدمي قنصلية انجلترا"، وشفيق في الرواية "يتقن اللغتين العربية والإنجليزية ليقوم بدور الجاسوس المترجم" الأمر الذي يؤكد أن هذه الشخصية، هي شخصية زيدان ذاته، فهو من مستخدمي انجلترا في قلم استخباراتها، وهو الذي اتقن اللغتين ليقوم بدور الجاسوس المترجم وهو الذي رافق الحملة الإنكليزية بعدها إلى السودان ... ووقع "بالإسقاط" وهو إلصاق التهم السيئة بالآخرين ليترفع عن فعلته الدنيئة العميلة فقال عن شفيق إنه مسلم ويقوم بخدمة الإنكليز !!

---

(١) ينظر : ص ١٥٢ وما بعدها.
(٢) ص ١٥٢.
(٣) ص ١٥٤.
(٤) ص ١٦٠، ١٦٢.

ومن حرصه على تشويه زعيم تلك الثورة المهدية لم يسمّ الرواية (أسير المهدى)، بل قال : أسير المتمهدى، أى الدعىّ الكاذب، أى منتحل صفة الهداية فى مرآة زيدان! ومما لاشك فيه أنه بذلك أظهر بغضه وحقده على المهدى وثورته، كما أظهر تعاطفه مع الإنجليز أعداء هذه الثورة!

وفى روايته (أسير المتمهدى) أيضا :

شوه الموقف العظيم الذى وقفه علماء الأزهر مع أحمد عرابى حيث يصورهم بما يلى[1]: "كما علم بخيت أن جماعة من المشايخ طافوا بالشوارع وعلى صدورهم مآزر ملونة، وبأيديهم مباخر وهم يهتفون داعين لعرابى وحزبه، وحبوط مساعى الأفرنج"، وتجاهل زيدان الموقف الرائع للإمام محمد عبده، حين أيد الثورة العرابية، وشارك فيها بجهده وقلمه وخطبه الوطنية الحماسية ضد الظلم والاستبداد والقهر، حتى إنه سجن ثلاثة أشهر للتحقيق، ونفى إلى بلاد الشام[2]، كما تجاهل زيدان - وهو يورخ للإسلام كما زعم - خطيب الثورة العرابية الشيخ عبد الله نديم، والشيخ محمد عليش، والشيخ حسن العدوى، وغيرهم من علماء الأزهر الشريف الذين ملأوا مصر دعوة وجهاداً ووطنية.

ويلاحظ الدارس لروايات زيدان : أنه أمام كاتب يثير - فى بعض رواياته - تلك الأحقاد والفتن التى يتمنى كل مسلم إطفاء نيرانها بين (السنة) و(الشيعة)، ويرجو كل عاقل أن يزول تقسيم المسلمين إلى سنة وشيعة، ويرجع الجميع إلى كلمة (مسلم) وكفى[3].

ويظهر سعيه لترسيخ الخلاف بين السنة والشيعة - بوضوح - فى رواياته : فتاة القيروان، أبو مسلم الخراسانى، عروس فرغانة، ١٧ رمضان، عذراء قريش، العباسة أخت الرشيد - غادة كربلاء - الأمين والمأمون، صلاح الدين ومكائد الحشاشين[4].

---

(١) ص ١٠١.

(٢) كانت إقامة الإمام محمد عبده أثناء النفى فى بيروت. وللاستزادة يقرأ محمد عبده للعقاد.
والإعلام للزركلى : ١٣٠/٧.

(٣) فتاة القيروان : ص٤١.

(٤) فتاة القيروان : ص١٠٦.

وهذه نماذج مقتبسة من روايته (فتاة القيروان) على سبيل المثال :

يقول : "وهى مهيأة قبل ولادتك وولادة سالم لمقاومة هؤلاء الغادرين وإرجاع الملك إلى أصحابه".

ويقول : "سر فى حراسة المولى فإنه آخذ بيدك فى نصرة الحق وكبت الظالمين".

ويقول : "ما بالك يا سيدى لم تدخل الجامع؟".

فقالت : سأرجع للصلاة فى فرصة أخرى، ولكن ما بال هذين الشيخين يناديان هذا النداء؟

قال : يناديان بذلك إغاظة للشيعة[1].

قالت : لعلك شيعى؟

فصاح : استغفر الله، لماذا تقول لى ذلك يا مولاى كأنك تريد أن توقعنى فى مصيبة ؟

قالت : ولماذا ؟ هل الشيعى كافر ؟

فأشار بسبابته على شفته السفلى كأنه يطلب سكوتها أو يستمهلها فى الجواب إلى فرصة أخرى، فسكتت حتى إذا دخلا فى زقاق منفرد قال الشيخ : "احذر يا سيدى أن تجاهر بأمر الشيعة لعلك منهم؟".

فقالت : نعم أنا منهم وهل من بأس على ؟

قال : "كلا، وربما هابوا لباسك وقيافتك، وأما إذا كان الشيعى فقيراً فإنهم يضربونه ويهينونه وقد يضربون الكبار ويسجنونهم ويهينونهم بلا شفقة".....

ويقول : "إن شيعتنا فى ضنك شديد، إن هؤلاء الظالمين يسومونهم سوء العذاب من الإهانة والضرب والحبس بسبب وبلا سبب"[2].

"إن شيعتنا مغلوبون على أمرهم يذوقون العذاب ألواناً من الحبس والقتل".

---

(١) السابق : ص١١٤.
(٢) السابق : ص١٢٠.

"لغير ما سبب، إنهم يسومون شيعتنا ذلك لأنها تجل أبناء الرسول، لو قصصت عليك بعض الخبر لبكيت على حالنا".

على أن زيدان جعل ليعقوب بن كلس اليهودى فصلاً كاملاً[1] ـ فى الرواية ـ ليدافع عن آل البيت، ومعه الطبيب شالوم ولنقرأ مثلا قوله فى الرواية: "ومع أنى إسرائيلى فقد صرت أعتقد أن الحق للإمام على"!؟! وعلى ـ طبعاً ـ أسمى وأجل من أن يدافع عنه يهودى ..

ومما لاشك فيه : أن من يقارن بين ما يثيره زيدان من شبهات فى رواياته، وبين ما يكتبه المستشرقون المتعصبون يجد تماثلاً يكاد يكون تاماً بينه وبينهم، فهو يقلد المستشرقين فيما أثاروه من شبهات وما نسجوه من مفتريات وأباطيل على الإسلام وتاريخه المشرق المجيد، وما زعموه بأن خلفاء المسلمين كانوا وصوليين، وأن الغاية عندهم تبرر الوسيلة ! وهو يزعم ـ مثلهم ـ أن الرهبان علموا الرسول (ﷺ)، ووصف العرب ـ مثلهم ـ بالسطو وحب الغنيمة، واتهم الإسلام ـ مثلهم ـ بأنه لا يشجع حرية الفكر والفلسفة، وأدان الرشيد مثلهم فى نكبة البرامكة !!

...... وهكذا لو رحت تفحص ما أثاره فى رواياته وتقارنه بما جاء فى كتب المستشرقين المغرضين[2] تجد أنه يقلدهم فيما زعموه، ويردد ما جاء على ألسنتهم من افتراءات !

ونحن إذ نقرر ما سبق ذكره عن مواكبة زيدان للمستشرقين لا نتجنى عليه، ولا نقول باطلاً؛ إذ كانت له ـ بالفعل صلات بالمستشرقين تؤكد تأثره بهم، وسيره فى ركابهم.

---

(١) السابق : ص١١٦.

(٢) تناولت بالتفصيل كثيراً من دعاوى المستشرقين وشبهاتهم التى أثاروها فى كتابى (أباطيل الخصوم حول القصص القرآنى : عرض ومناقشة) الصادر عن الدار المصرية للطباعة والنشر عام ٢٠٠٠، فليرجع إليه وإلى أمثاله من المؤلفات التى تناولت هذا الموضوع كل راغب فى الاستزادة.

من هذه الصلات : أنه "أدى امتحاناً فى علوم الصيدلة سنة ١٨٨١ أمام لجنة حرة تألفت فى بيروت، وكان من أعضائها الدكتور كرنيلوس فانديك الذى مات سنة ١٨٩٥"[1] والذى نشر عنه زيدان ترجمة مطولة فى مجلة الهلال وعبر عنه فى هذه الترجمة بقول : "أستاذنا".

ولقد جاء فى المقدمة التى كتبها جرجى زيدان لكتابه (تاريخ التمدن الإسلامى) : أن جماعة من المستشرقين وصفهم بأنهم أفاضل كتبوا إليه حينما قرأوا فى مجلته الهلال عزمه على تأليف هذا الكتاب يستكثرون هذا العمل الضخم، ويستغربون إقدامه على ركوبه هذا المركب الخشن.

وروى المستشرق الروسى أغناطيوس كراتشكوفسكى فى كتابه الذى سماه (مع المخطوطات العربية) ونشرته دار التقدم فى موسكو : أنه التقى بجرجى زيدان فى القاهرة.

وقرر الدكتور حسين مونس فى المقدمة التى كتبها لإحدى طبعات كتاب تاريخ التمدن الإسلامى : أن العلاقات اتصلت بين زيدان وبين طائفة من المستشرقين، مثل نولدكه، وفلهاوزن، ومارجليوث، وجولد تسيهر، وأمدروز، وسخاو، ووليام رايت، وماكدونالد.

وروت مجلة الهلال فى عدد أكتوبر سنة ١٩١٤، وهو أول عدد صدر من المجلة إثر موت زيدان : أن مستشرقاً جاء مرة لزيارته لأول مرة، فلما رآه

---

(١) جرجى زيدان لمحمد عبد الغنى حسن : ص١٧٣.

سأله : أأنت زيدان ؟ قال : نعم ..... إلى آخر ماروته المجلة من هذا الحوار.
ومالنا نذهب بعيداً وبين أيدينا رواياته ومؤلفاته الأخرى شاهدة عيان على اتصاله بهم فكرياً، حيث يذكر مصادر المستشرقين التى أخذ عنها، ويشير إليها دائماً، ويذكرها فى مؤلفاته، حتى فى رواياته التاريخية.

****

ظاهرة إثبات المراجع
فـــى روايـات زيدان

تقتضى دراستنا التاريخية لروايات زيدان أن نتوقف عند ظاهرة تمثل ملمحاً أساسياً وتقليداً ثابتاً من الملامح والتقاليد التى ألزم جورجى زيدان نفسه بها فى سبع عشرة من رواياته، بدءا من (فتاة غسان)، وانتهاء بـ(شجرة الدر)، ومروراً بما بينهما من روايات فى الترتيب التاريخى لعصور رواياته.

هذه الظاهرة هى إثباته للمراجع التى اعتمد عليها فى تأليف الرواية ووقائعها التاريخية. ويجيئ هذا الإثبات فى ظهر صفحة العنوان دائماً، ومكتوباً فى داخل مستطيل مرسوم. وإضافة إلى هذا يشير أحياناً فى أسفل الصفحات إلى مصادر المعلومات التى يذكرها، سواء كانت هذه المعلومات تاريخية أو غير تاريخية.

فمثلاً يحدد المراجع التى اعتمد عليها فى تأليف روايته (عذراء قريش) ووقائعها التاريخية بأنها : (معجم ياقوت – السيرة الأهلية – قاموس الإسلام – صفوة الاعتبار – أسد الغابة – الأغانى للأصفهانى – العقد الفريد – تاريخ الخميس – صحيح البخارى – مراصد الاطلاع – نهج البلاغة – كتب تاريخ : ابن الأثير، المسعودى، الدميرى، أبو الفداء[1]، ابن خلدون، ابن هشام).

وأنت إذ تفحص – روايته (أرمانوسة المصرية) تكتشف كثرة مراجعه التى أشار إليها، وإلى اعتماده عليها فى كتابة هذه الرواية أو فى سرد حوادثها كما يقول. مثل : الخطط للمقريزى، وتاريخ الطبرى، وتاريخ ابن خلدون، وتاريخ عبد اللطيف البغدادى، وتاريخ مصر الحديث لجرجى زيدان، ومؤلفات شامبليون ومارسيل وماريت وولكنش وشارب.

وفى هذه الرواية يحرص على المراجع أيضاً فى هوامش صفحاتها، فتراه مثلاً :

---

(١) هكذا كتبها مرفوعة بالواو !!

عندما يصف أرمانوسة وجواريها بين يديها فيهن الحبشيات والنوبيات وبعض الروميات يحيلك إلى هامش يذكر لك فيه مرجعه (ولكنسون)[1]، وتراه عندما يذكر أن البناء عليه نقوش هيروغليفية يحيلك إلى هامش يذكر لك فيه مرجعه (شارب)، وتراه عندما يصف المصراعين بأنهما من خشب الجميز يرجعك فى الهامش إلى (ولكنسون)، وتراه عندما يصف التماثيل الصغيرة وفيها أشباه أبى الهول والجعلان من الذهب والفضة، يذكر لك ثلاثة مصادر هى (شامبليون) و(ماريت) و(ولكنسون)!

ويحدد المراجع التى اعتمد عليها فى تأليف (فتاة القيروان) ووقائعها التاريخية بأنها : (تاريخ المقدسى – معجم ياقوت – تاريخ ابن خلدون – تاريخ اليعقوبى – تاريخ المقريزى – تاريخ ابن خلكان).

ويحدد المراجع التى اعتمد عليها فى تأليف (الحجاج بن يوسف) ووقائعها التاريخية، بأنها (صفوة الاعتبار – مراصد الاطلاع – الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى – التقويم العام – البيان والتبيين – تاريخ : ابن هشام، ابن الأثير، الدميرى، ابن خلكان، الفخرى – المستطرف – الدر المنثور – مشكاة المصابيح – البخارى – مقدمة ابن خلدون – أسد الغابة – العقد الفريد).

ولا يكتفى بذلك؛ بل يحرص على ذكر هذه المراجع فى أسفل (هامش) صفحات الرواية، فهو مثلاً يذكر كتاب الأغانى للأصفهانى – كمرجع – فى صفحتين متتاليتين[2]، ويشير فى صفحتين ثانيتين إلى المرجع نفسه أكثر من خمس مرات [3]. ويشير إلى المرجع نفسه أكثر من ست مرات فى صفحة واحدة[4]، وعند حديثه عن علاقة (سكينة بنت الحسين) رضى الله تعالى عنه بالشعراء فى الرواية ذاتها يشير إلى (الدر المنثور) و(مشكاة المصابيح)[5]، وتتكرر الإشارة إلى المراجع فى هوامش الرواية، وغيرها ويلتزم بهذا التقليد فى بقية الروايات باستثناء : استبداد المماليك، والمملوك الشارد، وأسير المتمهدى، والأنقلاب العثمانى، وجهاد المحبين.

---

(١) ينظر : الرواية ص ٩، ١١.
(٢) ينظر : الرواية ص١١، ١٢ ط دار الهلال ١٩٠٩.
(٣) ينظر : ص٤٢، ٤٣.
(٤) ينظر : ص٤٤.
(٥) ينظر : ص٤٥.

وقد لفتت هذه الظاهرة أنظار الباحثين، فكانت لهم تعليقات متنوعة عليها، تحتاج منا إلى تعليق عليها، وإلى تعليق خاص بنا على الظاهرة نفسها.

فالدكتور محمد حسن عبد الله، يعدُّها مظهراً من حرص المؤلف على إرضاء القارئ المثقف، أو – على الأقل – عدم إغضابه وإثارة شكوكه فى بعض الحقائق التاريخية التى يشوهها، وبعض النعوت التى يطلقها على بعض الشخصيات، أو بعض الحوادث التى تنسب إليها[1].

والدكتور حسين نصار يعدها نتيجة لإعلان زيدان أكثر من مرة أنه توخى التاريخ فى رواياته، واتخذ منه عمدة له، خضع لحكمه ولم يخضعه للمقتضيات الفنية، ولم يدع للخيال مجالاً للتلاعب به[2].

والأستاذ/ محمد عبد الغنى حسن يعدّها ميزة تحسب لجورجى زيدان، ويعلل ذلك بأن زيدان قد تعود فى مؤلفاته غير الروائية "الرجوع إلى المصادر، فعزّ عليه أن يسقطها من حسابه، حتى وهو يؤلف رواياته التاريخية"، وقرر الأستاذ محمد عبد الغنى حسن أن هذه الظاهرة تؤكد غلبة الصفة العلمية ونزعة العلماء الأصلاء لدى زيدان[3].

واعتبر الدكتور عبد المحسن طه بدر، وآخرون نقلوا عنه إشارة زيدان إلى المراجع التى استمد منها مادته العلمية، وكأنه يكتب حقاً مرجعاً فى التاريخ من مظاهر حرصه على الدقة التاريخية فى رواياته[4].

والواقع : أننى أتفق مع الأستاذ محمد عبد الغنى حسن فيما قرره بخصوص دلالة هذه الظاهرة على تغلب الصفة العلمية على زيدان. لكنى لم أعد إثبات المراجع فى الروايات التاريخية ميزة يحمد عليها صاحبها، لأن الرواية عمل أدبى حتى لو كانت مادته هى التاريخ، وكون الرواية بهذه الصفة وتلك الخصوصية فإنها لا تفتقر إلى تسجيل قائمة بالمراجع التى اتكأ المؤلف عليها فى سرد وقائعها التاريخية، ونحن نريد للروائى أن يكون ذا صفة أدبية فنية، لا صفة علمية مقررة.

---

(١) ينظر : تقديمه لرواية (فتاة القيروان).
(٢) ينظر : تقديمه لرواية (فتاة غسان).
(٣) ينظر : جرجى زيدان لمحمد عبد الغنى حسن : ص٦٢.
(٤) ينظر : تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر : ص١٠٢.

وأتفق مع الدكتور عبد المحسن طه بدر فيما أشار إليه من تغلب صفة المؤرخ على زيدان فى هذه الروايات، لأننا أمام عمل أدبى لا مبحث من مباحث التاريخ. لكننى أختلف مع الدكتور بدر فى اعتبار هذه الظاهرة مظهراً من مظاهر الدقة التاريخية فى روايات زيدان؛ لأن هذه الدقة لا تثبت لزيدان فى كل الأحوال كما أوضحنا ذلك فى موضعه. اللهم إلا إذا كان الدكتور بدر يعنى أن زيدان كان يحاول بهذا النهج أن يعطى قراء رواياته مزيداً من الإيهام بصدقه التاريخى ودقته التاريخية، وأنه يكتب فعلاً روايات صحيحة تؤرخ للإسلام وتحبب هذا التاريخ إلى الناس.

وأنتقل إلى تعليقى الخاص على تلك الظاهرة فأذكر أول ما أذكر أنك لو دققت فيما يذكره زيدان من مراجع المادة التاريخية التى تحتويها رواياته ستكتشف أنه لا دراية له – إطلاقاً – بما يسميه الباحثون فى التاريخ بـ(منهج البحث التاريخى). ويتمثل ذلك فى اتكائه على كتب شك المؤرخون فى صحتها، بل وعرفوا كذبها ومجونها[1]، مثل كتاب (الأغانى) لأبى الفرج الأصفهانى، الذى جعله زيدان مصدراً من مصادر الوقائع التاريخية التى سردها فى جملة من رواياته كفتاة غسان، وعذراء قريش، وغادة كربلاء، والحجاج بن يوسف، والعباسة أخت الرشيد.

ولو لم يكن زيدان متخصصاً فى علم التاريخ بدليل كثرة مؤلفاته فيه لعذرناه فى ذلك؛ لكنه متخصص فى علم التاريخ، ومن المؤكد – بحكم تخصصه- أنه كان على دراية بأن الأغانى لا يعد من المصادر التاريخية الموثوق فى صحة كل ما جاء فيها، لأن الأصفهانى متهم عند الكثيرين من الأدباء والمؤرخين فى أمانته الأدبية والتاريخية.

فعلى سبيل المثال : جاء فى كتاب (ميزان الاعتدال فى نقد الرجال) لأبى عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى : أن الأصفهانى – فى كتابه الأغانى

(١) من يقرأ كتاب الأغانى يلمس أخلاقيات مؤلفه الأصفهانى أو (الأصبهانى)، كما يلمس عنايته الفائقة بأحاديث اللهو والمجون والغناء؛ بل إنه ليعنى بذلك فى كل ما تركه من مؤلفات مثل (أخبار القيان) و(كتاب الخمارين والخمارات) و(كتاب الغلمان والمغنين)!

كان يأتى بالأعاجيب بـ (حدثنا) و(أخبرنا)[1].

وجاء فى (لسان الميزان) : أن الأصفهانى شيعى – وهذا نادر فى أموى[2] – يأتى بأعاجيب بـ (حدثنا) و(أخبرنا)، ثم أورد قول الذهبى الذى سبق ذكره.

لذلك كان من الخطأ الفادح أن يعتمد مؤرخ أو روائى أو باحث على هذا الكتاب المملوء بمعلومات تاريخية وأدبية مرفوضة؛ بل مدحوضة لدى المؤرخين والنقاد الثقات.

وانتقادنا لزيدان فى الأخذ عن (الأغانى) يقودنا بطبيعة الحال إلى انتقاده فى عدم نقد المصادر التى عاد إليها، وعدم تحديده لدرجة نزاهتها، وهو أمر جعلنا نحس بأننا أمام كاتب ليس له من هدف سوى المسارعة الكاذبة المموهة إلى إبراء ذمته أمام قرائه مما يذكره من مادة تاريخية ينقلها من هذه المصادر!

صحيح أن ذلك ينافى أسلوب الكتابة الفنية فى الرواية وغير الرواية، وصحيح أن النقد التاريخى للمصدر ليس مطلوباً من الروائى؛ لكن مجرد ذكر المصدر ليس مطلوباً منه كذلك بالدرجة نفسها. وهذا يعنى أن جرجى زيدان قد ورّط نفسه بذكر المصادر، وبعض هذه المصادر – كما سبق البيان – ليس فوق الشبهات.

هناك تعليق ثان على تلك الظاهرة، هو أن زيدان الذى يوهم قراءه بأنه يعتمد فى تأليف الرواية وسرد وقائعها التاريخية على مراجع التاريخ لا يجيد التعامل مع تلك المصادر تعاملاً يتفق مع الموضوعات التى يصورها روائياً ويكفى أن نستدل على هذا بروايته (أرمانوسة المصرية أو فتح مصر) التى ادعى أنها تتضمن تفاصيل فتح مصر والإسكندرية على يد عمرو بن العاص فى صدر الإسلام... الخ.

---

(١) ينظر : الكتاب : ١٢٣/٣، ١٢٤ تحقيق على البجاوى.

(٢) الأصفهانى : هو على بن الحسين بن محمد بن الهيثم بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الله بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف أبو الفرج الأصفهانى أو الأصبهانى.

ففى هذه الرواية شخصيتان تاريخيتان تمثلان الدعوة الإسلامية فى قمة مدها وعنفوانها هما (عمرو بن العاص)، و(عبادة بن الصامت). ولا ريب أن استقراء النص التاريخى عن الفتح الإسلامى لمصر، يثير فى ذهن القارئ المتذوق للرواية تداعيات تكشف عما اعتور خيال المؤلف من ضيق ناجم عن عدم براعته فى التعامل مع المصادر التاريخية التى تناولت هذا الفتح، فقد نقل المؤلف عن المقريزى وصفه لشخصية (عمرو بن العاص) مكتفياً بهذه الشذرة من المعلومات، فيقول عنه : "قصير القامة، وافر الهمة، أدعج، أبلج، عليه ثياب موشاة كأن بها العقيان، تأتلق عليه حلة وعمامة وجبة". الرواية ص ١٣٥

ويفعل الشىء ذاته فى تصويره لشخصية (عبادة بن الصامت)؛ إذ ينقل ما جاء به المقريزى فى وصفه لشخصية ابن الصامت. وتجاهل وأغفل مؤرخاً أهم وأقرب زمنياً إلى المرحلة التى تتناول الرواية أحداثها وهو المؤرخ المصرى عبد الرحمن ابن عبد الحكم (١٨٧ – ٢٥٧هـ) الذى عالج أحداث الفتح الإسلامى لمصر بأسلوب القصص التاريخى[1] الذى تغلب عليه سمة الأدب أكثر من خاصية التاريخ وتميز عما عداه من المؤرخين بالقدرة على العرض القصصى والوصف فى الوقت الذى نقل فيه زيدان شذرة من المعلومات عن المقريزى، واعتمد فى مكونات الصورة الروائية (الأحداث القصصية) على مقدمة ابن خلدون فى مواضع كان ينبغى الاعتماد على سواه من المؤرخين فى هذا الموضع بالذات !

ونحن لا نقصد بالطبع طعناً فى مكانة ابن خلدون لأنه ليس مجال حديثنا، ولأن مكانة ابن خلدون التاريخية لا يشك فيها اثنان. إنما نقصد ما سبق التلميح إليه من أن جرجى زيدان كاتب لا يعرف من أين تؤكل الكتف بالنسبة للمصادر التاريخية الأقرب زمناً إلى الرواية، والأنسب منهجاً وطريقة فى تصوير الأحداث التى تتناولها الرواية. فزيدان – كما قلت – لم يستثمر منهج ابن عبد الحكم فى إطلاق خياله الخالق من خلال اعتماده على المادة التاريخية التى جاء بها ابن عبد الحكم ليضيف رؤاه إلى الواقع التاريخى الماثل. بمعنى أنه

---

(١) اسم كتابه (فتوح مصر وأخبارها) وهو أول كتاب تاريخ محلى مكتوب لبلد من البلاد الإسلامية على ما نعلم، كما أنه من ناحية أخرى أقدم المصادر التى وصلتنا عن هذه الفترة.

يتخذ من الواقع (الماثل) نقطة انطلاق يتسع فيها خياله ليستوعب "المثال" الذى يستلهم ما دته من هذا الواقع[1].

وهناك تعليق ثالث على تلك الظاهرة، هو أن زيدان الذى يوهم قراءه باعتماده فيما يذكر على مراجع التاريخ، يتلاعب بالمادة التاريخية الواردة فى هذه المراجع حين ينقلها إلى رواياته.

ومن مظاهر هذا التلاعب، أنه حين ينقل فقرة من مرجع يشير إليه ينقل هذه الفقرة مشوهة بما يحدثه فيها من دجل وتحريف. وليته يقف عند هذا الحد، وإنما لا يذكر رقم الصفحة التى وردت فيها هذه الفقرة، ولا البيانات الخاصة بطبع الكتاب زماناً ومكاناً، ولا يذكر رقم الجزء إذا كان الكتاب منشوراً فى أجزاء.

مثال هذا : حذفه لاسم (يزيد بن أبى سفيان) من بين القواد الأربعة الذين أرسلهم سيدنا أبو بكر الصديق لفتح بلاد الشام، ووضع أبى سفيان بن حرب مكانه. وإشارته إلى أن ذلك قد ورد فى تاريخ ابن الأثير[2]، دون أن يذكر رقم الصفحة، ولا شيئاً مما سبق ذكره .. الأمر الذى يؤكد أنه لا يسعى إلا إلى إيهام قرائه بموضوعيته ودقته وأمانته ليس غير! وما هو بالصادق ولا الموضوعى ولا الدقيق ولا الأمين !

وهناك تعليق رابع على تلك الظاهرة، هو أنك لو رحت تبحث فى داخل الرواية عن مراجعها التى ينص عليها زيدان فى الصدارة لم تجد إلا ضرباً من التمويه الكاذب والطلاء الزائف والسراب اللامع الذى يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجد إلا ما يصوره لك مثال يغنى عن عشرات الأمثلة هو مسألة النص على المراجع فى روايته (شارل وعبد الرحمن)، فقد ذكر فى صدارتها أن مراجعه فيها هى : ابن الأثير، جوبون، أبو الفداء، رومى، رينو، دوزى، المقرى، مختصر الدول، فيسفوروس، نفح الطيب، نهاية الأرب فى قبائل العرب، رينو ورومى، البيان والتبيين للجاحظ.

---

(١) ينظر : الرواية التاريخية فى الأدب العربى الحديث، د/ قاسم عبده قاسم وآخر : ص ٤٢ وهامشها.

(٢) ينظر : فتاة غسان ١٥٦/٢ وهامشها.

وعلى الرغم من هذا فإنه فى داخل الرواية لم يرد فى الحواشى ما يتطابق تطابقاً تاماً مع ما هو فى صدر الرواية من مراجع.

فقد ذكر "جوبون" فى مراجعه، ولكنه لم يشر إليه فى الحواشى على الإطلاق، وذكر (أبا الفداء) ولكنه لم يشر إليه، ولا إلى تاريخه المسمى (البداية والنهاية) فى الحواشى أبداً ! وكذلك لم يشر فى الحواشى إلى (مختصر الدول) ولا إلى المرجع الذى دونه باسم (فيسفوروس)!

ثم إن المقارنة بين الحواشى (الهوامش) والثبت الذى فى الصدر يدلك على أنه قليل الاتكاء فى المادة التاريخية على المراجع العربية، كثير الاعتماد على المراجع الأجنبية المعروف مؤلفوها بالتعصب ضد الإسلام، وبمجانبة الحقيقة والموضوعية فى البحث التاريخى من أمثال : رينو، رومى، دوزى، جوبون، فيسفوروس!

ومما يؤكد قلة اتكائه على المراجع العربية ما تراه فى الرواية التى نحن بصدد الاستشهاد بها من ذكره لابن الأثير مرة واحدة فحسب[1] وذكره للبيان والتبيين مرة واحدة أيضا[2] وذكره لكتاب (نهاية الأرب فى قبائل العرب) مرة واحدة أيضاً[3] وذكره للمقرى مرة واحدة[4] ولكتابه نفح الطيب مرة واحدة[5]، مع ملاحظة أنه يذكرهما وكأنهما مرجعان منفصلان ! ومع ملاحظة أنه فى هاتين المرتين اليتيمتين يذكرهما لخبر واحد سنفصح عنه بعد قليل.

صحيح أنه ذكر (دوزى) مرة واحدة؛ لكنه عاد إلى (رومى) عشر مرات[6]، وإلى (رينو) تسع مرات[7]، ثم عاد وذكر من المراجع (رينو) و(رومى) معاً، وقد ذكرا قبلاً. فيكون نصيب (رومى) إحدى عشرة مرة، ونصيب (رينو) عشر مرات !

وتجدر الإشارة إلى أنه أشار فى داخل الرواية إلى عودته إلى كتابه

---

(١) ينظر : ص٢٩٩ منشورات لجنة التأليف والنشر والترجمة، بيروت.
(٢) ينظر : ص٤٤.
(٣) ينظر : ص١١٠.
(٤) ينظر : ص٢.
(٥) ينظر : ص٢٩٨.
(٦) ينظر : صفحات ٨، ١٤، ٣٧، ٦٠، ١١٠، ١٦٤، ٢٦٧، ٣٢٠، ٣٢٤، ٣٣١.
(٧) ينظر : صفحات ٨، ١٠، ٣٧، ٤٧، ٦٠، ٩٧، ١٠٩، ١٥٤، ١٦٣.

(تاريخ التمدن الإسلامى) ثلاث مرات[1]، لتثبيت أقوال له !

كذلك تجدر الإشارة إلى أن الخبر الواحد الذى استقاه من نفح الطيب هو "عزم المسلمين على مواصلة الفتح فى أوروبا، حتى يعودوا إلى الشام من طريق القسطنطينية"، وأنه عاد إلى (نهاية الأرب فى قبائل العرب) ليذكر أن (عبد الرحمن الغافقى من قبيلة بنى غافق، وهى قبيلة يمنية. وأنه عاد إلى البيان والتبيين للجاحظ ليذكر أنه فى جملة جيش الإسلام جنداً من البربر، وجماعات من الصقالبة والجراجمة والأقباط والأنباط وغيرهم، ويتبعها بقول الجاحظ : "وفيهم من لا يزال على اليهودية أو الوثنية أو المجوسية، وإنما يتظاهرون بالإسلام". "وهذا الكلام مرفوض، لأن المسلمين لا يتعاملون مطلقاً مع وثنية أو مجوسية، ولا يعترفون بهما فى الأصل، لأنهما ليستا من أهل الكتاب"[2].

وهناك تعليق خامس : هو أنك تراه فى بعض الروايات التى ملأ صدرها بكم هائل من المراجع منها العربى ومنها الأجنبى لا يحدد فى داخل الرواية ما الذى أخذه من هذا المرجع أو ذاك !

خذ لذلك مثلاً من روايته (فتاة غسان) التى أورد لها خليطاً من المراجع بين الطبرى وصموئيل شارب، وإسحاق الكندى، ودائرة المعارف البريطانية، وابن الأثير وجون مرى، والمسعودى وملبطرن، والمقريزى وسيريل، والنويرى ونوركهارت، وياقوت الحموى وفوشيه، وابن هشام وأدنتن، وابن خلدون والواقدى، والأغانى للأصبهانى، وصنلجة الطرب.. هذا الخليط المتنوع من المراجع لا يحدد زيدان : ماذا أخذ من هذا، وماذا أخذ من ذاك! وفى الخليط ما فيه من مراجع تتناول التاريخ العربى، ومراجع تتناول التاريخ البيزنطى، ومراجع تتناول المذاهب المسيحية!

وخذ مثلاً ثانياً من روايته (١٧ رمضان) التى نصّ فى صدرها على أن مراجعه فيها هى :

* تاريخ ابن الأثير   * أسد الغابة

---

(١) ينظر : ص١٤، ٤٢، ٤٩.

(٢) جرجى زيدان فى الميزان، شوقى أبو خليل : ص١٢٨، ١٢٩.

* التقويم العام
* مروج الذهب للمسعودى
* تاريخ الخميس
* تاريخ المقريزى
* السيرة الحلبية
* تاريخ ابن دقماق(1)

ولكنه يُظهر دجله فى إيراد هذه المراجع، عندما نقلب الرواية فلا نجد تخريجاً لقول ! ولا سنداً لحادثة ! ولا إشارة إلى مرجع !

وهناك تطبيق سادس هو : أن زيدان يحرص على ذكر المراجع التاريخية فى مواضع لا تستأهل ــ علمياً ولا موضوعياً ــ أن يشار إلى مصدره فيها!

وهناك تطبيق سابع : هو أن زيدان الحريص على ذكر المراجع لما يسرده من معلومات تاريخية ليحقق لدى قرائه مزيداً من الإيهام بصدقه التاريخى لم يعر أدنى اهتمام للمصادر الدينية والمراجع ذات الصلة الوثيقة والصحيحة بالعقيدة الإسلامية مثل كتب التفسير والفقه المعتمدة .... الأمر الذى حمل باحثاً مثل الدكتور سيد حامد النساج إلى التساؤل فى غرابة ودهشة : كيف يمكن لجورجى زيدان أن يكتب عن الإسلام وقادته وتاريخه وفرقه، دون أن يكون مسلحاً بأدوات ومعارف خاصة معمقة فى هذه الناحية؟!(2)

والجواب : أن زيدان كان مسلحاً بما أشار إليه الدكتور النساج ... يشهد بذلك بعض ما كتبه فى مؤلفاته غير الروائية مثل (تاريخ التمدن الإسلامى)؛ لكنه فى رواياته ذهب مذهباً آخر، فكان منه ما كان من دجل وتحريف وتزييف وتلاعب بمصادر التاريخ(3)!

وهناك تطبيق ثامن هو أن زيدان يستخدم طريقة عجيبة فى إثبات المراجع بصدر الرواية، فتارة يذكر اسم المرجع دون ذكر صاحبه، وتارة يذكر المؤلف ولا يذكر كتابه، مع أن المؤلف قد يكون له أكثر من كتاب!!! وهنا يقع الإنسان فى حيرة : أى كتاب للمؤلف يقصده زيدان؟! فإذا أضفنا إلى ذلك عدم تحديده للطبعة والصفحة والجزء زادت الحيرة واتسع التساؤل : أية صفحة

---

(1) يلاحظ أنه فى هذه الرواية : استبعد كل كتب المستشرقين.

(2)، (3) ينظر : بانوراما الرواية العربية الحديثة للدكتور سيد حامد النساج : ص١٨٠ ط دار غريب للطباعة ــ الطبعة الثانية.

يقصدها ؟! وأى جزء من الكتاب إذا كان متعدد الأجزاء يحيل إليه؟! وأية طبعة عاد إليها؟؟!

والواقع : أنه لم يفعل ذلك سهواً، أو اختصاراً، أو اعتماداً على شهرة المرجع، ولا فعل ذلك جهلاً بقواعد البحث العلمى الخاصة بمسألة رصد المصادر والمراجع بكل بياناتها !

إنه قد فعل ذلك عمداً مع سبق الإصرار، دفعته إليه الرغبة فى التمويه على الفاحص، والتغطية على تحريفه ودجله وطمسه للحقائق.

وتجدر الإشارة – فى هذا الصدد – إلى أنه بعد إصداره الجزء الأول من كتابه (تاريخ التمدن الإسلامى) طلب منه ذكر المصدر، ومن ذلك اليوم صار يكتب أسماء الكتب دون ذلك مما سبق بيانه.

وهناك تعليق تاسع هو أن تلك المراجع التى ينص عليها لا تتغير إلا نادراً جداً، وتكاد تكون ثابتة فى كل رواية من هذه الروايات، وإن اختلفت المرحلة التاريخية، وإن تباينت البيئة الجغرافية : مصر أو الأندلس أو دمشق أو الجزيرة العربية، قبل ظهور الإسلام وبعده !

إن مراجعه تكاد لا تخرج عن الكتب التالية :

مؤلفات المستشرقين المتعصبين – الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى – تاريخ ابن خلدون – تاريخ المقريزى – تاريخ الطبرى – تاريخ المسعودى – العقد الفريد لابن عبد ربه – نفح الطيب للمقرى – تاريخ ابن الأثير – معجم ياقوت الحموى.

ونادراً ما نصادف دراسات اجتماعية أو اقتصادية أو فكرية أو بيئية أو دينية.

وهناك تعليق عاشر هو تجاهل ذلك الذى يوهمنا بصدقه التاريخى إلى الإشارة إلى المرجع، حتى لو كان الأمر خطيراً يستلزم تلك الإشارة، ويقتضى التأكيد والتثبت من مصدر هذا الأمر الخطير!

مثال هذا أنه أيد دون تحقيق فى روايته (العباسة أخت الرشيد ونكبة البرامكة) القصة المفتعلة التى تربط بين نكبة البرامكة وخرافة زواج العباسة

بنت المهدى من جعفر البرمكى زواجا أثمر أولادا منه!

بنى زيدان الرواية على هذا الأساس، دون ذكر المراجع التى اعتمدها، وعلى خلاف طريقته فى ذكر المراجع لأمور غير خطيرة!

ولقد كان حريا بزيدان لو كان مخلصا فى عمله أن يلتزم بما قرره المؤرخ العظيم ابن خلدون الذى نبه إلى كذب هذه القصة، وأسقطها من حسابه، وقال فى أسباب نكبة البرامكة:

" ... ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة فى سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه، وأنه لكلفه بمكانهما من معاقرته إياهما الخمر أذن لهما فى عقد النكاح دون الخلوة حرصا على اجتماعهما فى مجلسه، وأن العباسة تحيلت عليه فى التماس الخلوة به، لما شغفها من حبه حتى واقعها، زعموا فى حالة سكر، فحملت ووشي بذلك للرشيد، فاستغضب" (١) ثم قال: " وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموال الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه، ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه، فعظمت آثارهم وبعد صيتهم، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عن سواهم، من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم، وانبسط الجاه عندهم، وانصرفت نحوهم الوجوه، وخضعت لهم الرقاب، وقصرت عليهم الآمال وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء، وتسربت إلى خزائنهم فى سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية، وأفاضوا فى رجال ا لشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوقوهم المنن، وكسّبوا من بيوتات الأشراف المعدوم وفكوا العانى، ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم، واستولوا على القرى والضياع من الضواحى والأمصار فى سائر الممالك، حتى آسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة وأغضوا أهل الولاية، فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد، ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية، حتى لقد كان بنو قحطبه أخوال جعفر من أعظم

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ٢٢٩/١، ٢٣١، وينظر: ضحى الإسلام لأحمد أمين: ٤٤/١ الطبعة الأولى.

الساعين عليهم". [1]

إن عبارة ابن خلدون السابقة من شأنها فى تقديرى أن تدحض وترفض أى تعليل آخر لقتل البرامكة مما قاله المؤرخون غير ابن خلدون، ومابنى عليه زيدان روايته. فلماذا لم يأخذ زيدان بكلام ابن خلدون؟ ألأنه أقوى مما قرره ابن خلدون - ومثله ا بن الأثير والطبرى وابن خلكان - أم لأنه صادف هوى، ووافق رغبة جامحة فى التمزيق والتشويه، والأخذ بالروايات الضعيفة والمختلفة؟

أعتقد: أن الجواب أصبح الآن معروفا.

ثم هناك أمر حرىّ بنا أن نذكره بخصوص هذه القضية هو أن العالم الجليل الدكتور مصطفى جواد رحمه الله قد تحقق من كذب هذه الرواية معتمداً التسلسل التاريخى لحياة العباسة أخت الرشيد. وجاء فى كتابه: سيدات سيدات البلاط العباسى ص ٣٧-٤٣ مايلى: خطب العباسة إلى أبيها الخليفة المهدى، عظيم من عظماء بنى العبّاس بن عبد المطلب والى البصرة يومئذ، فزوجه إيّاها وحملت إليه إلى البصرة وإذا كانت ولاية المهدى للخلافة سنة ١٥٨ هـ علم أن انتقال العبّاسة إلى البصرة كان بعد هذه السنة أي كان زواجها سنة ١٥٩هـ.

وتوفى محمد بن سليمان سنة ١٧٣هـ فى خلافة الرشيد، ثمّ زوج أخته بابراهيم بن صالح بن على العباسى، وهو ابن عمّ زوجها الأول، وذو القرابة القريبة من الرشيد. وعلى كون العباسة قد تزوجت زوجين من بنى العباس، ودخلت فى عصمتهما الواحد بعد الآخر، أذيعت عليها فى التواريخ قصة باطلة هى قصة اتصالها بجعفر بن يحيى البرمكى.

ونحن نؤيد هذا الرأى كلّ التأييد، إظهاراً للحق ودحضاً للباطل.

ومثال ذلك أيضاً ما تراه فى روايته (عبد الرحمن الناصر) من إشاراته مرات كثيرة فى فصولها إلى أن الولاة والأمراء المسلمين لم يكونوا يرغبون فى اقتناء كتب الفلسفة، مراعاة للدين؛ على ما يفسره الفقهاء فى ذلك العهد.

يقول مثلاً - وهو بصدد حديثه عن الأمير عبد الله - "وقد رأيت فيما

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ٢٣١/١.

تقدم إنكاره أمر هذه الكتب على أخيه حينما قيل له : إن أخاه يقتنيها. وكان ذلك الاعتقاد شائعاً فى العالم الإسلامى مسايرة لما يريده الخلفاء، وهؤلاء كانوا ينكرون أمر هذه الكتب مراعاة للدين على ما يفسره الفقهاء فى ذلك العهد. وكان رجال السلطة يراعون أقوال الفقهاء احتفاظاً بنفوذهم لدى العامة" ص ١٢٩.

هذه المعلومة الهامة، وهذا المبدأ الخطير لم يشر المؤلف إلى مصدره، فى الوقت الذى يشير إلى مرجع معلومة ليس لها شأن ولا قيمة !!

ومن الغريب حقاً أنك تراه أحياناً يكتب عشرات الصفحات عن الأمر الواحد، ولا يشير إلى مرجعه، ثم تراه يكرر الأمر نفسه ولا يطيل فيه، ويشير إلى مرجعه !

خذ لذلك مثلاً من روايته (عبد الرحمن الناصر) أيضاً حيث تراه يصف شخصية (الأمير عبد الله) طوال مائة وثلاثين صفحة بالتقوى والورع والتصوف، دون الإشارة إلى مرجع واحد. ونحن لا نلومه على هذا باعتبار أن ذكر هذه الصفات فى العمل الفنى لا يحتاج إلى إحالة على مراجعها؛ لكن الذى نلومه عليه هو أنه عاد ليؤكد أن الأمير عبد الله (كان مشهوراً بالتقوى والزهد حتى سموه الزاهد) وأشار فى هامش الصفحة إلى أن مرجعه فى ذلك هو (المقرى) الجزء الأول ! [1]

والغريب أيضاً : أن زيدان قد يذكر فى ثبت المراجع للرواية أو فى هوامش الصفحات من المراجع ما لا يمت بصلة إلى الموضوع ومرحلته التاريخية، والبيئة التى تدور فيها أحداثه !

خذ لذلك مثلاً من روايته (عبد الرحمن الناصر) – أيضاً – حيث لا ترى "أحداثاً تاريخية بالمعنى المعروف للتاريخ، والكاتب نفسه لم يعتمد من كتب التاريخ على كتاب نزعم أنه مصدر أصيل أو مرجع موثوق فيه. وإن كان قد ذكر أنه رجع إلى أحد عشر مرجعاً؛ فإننا نلاحظ أنه لم يشر إلا إلى (نفح الطيب) الجزء السابع، و(المقرى) الجزء الأول، و(طبقات الأطباء) الجزء الاول،

---

(١) كان الأحسن مادام قد ذكر المرجع أن يذكره باسمه، لا أن يذكر اسم المؤلف فقط.

و(الأمالى) الجزء الأول، وذلك فى مسائل ثانوية عادية بسيطة لا علاقة لها بالتاريخ، وفى أربعة هوامش على وجه الخصوص. ولم يكن ثمة ما يدعو إلى ذكر هذه المراجع، ولا إلى تلك الهوامش، ولا إلى قائمة المصادر التى شغلنا بها فى صدر الرواية"!![1]

هذا ولم يقف زيدان عند حد الإشارة إلى المصادر التى استقى منها مادته، بل جعل من بعض رواياته مراجع لبعضها الآخر، فيشير – مثلاً – فى صدر روايته (العباسة أخت الرشيد) إلى أنه ذكر مقتل (أبى مسلم الخراسانى) فى رواية أخرى.

كذلك جعل من مؤلفاته الأخرى مراجع لبعض رواياته، فعلى سبيل المثال يذكر من المراجع الهامة لروايته (صلاح الدين).

- تاريخ التمدن الإسلامى لجرجى زيدان.
- مجلة الهلال مجلد ١٩، ومؤسسها كما هو معلوم جرجى زيدان.
- تاريخ مصر الحديث لجرجى زيدان !!
- ورحلة لـ Burckhard أصدرها فى لندن عام ١٨٢٢ تحت عنوان :

Travels in Syria and Holyland London 1822.

على أنه قد ذهب مذهب المغالين حين زعم أنه "يصح الاعتماد على ما يجئ فى الروايات من حوادث التاريخ، مثل الاعتماد على أى كتاب من كتب التاريخ من حيث الزمان والمكان والأشخاص"!![2]

ومن شواهد تصريحاته بأن رواياته تعد مراجع فى التاريخ لمن أراد : ما صرح به فى كلمة له عن روايته (أسير المتمهدى) التى وصفها بأنها تتضمن الثورة العرابية فى مصر والثورة المهدية فى السودان مع أن أحداث هذه الرواية حقيقية إلى درجة أنه يعدها من المصادر التاريخية التى لايقل الاعتماد عليها عن الاعتماد على أصدق التواريخ[3].... هكذا قال !

(١) بانوراما الرواية العربية الحديثة، د/ سيد حامد النساج : ص١٨٩.
(٢) جاء ذلك فى تقديمه لروايته عن (الحجاج بن يوسف).
(٣) مجلة الهلال : عدد ١٨٩٩/٣/١٥ ص٣٦٧، ٣٦٨ تحت عنوان (أسير المتمهدى).

والواقع أن زيدان فى تلك المغالاة فات عليه أن رواياته بما حشاها من الدجل والتزييف والأخطاء قد صارت فاقدة لتلك السمة التى يتحدث عنها ويدعيها!

فعلى سبيل المثال المؤكد لما نقول، نذكر أن الأحداث التاريخية التى أوردها مجملة فى روايته (١٧ رمضان) ابتداء من تعاهد المتآمرين الثلاثة فى الكعبة على قتل كل من (على) و(معاوية) و(عمرو بن العاص) فى ليلة واحدة هى السابع عشر من رمضان - فى أرجح الروايات - سنة ٤٠هـ، حتى نجاح عبد الرحمن بن ملجم الخارجى فى اغتيال الإمام على، وفشل زميليه فى اغتيال معاوية وعمرو.. هذه الوقائع صحيحة بشكل عام، وقد وردت بنصها فى المصادر التاريخية، ولكنها لا تكفي وحدها بهذا الشكل الموجز الذى نسبه المؤلف لروايته. فإذا كان الحدث الرئيسى فى تلك الرواية كما حدده زيدان نفسه هو (مقتل الإمام على)، وهو من نعرف بالنسبة للإسلام وتاريخه، فقد كانت أبسط قواعد المنطق تقضى بأن يعرفنا زيدان بالإمام على وبجوانب العظمة فى سلوكه وأقواله وأفعاله، وهى جد كثيرة تحفل بها مصادر التاريخ. وزيدان نفسه يعلم ذلك جيداً، بدليل ما كتبه عنه فى كتابه (تاريخ التمدن الإسلامى)؛ حيث قال مثلاً :

"أما على فحكايته فى الزهد والتقوى كثيرة، وكان شديد التمسك بالإسلام، حر القول والفعل، لا يعرف الدهاء، ولا يركن إلى الحيلة فى شأن من الشؤون وإنما همه الدين، وعمدته فى أعماله الصدق والحق ..... الخ"[1].

وعلى الرغم من هذا فإن الرواية خالية من شىء من كل هذا؛ بل إن الإمام علياً لا يظهر فيها بشخصه إلا فى ست أو سبع صفحات من بين ٢٨٧ صفحة فى طبعة الهلال ١٩٨٣ لتصوير حادث اغتياله، وذكر وصيته لأبنائه فحسب.

فإذا كان زيدان لم يعن بالحدث التاريخى الرئيسى فى المرحلة التى صورتها هذه الرواية، ولم يعن ببطله (الإمام على) فكيف يزعم بعد هذا أن رواياته تصلح أن تكون مرجعاً تاريخياً يعتمد عليه مثل أى كتاب من كتب التاريخ؟!

---

(١) فى هذا دلالة على أنه كان معتدلا فى مؤلفاته التاريخية، منحرفا فى رواياته !!

وتجدر الإشارة إلى أن زيدان فى هذه الرواية قد نقل صفحات كاملة من كتب التاريخ، وأثبتها فى هذه الرواية، بنصها وبنفس الاسلوب الذى كتبت به.

ومما لا شك فيه : أن صنيعه هذا يتعارض مع فنية الرواية ووحدة نسيجها الفكرى واللغوى.

ومهما حاول البعض[1] أن يدافع عن زيدان فى هذه الناحية، فإننا نراها أمراً لم يكن ثمة داع إليه، لأننا أمام عمل أدبى لا أمام كتاب فى التاريخ. على أن هذه المسألة ضرب من الفذلكة والبرقشة. وإذا كان البعض[2] يراها لوناً من الدقة، فإنها عندنا دقة شكلية لا أكثر ولا أقل.

وخلاصة القول : أن ثبت المراجع فى صدارة كل رواية من روايات زيدان يعد ملمحاً أساسياً من الملامح التى التزم بها، ولكن هذه المراجع عليها ملاحظات عديدة سبق تفصيل القول عنها باستفاضة.

على أن زيدان قد ألزم نفسه – كروائى – بما يلزم به نفسه المؤرخ، وهذا عيب فى الرواية لأن الروائى الذى يريد أن يكون فناناً مبدعاً مبتكراً فى استحياثه للتاريخ لا يقلد المؤرخ، وليس بملزم عند نقاد الرواية ومبدعيها بما يلتزم به المؤرخ ويُطالب به فى دراساته التاريخية. وليس مطالباً بأن يقدم فى الصفحة الأولى من الرواية ولا فى هوامشها ثبتاً للمراجع، لأنه كما سبق القول لا يكتب بحثاً تاريخياً، وإنما يكتب عملاً فنياً.

ثم إن إسرافه فى استخدام المراجع قد أظهره أمام ناقديه كاتباً متزيداً، غير واع بالطريقة المثلى الصحيحة لوضعها فى مكانها السليم، وكان هدفه الوحيد هو حشد أكبر قدر ممكن من المراجع! وغاب عنه أن الهوامش الحافلة بالمراجع التاريخية تثقل كاهل الرواية، وتفقدها توازنها وتوافق عناصر البناء الفنى فيها؛ بل غاب عنه أن المراجع حتى من الناحية الشكلية ليست ضرورية فى العمل الفنى![3]

---

(١)، (٢) من الذين دافعوا عن زيدان بهذا محمد عبد الغنى حسن فى كتابه جرجى زيدان. انظر ص٦٢.

(٣) ينظر : الرواية العربية الحديثة (بانوراما النساج) ص١٨٧.

صحيح أن تدوين أسماء المراجع، والكشف عن المجال التاريخى للرواية من الأمور التى يمكن اغتفارها؛ باعتبار أنها لا تؤثر فى بناء الرواية. لكن جرجى زيدان – فى الحقيقة – تعداهما إلى ما ترك أثره الواضح فى هذا البناء.

على أن ذكر المراجع فى هوامش صفحات الرواية يشتت ذهن القارئ، ويبعده عن الاندماج فى حوادث الرواية. بيد أن زيدان لم يعبأ بذلك كله، وكان يسعى دائماً بذكره لمراجع الروايات إلى إيهام قرائه بصدقه التاريخى، وإلى تحميل غيره من أصحاب المراجع التى يذكرها مسئولية إيراد أى خبر قد يبدو غريباً بالنسبة للقارئ وكأنه يقول : لست أنا القائل لهذا الخبر، إنما الذى قاله هو الطبرى..... أو غيره، لا سيما وأنه يتعرض لجوانب إسلامية قد تثير حساسية لدى القارئ المسلم.

على أنه كان يهدف من قبل هذا إلى إيهام قارئه بأن ما يذكره من روايات ضعيفة أو كاذبة إنما هى روايات صحيحة؛ بدليل ذكرها فى المراجع التى يشير إليها.

جرجى زيدان، وتفسير التاريخ

تمهيد

التاريخ : هو الحوادث والوقائع، فنكبة البرامكة واقعة تاريخية، ومقتل ذى النورين والإمام على والحسين وأبى مسلم الخراسانى وقائع تاريخية أما لماذا نكب البرامكة ؟ ولماذا قتل من مرّ ذكرهم، فذلك (تفسير التاريخ)، وقد أطلق عليه أوّلاً (فلسفة التاريخ).

إذن تفسير التاريخ هو الكشف عن سبب الواقعة التاريخية(١).

ولعل المقارنة بين طريقة التوراة الحالية ومنهج القرآن الكريم فيما تضمناه من وقائع تاريخية تجلى الفارق بين التاريخ وتفسير التاريخ بصورة أكثر وضوحاً، فالتوراة الحالية فيما احتوته من وقائع وأحداث تاريخية، تورخ لبنى إسرائيل، وشعوب المنطقة المحيطة بفلسطين، وتذكر التفاصيل الصغيرة مثل عدد الجنود في المعارك، وعدد من قتل منهم، ووصف المعارك، والغنائم، ونوعها. أما القرآن الكريم فيما احتواه من وقائع تاريخية (قصص) فيركز على الحوار بين الرسل والأمم التى أرسلوا إليها، وعما أصاب الأمم كأمة يونس حين آمنت، أو كفرت وحاربت أنبياءها كأمة نوح، وأمة هود وأمة صالح وأمة شعيب وأمة لوط وقوم تبع وأصحاب الرس وفرعون ذى الأوتاد.

فمنحى التوراة الحالية إذن (تاريخى تفصيلى) أما اتجاه القرآن الكريم فتفسير للتاريخ، واستخلاص للعبر ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٢).

﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣) . ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٣)

---

(١) ينظر : تفسير التاريخ، د/ نعمان عبد الرازق السامرائى : ص٢١ ـ مكتبة المعارف للنشر والتوزيع بالرياض ـ الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

(٢) سورة يوسف : مفتتح الآية (١١١) الأخيرة.

(٣) سورة هود، الآية ١٢٠.

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾(1).

فذكر الوقائع التاريخية في القرآن الكريم يهدف إلى استخلاص العبر، أى ما يثيره القصص القرآنى في الأجيال التالية لتلك الأجيال التى قص أنباءها بحيث تُدفع لاستجلاء هذه التجارب، والبحث فيها، ومعرفة ما مرّ بالأمم من التزام بشرع الله، ومن خروج عليه، وما كان يقوله الرسل لمن دعوهم وحاوروهم.

وهذا أيضاً تفسير للتاريخ.

وقد شغف الناس منذ قرون بتدوين التاريخ، ثم تطور الأمر فظهرت محاولات لتفسير التاريخ، وعدم الاكتفاء بسرد الوقائع التاريخية.

وهنا نجد خلافاً : هل من مهمات المؤرخ أن يفسّر ويستنبط قوانين معينة لحركة التاريخ، أم عليه التحقق من صحة الوقائع وذكرها، وترك التفسير لغيره؟

وبعبارة أخرى : ما هو واجب المؤرخ؟ هل يكتفى بسرد الوقائع التاريخية بعد التثبت من صحتها، أم يتعدى ذلك إلى تفسيرها وتعليلها ؟

هذا بالنسبة للمؤرخ. أما الأديب فموقفه من التاريخ - يختلف عن موقف المؤرخ منه، فلم يحدث أن اختلف النقاد حول المهمة المنوطة بكاتب الرواية التاريخية، ولا منعوه من حق الحرية في تفسير أحداث التاريخ التى تقوم عليها الرواية.

لكنهم حين منحوه هذا الحق أوجبوا عليه أن يمارس هذه الحرية ممارسة تنتهى في تناوله للحدث التاريخى الذى يفسره ويعلله إلى تفسير منطقى مقنع مقبول خالٍ من شتى ما يعيبه مثل التلفيق والتزوير وتجاهل الحقائق المتفق عليها أو المشهورة المتداولة في كتب التاريخ، ومثل التفاهة والإسفاف، ومثل التجريح والتشويه، ومثل التعسف والتكلف، وما إلى ذلك من العيوب.

---

(1) سورة غافر، الآيتان ٨٢-٨٣.

تلك إلمامة سريعة عن تفسير التاريخ وفلسفته وحق الحرية الممنوحة للأديب في موقفه من التاريخ، ومدى هذه الحرية في تفسيره وتعليله.

فإذا ما رحنا بعد ذلك نتأمل روايات زيدان على ضوء ما سبق ذكره وجدنا أنفسنا أمام كاتب يرمي إلى مجرد نشر التاريخ من خلال قصة غرامية، ويسرده بطريقة سطحية لا عمق فيها ولا إيحاء. على أنه لم يقدم لقرائه عبر رواياته المتعددة وجهة نظر خاصة في ذلك التاريخ الإسلامى الذى يقدمه للقراء اللهم إلا إذا قصد من وجهة نظره لهذا التاريخ ذلك الذى قدمه في تلك الروايات من طمس لحقائق هذا التاريخ وتشويه لأحداثه وشخوصه !

ولقد كان اختيار زيدان لفترات الاضطراب التى طرأت على الدولة الإسلامية، وانصرافه التام عن عصور الازدهار والتألق في تاريخ الإسلام من الأمور التى ساعدت النقاد على تحديد موقف زيدان من هذا التاريخ، ذلك الموقف الذى جعل كثيراً من النقاد يشكون في نوايا زيدان من هذه الروايات، ويوجهون إليه العديد من سهام النقد التى تناولت المادة التاريخية التى بنى عليها تشكيله الروائى.

والغريب أنه حتى في تناوله لفترات الاضطراب التى اختارها موضوعات لرواياته لم يقدم لنا تفسيراً صحيحاً مقنعاً، وآثر أن يقدم بدلاً من ذلك جملة من التصورات المشوشة والغريبة، وألواناً من الخلط والتشويه والإساءة للتاريخ الإسلامى. ومما زاد الطين بلة أنه ركز على العلاقات العاطفية بين شخوص الروايات أكثر من تركيزه على معالجة الأحداث من منظور إسلامى، فكان ذلك من أكبر عوامل الخلط والتشويه والإساءة، حيث بدت القضايا الكبرى مجرد غراميات مشوقة، ففى أحداث الفتنة الكبرى التى انتهت بمقتل الإمام عثمان قصة حب، وفى مقتل الإمام على قصة حب، وفى نكبة البرامكة قصة حب ...... وهكذا !!

والأكثر غرابة مما تقدم ذكره : أن زيدان في المواقف التى حاول فيها تبرير ما في التاريخ الإسلامى الذى يقدمه من أحداث قد برر هذه الأحداث تبريراً لا يقبله منطق، ولا جاء به مصدر من مصادر التاريخ.

خذ لذلك مثلاً من روايته (فتاة غسان) حيث تراه يبرز فتح خالد بن الوليد لمدينة دمشق أواخر سنة ١٣هـ، باشتغال (توما) بولادة أخته[1]!

وهذا تبرير مضحك حقاً؛ إذ يفهم منه أن (توما) اشتغل عن مدينته وجنده بولادة أخته، وكأنه قابلة ! على أن ذلك الاشتغال غير صحيح، والحقيقة أن المسلمين شددوا الحصار على دمشق سبعين يوماً، ومنعوا المدد أن يصل إلى الرومان الذين بداخلها، فعيل صبرهم، وانكسرت حميتهم، وتحقق للمسلمين النصر حينما تمكن سيف الله المسلول من اعتلاء أسوار المدينة الشرقية.

وخذ مثلاً آخر من روايته (أرمانوسة المصرية) حيث تراه يتحدث عن "أركادروس" ابن قائد حصن الروم بمصر، ويصفه بالحنكة والخبرة[2]!

وما حديثه هذا إلا تحويراً لا تفسيراً، لأنه نقل قصة عمرو بن العاص مع قائد حصن الروم في موقعة "أجنادين"، وأضافها إلى "أركاديوس" بحذافيرها. وتراه يزعم أن الحب بين أرمانوسة وأركاديوس قائد حصن الروم هو السبب في انتصار المسلمين على الروم وفتحهم لمصر !!

وتراه في هذه الرواية أيضاً : يقول عن المسلمين وقت فتحهم لمدينة "بلبيس" في عهد عمرو : "إنهم دخلوا البيوت لينهبوا ويسلبوا" [3] !

وما هذا الادعاء إلا ضرب من الكذب والتحريف والاختلاق والتلفيق، ولا يمكن – بحال – عد صاحبه مفسراً لأحداث التاريخ، ولا باحثاً عن منابع السلوك الدفينة، لأن هذا الادعاء يتنافى تماماً مع سلوك المسلمين، ولا سيما في ذلك العهد، ويتعارض ويتناقض في الوقت ذاته مع ما جاء عنهم في كتب المؤرخين الثقات !

وخذ مثلا ثالثا من روايته (عذراء قريش)، حيث تراه يجعل محمد بن أبي بكر الصديق ناقما على الخليفة عثمان بن عفان، ويفسر هذه النقمة تفسيرا لا يصدقه عقل، ولا يقبله منطق! فقد أرجع هذه النقمة إلى باعثين أقواهما أكثر تفاهة، وأقرب إلى تصرفات السفهاء، وهو خوف محمد بن أبي بكر من

---

(١) الرواية : ٢/٢٩٤.
(٢) ينظر : الرواية ص١٣٤ دار صادر بيروت.
(٣) ينظر : الرواية ص ٢٦٦ .

نفوذ مروان بن الحكم لدى الخليفة عثمان، فيعمل على إقناع "أسماء" التى يحبها محمد بن أبى بكر حبا جما بالزواج من مروان!!

ولنقرأ معاً هذه الفقرة: " ... ولم يعد يصبر على بقائها هناك (فى منزل الخليفة) وحدها، وخشي أن يستغل مروان نفوذه لدى الخليفة، فيوسطه فى إقناعها أو استرضائها فتقبله كارهة. تصور محمد ذلك، فأحس بنيران تشب فى قلبه، وازداد رغبة فى خلع عثمان أو قتله!". (١)

وتجدر الإشارة إلى أن هذا التفسير التافه المختلق يمثل واحدا من عشرات الأمثلة التافهة الكاذبة التى حشدها زيدان فى هذه الرواية، والتى استهلها بعنوان الرواية، حيث جعل أسماء وهى فتاة مسيحية ـ مع أن النصارى لا يسمون أسماء! ـ من قريش ، مع أنها ليست منهم، ولا صلة لها بهذه القبيلة أكثر من علاقة المسافر الذى ينتقل لمشاهدة أحداث تدور بين بطونها، فقد ذكر المؤلف الدجال نفسه: أنها ولدت فى مصر، ونشأت فى دمشق، ووفدت مع أمها إلى المدينة لتبث سر نسبها إلى الإمام على رضى الله عنه، ومما لاشك فيه: أن هذه الوفادة غير كافية لأن تجعلها جديرة بإطلاق لقب (عذراء قريش) عليها!! والرواية ــ باختصار ــ مليئة بألوان الخلط بين التاريخ والكذب، وفيها من التهويل والمبالغات الكثير ومنها ماوصل إلى الحد الذى يخرجها عن دائرة المعقول!! ومن المضحك فيها: أنه ذكر أ ن مريم أم أسماء قد تم دفنها بعد غسلها، ومعروف أن غير المسلمين لا يغسلون الميت قبل دفنه ! وذكر أن تاج كسرى ووشاحه وثيابه أعطيت لعثمان بن عفان ! ومعروف أنها منحت لسراقة بن مالك، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو فى طريق الهجرة قد بشره بذلك، كما هو مشهور ومذكور فى كتب السيرة النبوية والتاريخ. وزعم أن محمد بن أبى بكر قال لحبيبته أسماء عند جثة عثمان: " إنى صريع حبك"! وهذا كذب، وخيال فاسد كالح يخالف السجايا الإنسانية؛ إذ لا يعقل أن يغازل عاشق محبوبته فى مثل هذا المقام، فالموت له جلاله ورهبته وآثاره العميقة فى النفس: وهل يعقل أن يهتز إنسان صالح تقي أمام العشق والجمال، ولا يعتبر بالموت ؟!!

---

(١) الرواية ص ٨٦، ٨٧.

وهناك مثالاً من رواية رابعة هى (العباسة أخت الرشيد أو نكبة البرامكة) حيث تراه يعلل عقد هارون الرشيد لأخته العباسة على جعفر البرمكى بأنه لمجرد إباحة النظر إليها، لأنه لا يطيق الابتعاد عنها وعنه في مجلسه[1]!

وهذا - بدون شك - تعليل غير مقبول !

وفى روايته فتح الأندلس يقول - معلقاً على ما قام به طارق بن زياد من إحراق للسفن : "فأحرق سفنه ليبذر اليأس في نفسه وفى نفوس رجاله"[2].. وفى الحقيقة بذور اليأس لا تكون في نفوس تعلم أن الله معها. وكان الأجدر له أن يقول : "فأحرق سفنه ليبذر الأمل والتصميم والعزيمة والاستماتة في طلب الشهادة أو النصر". فكلمة : "يبذر اليأس" لا تليق بفاتحين يأملون فتح أوربا للوصول إلى القسطنطينية.

وفى هذه الرواية أيضاً : يجعل تفكك أهل الأندلس هو السبب في انتصار المسلمين في (وادى لكّه).

وهذا تفسير خاطئ؛ لأن الفساد الذى كان ينخر في كيان الأندلس هو الذى سهل على المسلمين الفتح والنصر. على أن المسلمين كان لهم هدف نبيل هو إخراج الناس من الكفر إلى الإيمان، وكان معهم قرآن يبشر بالرحمة والنصر والمحبة والإخاء، وكان الله معهم ينصرهم ويثبت أقدامهم، ولولا ذلك ما استطاعوا فتح بلاد الأندلس، ولا نقضت عليهم الجموع الغاضبة، ولكن الإسلام وقيمه النبيلة يدفع الناس إلى اعتناقه وإلى الترحيب بأهله في كل مكان.

على أنه في هذه الرواية قد ذكر قصة فلورندا بنت يوليان حاكم سبتة التى أرسلها أبوها إلى قصر لذريق آخر ملوك القوط؛ لتتأدب بأدب بنات الملوك، ولكن لذريق انتهك شرفها، فأرسلت تخبر أباها بذلك، فاشتاط غضباً وبات يفكر في الانتقام من لذريق، وتحقيقاً لهذا شرع يراسل (طارق بن زياد) ويزين له فتح الأندلس، ويحرضه على غزوها - وما زال كذلك حتى وصل إلى ما يريد، ثم لما جاء طارق بجنده جعل يوليان نفسه هو وأتباعه أدلاء للعرب في الأندلس!!

---

(١) ينظر : الرواية ص٦٣ ط دار الأندلس ببيروت.
(٢) الرواية : ص٣٥٤.

وهكذا أصبحت هذه الفتاة ـ في مرآة زيدان ـ هى السبب الأول أو الرئيسى في فتح المسلمين للأندلس !!

ومما لا شك فيه أن هذا تفسير خاطئ؛ بل متعمد؛ لأن فتح المسلمين للأندلس كان أمراً محتوماً، لا سيما بعد أن فتح المسلمون الشمال الإفريقى كله، ونشروا فيه العربية والإسلام.

على أن هذه القصة قد تكون في مجملها صحيحة، وقد تكون من اختراع القصاص، إذ معروف أن فتح العرب للأندلس قد أحاطت به أساطير كثيرة، ترددت في أوساط المسلمين والنصارى على حد سواء، فكيف تصلح تفسيراً لفتح الأندلس ؟!

وتراه في رواية (عروس فرغانة) يجعل سبب فتح البذ "أو البد أو البدين من أرض أران، وهى حصن بابك الخرمى" ليس للقضاء على الخرمية، بل في سبيل الوصول إلى جهان، وأخذها من قصر بابك ؟!!

وعند فتح البذ يكرر كلمة النهب كما في الصفحتين ١٤٠/١٥٥.. ولكنه لم يذكر مرة واحدة أن الخرمى "انضوى إليه القطاع والحراب والزعار وأصحاب الفتن وأرباب النحل الزائفة .. وأخذ بالتمثيل بالناس والتحريق بالنار والانهماك في الفساد وقلة الرحمة والمبالاة، وهزم جيوشاً كثيرة للسلطان، وقتل عدة قواد. وذكر عنه أنه قتل فيما حفظ ألف ألف إنسان من بين رجل وامرأة وصبى ..."[١].

وما ذلك إلا من قبيل شعوبية زيدان، التى دفعته إلى أن يقول في الصفحة ١٣ : "إن للفرس ملوكاً عظاماً لا يلبثون أن يعيدوا سلطان الأكاسرة، ألا تعرفين مازيار صاحب طبرستان؟ ألا تعرفين بابك الخرمى صاحب أردبيل؟ إن كلاً من هذين ملك عظيم تخضع له الألوف من الأبطال، ولكنه في الوقت نفسه يخضع لعروس فرغانة، ويضحى بحياته في سبيل رضاها".

فبابك الخرَّمى ملك عظيم في عرف زيدان وما قالها عن الرشيد أو المنصور، أو المعتصم مرة واحدة ؟!

---

(١) كتاب البدء والتاريخ : ١٣٤/٥.

هذا .. وإن فتحت بلدة بيد المسلمين، جعل زيدان سبب فتحها خيانة، وإن فتح حصن فتح لخلاف أو وهن أهلـه .. وكأن انتصارات المسلمين ليست نتيجة قوتهم وعقيدتهم وإيمانهم، بل نتيجة ضعف عدوهم وخلافاته وانشقاقاته ليس غير ؟!!![1]

وتراه في روايته (أسير المتمهدى) "يبرر التدخل الأجنبى في مصر والسودان في ص٤٧ : فيطرح هذا السؤال:"وما الذى أوجب تدخل هاتين الدولتين في مصالح البلاد؟"[2]، والجواب هو : "لأن لهما على هذه الديار ديناً، فمحافظتهما عليها محافظة على حقوقهما".

فالتدخل العسكرى الإنكليزى للمحافظة على مصر والسودان!! أيقول بهذا عاقلٌ موضوعى؟!

وخلال الرواية يجعل زيدان شعور القارئ مع الإنكليز ومع حملتهم للقضاء على ثورة المهدى، ص١٢٢ "فأوجس خيفة من أن يكونوا قد ظفروا بالحملة الإنجليزية".

وبخاصة إذا علمنا أن المهدى وأنصاره بعرف زيدان شرائم عصاة!

يقول : "وبقى هيكس باشا في الخرطوم مكتفياً بإرسال بعض الجند لمقاتلة شرائم العصاة في أماكن مختلفة إلى عقد النية على المسير لافتتاح كردفان واستخلاص الأبيض عاصمتها"ص٨٠.

ويقول : "وصل إلى المدافع التى أطلقها العصاة"ص١٢٥.

ويقول : "وأشار عليه بألا يمضى إليها لأنها في قبضة العصاة"ص ١٣١.

المهديون عصاة.. والإنكليز بالتالى أصحاب حق .. ولكن زيدان ما قال مرة واحدة سبب هذا العصيان، أو سبب وجود الإنكليز في السودان ؟

---

(١) جرجى زيدان في الميزان، شوقى أبو خليل : ص٢٠٧.

(٢) يشير جرجى هنا إلى التدخل الثنائى الإنكليزى الأفرنسى في شؤون مصر بعد عجزها عن سداد الديون أيام الخديوى إسماعيل.

هؤلاء "العصاة" في عرف زيدان يحاربون مستعمراً أجنبياً عاملهم معاملة العبيد الأرقاء، فكيف يسميهم "عصاة"؟!(١)

وعلى الرغم من أن ثورة المهدى صفحة مشرقة في تاريخ أمتنا الحديث(٢) فإن إخمادها عنده شرف وفخار! يقول على لسان شفيق : "إنى ذاهب لأداء واجبى، وسأعود بإذن الله مكتسباً فخراً"، "إنى لم أتقلد هذا السيف بافدوى إلا لكى أنال شرفاً يجعلنى جديراً بك"، "لو أردت مطاوعة قلبى يا عزيزتى ما كلفتك هذا العناء، وإنما الأمر أمر الشرف والشهامة اللذين أنا عبد رقيق لهما"(٣).

ولم يكن غريباً أن يجعل جورجى زيدان البطل (شفيق) ضابطا في جيش الاحتلال البريطانى، ثم مقاتلا في حملة هيكس الإنجليزية على السودان، برغم كل العناصر المثالية التى أضافها إليه، ولم يكن غريباً أيضاً أن يجعل الشخصية الشريرة (عزيز) ضابطاً في الجيش العرابى برغم كل العناصر المسيئة التى ألصقها به، ووجه عدم الغرابة موقف زيدان من الثورة العرابية، ودفاعه عن استدعاء الخديوى للقوات الأجنبية لحماية الأمن والنظام !!

ثم هناك مثال يعد قاسماً مشتركاً بين كل رواياته هو محاولته تفسير كل الانتصارات والبطولات التاريخية بالمواقف الغرامية، وربطها بها ربطاً محكماً.. فهل هذا تفسير مقنع لأحد من الناس؟ فضلاً عن افتقاده لما يؤيده من كلام المؤرخين الثقات.

يدّعى - مثلاً - في روايته (عبد الرحمن الناصر) أن أسباب انتصارات هذا البطل المسلم في فتوحاته على الأوربيين إنما ترجع إلى جاريته (الزهراء) "فمنذ عرفها والسعد خادمه في الحرب والإدارة السياسية"!(٤)

وهذا تفسير خاطئ صوابه هو أن ما حققه عبد الرحمن الناصر في هذا المجال لا يرجع إلا إلى تأييد الله للمسلمين المخلصين الذين سعوا إلى نشر

(١) جرجى زيدان في الميزان : ص٢٨٤.
(٢) ينظر : الإسلام وحركات التحرر العربية (السودان) : ثورة محمد أحمد المهدى ففيه تفاصيل أكثر للراغب في الاستزادة من أخبار هذه الثورة وأسبابها.
(٣) الرواية : ص٧٧.
(٤) الرواية : ص١١٢.

الإسلام في كل مكان من أنحاء العالم، على أن عبد الرحمن الناصر كان يتحلى هو وجنده بالعزيمة القوية والإيمان الصادق والشجاعة الفائقة والفروسية الغلابة الظافرة .. وهكذا كان كل أبطال الفتوحات الإسلامية في العصر الذهبى للإسلام الذى تصدى زيدان للكتابة عن تاريخه، فشوه ذلك التاريخ، وملأ صفحاته المشرقة المتلألئة بحشو الدجل والدس الرخيص وقلب الحقائق والتفسير المنحرف المقصود تحت تأثير من انتمائه الدينى المعروف.

وخذ مثلاً من روايته(غادة كربلاء) حيث تراه يفسر تصرفات (عبيدالله بن زياد) وعدم مبالاته بالعهد الذى أعطاه لمسلم وهانئ بأنه أمر عظيم يدل على الحزم والدهاء.

يقول: " ... ولكنه فى سبيل الغاية التى يهدف إليها يعد حزما ودهاء، لأن الدول فى أول نشأتها لا يتأيد استقلالها وتنجو من الدعاة أو المطالبين إلا إذا أصم أصحابها آذانهم عن نداء الضمير، وجعلوا كل همهم فى مصالحهم الخاصة... "! (١)

فهذا تفسير مغرض يقوم على فكرة خاطئة، هى أن الغاية تبرر الوسيلة، وهذه الفكرة الخاطئة ليست استنطاقا أو إجراء لعبارات معينة على لسان الشخصية، وإنما هى فكرة زيدان نفسه التى تمثل رأية صراحة! وإنه لمن العجيب أن يذهب هذا الكاتب هذا المذهب الذى يرى قيام الدول على الصولجان والجبروت والطغيان، وعناية الحاكم بمصالحه الخاصة فقط بعد تجرده من الضمير أو عدم استجابته لندائه !! وما هكذا كانت الدولة الإسلامية لقد قامت هذه الدولة على أسس عظيمة من أقواها الأساس الإيمانى، وتربية الضمير لدى الحاكم والمحكوم على السواء، فكل واحد من المسلمين راع، وكل راع مسئول عن رعيته، كما قرر ذلك الرسول (ﷺ) فى خطبته الشهيرة التى ألقاها فى ساحة عرفات يوم التاسع من ذى الحجة فى علم الوداع.

وهذا مثل آخر لتفسيراته المغرضة نسوقه لك من روايته (غادة كربلاء) أيضاً حيث ادعى أن سبب مقتل حجر بن عدى الكندى من شيعة الإمام

---

(١) الرواية ص ١٩٢.

على بن أبى طالب هو تهوره وتحرشه بعبيد الله بن زياد بن أبيه، فأوعز عبيد الله إلى معاوية بقتله فقتله !

والواقع أن تاريخ ابن الأثير الذى اعتمد عليه جرجى زيدان فى هذه الرواية اعتمادا كبيرا قد ذكر عدة أسباب لمقتل حجر بن عدى فى روايات مختلفة [1] ولم يشر إلى أن هنالك تهورا من حجر بن عدى، فكان الأحرى بزيدان الذى يدعى أنه يعلم الناس قراءة التاريخ برواياته التاريخية أن يفسّر هذه الحادثة تفسيرا صحيحا بأن يذكر أسبابا أخرى أو سببا آخر غير هذا السبب الذى أزعج القراء بذكره، وفى أخبار ابن الأثير متسع ومجال للانتقاء لمن يريد الانتقاء ويكون مخلصا ليس له هوى فيما يكتبه من روايات تؤرخ للإسلام والمسلمين.

وهذا مثل لتفسيراته المضحكة التافهة نسوقه لك من روايته (١٧ رمضان) حيث تراه يعلل مقتل الإمام على بسبب لا يرجع إلى خلاف سياسى أو فكرى أو طمع فى الحكم أو نحو ذلك من الأسباب التى قد تذكر وتعقل فى هذا المجال، وإنما يرجعه - بل يحصره زيدان - فى شئ واحد هو (الغرام والهيام)، كأنما العربى لا همّ له إلا شهوة البطن وشهوة الفرج، من أجلهما يعيش، ومن أجلهما يقاتل، ومن أجلهما ينسج خيوط التآمر ويتربص بأخيه الدوائر!.

يقول - على لسان سعيد الأموى رادا على بلال - :

" لا أخفى عنك بعد ذلك أن السبب فى فشلى امرأة أظنك سمعت اسمها فى هذا الصباح من فم ابن ملجم؟ قال بلال: أظنها قطام بنت شحنة، قال سعيد: نعم هى - قبحها الله - إنها داهية محتالة، فقد كانت سببا فى قتل ابن عمى وقتل الإمام على وابن ملجم". [2]

ويؤكد زيدان ادعاءه وتفسيره هذين بمواقف غرامية عديدة أبرزها قوله: إن سعيدا قد وافق على الزواج بقطام بشرط أن يكون مهرها قتل الإمام على، وهكذا فعل أيضا ابن ملجم، بل إن سعيداً لاينسى هذه الفكرة حتى فى أحرج اللحظات لحظة موت الإمام على، ثم لحظة إحراق ابن ملجم - كما يزعم

---

(١) ينظر: الكامل فى التاريخ لابن الأثير: المجلد الثالث ص ٤٨٨.
(٢) الرواية ص ١٩١.

المؤلف - حيث يتحدث عن سعيد قائلا: " ولما اشتم سعيد رائحة القتر المتصاعد من بقايا ابن ملجم اشتفى غليله ولكن قوله: إن قطاما خطيبتى وإن قتل على مهر لها ظل يرن فى أذنيه ..." [1] علما بأن حادثة احتيال على عدد من الرجال كى يقتلوا الإمام عليا ليكون ذلك مهراً لها حادثة غير واردة ولا حاجة تدعو إليها من الناحية الفنية، وعلى فرض أنها ضرورية للتشويق المزعوم فإن سرده لا يحتاج إلى أكثر من بضعة أسطر، وتصويره لا يتطلب أكثر من بضع صفحات، فتركيز المؤلف عليها عن طريق تضخيمها وإعادتها هنا وهناك خير دليل على أنه يهدف إلى التمزيق لا التشويق". [2]

ليس من علة ولا باعث فيما ادعاه زيدان في رواياته إلا الدس الرخيص والتشويه المتعمد، والتزوير المقصود، والتلفيق الواضح البين، لأن تفسيراته وتبريراته لا تتمشى مع المنطق العام للفترات التى اتخذها مجالات لرواياته، ولا تتفق مع أيسر الحقائق الأساسية التى سطرتها كتب التاريخ.. الأمر الذى يدفعنا إلى الشك في أصالة جرجى زيدان، ونقتنع بتلك الآراء التى تجمع وتتفق على قصر باعه في ميدان التفسير للتاريخ، على شاكلة قول الدكتور محمد حسين هيكل : "إنه يرمى إلى مجرد نشر التاريخ، يصوره تصويراً عاماً دون إبراز فلسفة خاصة، فهو يعرض القديم عرضاً حديثاً، بينما الفنان الذى يستلهم مما حوله ويصوره لم يخلق بعد!"[3].

ويقول الدكتور أحمد إبراهيم الهوارى : إن زيدان "ليس صاحب فلسفة في التاريخ، كما أنه ليس صاحب رؤية تاريخية. إنه كاتب موسوعى لا أكثر"[4].

ويقول الدكتور مأمون فريز جرار : "إن من البديهى ألا نجد تفسيراً إسلامياً للتاريخ في روايات جرجى زيدان، ذلك لأن هذا التفسير لا يصدر إلا عن كاتب آمن به، وجرجى زيدان صاحب عقيدة مختلفة عن العقيدة الإسلامية"[5].

---

(١) الرواية ص ١٨٩.
(٢) روايات تاريخ الإسلام، محمد الحسين عبد القادر ص ١٩٤.
(٣) في أوقات الفراغ : ص٣٣٢.
(٤) نقد الرواية في الأدب العربى الحديث : ص٦٣.
(٥) خصائص القصة الإسلامية : ص١٧٩ ط دار المنارة بجدة ١٤٠٨هـ.

يقول الدكتور محمود حامد شوكت : إن زيدان لا يمثل فلسفة خاصة يصورها التاريخ، وإنما يكتفي بالجمع والتنسيق وإحياء الصورة إحياء يسيراً يقوم على الشهرة التاريخية للموضوع وللشخصيات. وقد وقف زيدان بذلك عند بداية طريق واصله من بعده كتاب القصة التاريخية. وإن مقارنة بين نظرة زيدان للتاريخ، ونظرة تولستوى مثلاً في رواية (السلم والحرب) لتبرز الفرق بين منهجى الكاتبين ونظرتهما للحياة. فقد صور تولستوى في هذه القصة تطور شخصيات وتطور حوادث خلال جيلين، وتتطور الشخصيات في السن والخبرة تحت وطأة الحوادث الخارجية وما تحدثه من استجابة باطنية، فتأتى صورة صادقة حية. أما زيدان فكثيراً ما يصف ويقتبس على طريقة المؤرخ أكثر من الفنان المبدع، وكان في ذلك متأثراً بالذوق الشعبى، وبالصحافة كوسيلة لنشر الثقافة وتقريبها إلى القارئ العادى"[1].

---

(١) الفن القصصى في الأدب العربى الحديث : ص٧٨، ٧٩.

أبطال روايات زيدان
بين الحقيقة التاريخية والخيال الروائى

من التقاليد الثابتة لجورجى زيدان فى كل رواية من رواياته : حرصه الدائم على تسجيل وتحديد أسماء أبطال الرواية[1] فى الصفحة التالية لصفحة العنوان - والظاهر أنه صنع ذلك تحقيقاً لمزيد من الإيهام بأنه يكتب رواية تاريخية، اعتمد فيها على الحقائق التى لاشك فيها ولا مراء.

يؤكد هذا أنه لم يحدد لقارئ الرواية من هو الحقيقى التاريخى، والروائى المتخيل من هؤلاء الأبطال، وإنما خلط هؤلاء بهؤلاء .. الأمر الذى يمكن أن ينجم عنه الاعتقاد بأن هؤلاء الأبطال الذين تجرى الأحداث التاريخية بأيديهم وألسنتهم ومواقفهم كلهم كانوا فى التاريخ الإسلامى الذى يتحدث عنه فى تلك الروايات. وهنا مكمن الخطورة، إذ سيسلم القارئ بصحة كل ما يراه فى الرواية من أحداث، وبالتالى فإنه سيخرج بطابع سيئ عن تاريخ المسلمين، ولا سيما إذا رأى مثلاً فتيات مسيحيات مثل أسماء بنت مريم فى عذراء قريش هن اللاتى يسيّرن الأحداث فى أخطر الحوادث الكبرى التى وقعت فى تاريخ المسلمين.

لذلك كان لابد من عقد هذا المبحث لنميز بين الحقيقى والوهمى من الشخصيات الرئيسية فى روايات زيدان، حتى يتمكن القارئ بالتالى من التمييز بين التاريخ والخيال فى هذه الروايات، وسوف نتتبع هذا التمييز فى كل رواياته وفق ترتيب العصور التى تتحدث عنها.

١- أبطال روايته (فتاة غسان) هم :

جبلة بن الأيهم : من ملوك غسّان.

---

(١) يقصد بأبطال الرواية : الشخصيات الرئيسية فيها.

الحارث بن أبى شمر : من ملوك غسّان.

عبد الله : من أمراء العراق.

هند : ابنة جبلة.

ثعلبة : ابن الحارث.

حماد : ابن الأمير عبد الله.

سعدى : أمّ هند.

سلمان : خادم حماد.

وليس فيهم مسلم واحد، لكنه أضاف إليهم فى الجزء الثانى من هذه الرواية مسلمين هما : أبو عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد.

وحماد يحب هند، وهند تحبه. وحماد بن الأمير العراقى (عبد الله). وهى قصة حب متخيلة. وخصم حماد فى حب هند، هو ابن عمها (ثعلبة بن الحارث).

وزيدان لم يختر من التاريخ أشخاصاً لهم دورهم فى هذه الرواية غير جبلة بن الأيهم أبى بطلة الرواية (هند)، والحارث بن أبى شمر أبى الخصم (ثعلبة)، وليس لمكانهما التاريخى أثر كبير فى المجرى الأساسى للرواية. وقد التزم التاريخ فى المعالم الأساسية لحياتهما.

٢ ـ وأبطال روايته (أرمانوسة المصرية) هم :

١ ـ هرقل : إمبراطور الرومانيين.

٢ ـ عمرو بن العاص : فاتح مصر.

٣ ـ المقوقس : والى مصر عندما فتحها العرب.

٤ ـ أرمانوسة : ابنة المقوقس.

٥ ـ قسطنطين : ابن هرقل وخاطب أرمانوسة.

٦ ـ بربارة المصرية : مربّية أرمانوسة.

٧- أركاديوس : ابن الأعيرج القائد الرومانى.

٨- أرسطوليس : ابن المقوقس.

٩- زياد العربى : صاحب يحيى النحوى.

١٠- مروان : مولى عمرو بن العاص.

١١- عبادة بن الصامت : أحد قواد العرب.

١٢- المندقور الأعيرج : قائد جند الروم بمصر.

وهؤلاء الأبطال الاثنا عشر أغلبهم – كما ترى – من النصارى !

وأرمانوسة تحب أركاديوس، وخصمهما فى هذا الحب قسطنطين بن هرقل. وماريا تحب مرقس، وهما ابنا عم. وفى الرواية شخصيات أخرى مثل (يوقنا) الذى كان حاكماً لحلب. وزياد العربى : هو مولى يحيى النحوى الإسكندرانى.

٣- وأبطال روايته (عذراء قريش) هم :

عثمان بن عفان : ثالث الخلفاء الراشدين.

على بن أبى طالب : رابع الخلفاء الراشدين.

عائشة أم المؤمنين : زوجة النبى (ﷺ).

نائلة بنت القرافصة[1] : زوجة الخليفة عثمان.

محمد بن أبى بكر الصديق : أخو عائشة.

عذراء قريش : أسماء بنت مريم.

مريم أم أسماء : من سبايا فتح مصر.

مروان بن الحكم : ابن عم عثمان بن عفان.

عمرو بن العاص } الحكمان فى الخلاف بين على ومعاوية

---

(١) يوردها خطأ دوما، والصواب "نائلة بنت الفرافصة" (ينظر : اعلام النساء جـ٥ ص٢٧ وينظر أيضاً أسد الغابة.

أبو موسى الأشعرى

وأسماء بنت مريم تحب محمد بن أبى بكر، وتستمر قصة الغرام إلى آخر القصة، وأسماء فتاة مسيحية جميلة مجهولة الأب والأسرة والماضى، وهى مع أمها مريم المسيحية من خيال زيدان، وزيدان يشرك أسماء فى أحداث الفتنة الكبرى[1].

وفى الرواية شخص اسمه يزيد يقول زيدان إنه اشترك فى فتح مصر. فهل هو صحابى ؟ ويصفه فى الرواية بفقدان المروءة والشعور؛ لأنه توسد الأرض خارج الخيمة فنام أثناء حصار بيت عثمان.

٤- وأبطال روايته (١٧ رمضان) هم :

على بن أبى طالب : رابع الخلفاء الراشدين.

معاوية بن أبى سفيان : أول ملوك الدولة الأموية[2].

عمرو بن العاص : والى مصر.

قطام بنت عدى : غادة الكوفة.

العجوز لبابة : مربية قطام.

سعيد الأموى : عاشق قطام.

عبد الرحمن بن ملجم : قاتل الإمام على.

الحسن والحسين : ابنا على.

عمرو بن بكر : المتآمر لقتل عمرو بن العاص.

البرك بن عبد الله التميمى : المتآمر لقتل معاوية. [3]

---

(١) لم يؤثر إشراكها فى صلب المادة التاريخية.

(٢) هكذا أوردها زيدان ص ٣.

(٣) انتدب الخوارج عبد الرحمن بن ملجم لقتل الإمام على، والحجاج بن عبدالله الضميرى لقتل معاوية، وزادويه العنبرى (عمرو بن بكر التميمى لقتل عمرو بن العاص (الروضة الفيحاء ص ٣٢٤ وهامشها)..

وفـى الـرواية عاشـقان آخـران همـا : عبد الله وملكـة جمـال مـن ربـات الـخدور اسمها خولة وهما من صنـع الخيال، مثل غادة الكوفة وسعيد الأموى.

٥ـ وأبطال روايته (غادة كربلاء) هم :

الإمام الحسين	: ابن على بن أبى طالب.
يزيد بن معاوية	: ثانى ملوك الأمويين (هكذا أوردها زيدان!).
حجر بن عدى الكندى	: من شيعة على.
غادة كربلاء	: سلمى بنت حجر بن عدى وهى مركز الاهتمام فى الرواية.
عبد الرحمن الكندى	: ابن عم سلمى.
عامر الكندى	: كفيل سلمى.
شمر بن ذى الجوشن	: قاتل الحسين.
عبيد الله بن زياد	: ابن عم يزيد.
مسلم بن عقيل	: ابن عم الحسين.
عبد الله بن الزبير	: ابن الزبير بن العوام.
زينب بنت على	: أخت الحسين.

وفى الرواية شخصية (الناسك) وهى شخصية متخيلة تثير العجب والإعجاب معاً وشخصية سلمى خيالية لا وجود لها فى مراجعنا العربية، فصاحب أعلام النساء جـ٢ من ص٢٣٩ ــ ٢٥٥ ذكر من اسمه "سلمى"، ولم يرد فيه تلك السلمى التى قال عنها إنها بنت الصحابى الجليل حُجْر بن عَدِى!

وكذلك ابن سعد فى الطبقات الكبرى جـ٦ ص١٢٧ ذكر ترجمة حجر واستشهاده فى قرية عذراء قرب دمشق، ولم يذكر له بنتاً اسمها سلمى !، وفى تاريخ الطبرى، الجزء الخامس من الصفحة (٢٥٣) وإلى الصفحة (٢٧٠) خبر مقتل حُجْر وحياته ولا ذكر لسلمى مطلقاً، وفى الكامل فى التاريخ، الجزء الثانى، وفى الصفحة ٢٣٣ ذكر مقتل حُجْر ولا ذكر لسلمى فى حياته مطلقاً، وفى البداية والنهاية، الجزء الثامن، وفى الصفحة ٤٩ ذكر مقتل حُجْر، ولا ذكر لسلمى مطلقاً، وفى مروج الذهب، الجزء الثالث، وفى الصفحة ١٢ ذكر مقتل حُجْر، ولا ذكر لسلمى مطلقاً، حتى الأغانى الذى لا نأخذ ما فيه تاريخياً ــ فى بداية الجزء السادس عشر أخبار حجر مطولاً، ولا ذكر لسلمى مطلقاً!

وهكذا يكون كل ما قاله زيدان عنها، وما بناه من أحداث هي سببها، وافتتان سببه جمالها، وانتقام سيَّرته، هو محض خيال وليس له وجود في حوادث التاريخ الإسلامي !

٦- وأبطال روايته عن (الحجاج بن يوسف) هم :

عبد الله بن الزبير	: ابن الزبير بن العوام.
عبد الملك بن مروان	: أحد ملوك بني أمية.
الحجاج بن يوسف الثقفي	: عامل عبد الملك على العراق.
سكينة بنت الحسين	: بنت الحسين بن علي.
ليلى الأخيلية	: الشاعرة المشهورة.
عزة الميلاء	: زعيمة الغناء بالمدينة.
سميَّة بنت عرفجة الثقفي	: من فتيات المدينة.
حسن (خطيب سمية)	: من أهل العراق.
محمد بن الحنفية	: أخو الحسين بن علي.
عبد الله بن صفوان	: من أتباع ابن الزبير.

وسمية بنت عرفجة الثقفي : لا أصل لها في "الأعلام" جـ٣، ص: ٢٠٥ ولا وجود لها في "أعلام النساء"، جـ : ٢، ص ٢٦١.

وحسن : شخصية خيالية لا وجود له على مسرح الحياة مطلقاً، فبالتالي كل ما قاله عنهما، أو بلسانهما، وما ربط بهما من أحداث ثورة ابن الزبير لا يمت إلى الحقيقة التاريخية بصلة.

وزيدان يجعل حسن من التوابين الذين ندموا على تخلفهم عن الحسين المقتول ظلماً في كربلاء.

وفي الرواية شخص اسمه أشعب الطماع اتخذته سكينة بنت الحسين مضحكاً لها، حتى إنها أمرته لذنب ارتكبه بين يديها أن يقعد على بيض حتى يفقس، وقد مضى عليه أيام وهو على هذا الحال! وحضن بيضاً مرة حتى فقس وخرجت فراريجه فملأت الدار. وكانت سكينة تسميها (بنات أشعب) !

وفي الرواية: جعل زيدان من أبطاله أشباحاً يتنقلون دون رقيب من معسكر ابن الزبير إلى معسكر الحجاج ليسيروا الأحداث كيفما شاءوا.

٧- وأبطال روايته (فتح الأندلس أو طارق بن زياد) هم :

رودريك : ملك القوط.

الفونس : خطيب فلورندا وابن غيطشة ملك الأسبان.

فلورندا : خطيبة الفونس، وابنة الكونت يوليان حاكم سبتة.

الكونت يوليان : حاكم سبتة، ووالد فلورندا.

طارق بن زياد : والى طنجة، وقائد الجيوش الإسلامية.

الأب مرتين : أحد أتباع الملك رودريك.

الميتروبوليت أوباس : عم الفونس.

يعقوب : خادم الفونس.

سليمان : من أتباع الكونت يوليان.

بربارة : خالة فلورندا، ومربيتها.

وفلورندا : لم تعرف لها المصادر العربية اسماً، وعرفها القصص الأسبانى باسم فلورندا، وتسمى أيضاً (لا كافا).

وقصة الحب فى الرواية بين (فلورندا) و(ألفونس)، وخصم الحبيبين الذى يعمل على منع اللقاء والزواج بينهما هو (لذريق).

٨- وفى روايته (شارل وعبد الرحمن) يحدد أبطالها بأنهم :

عبد الرحمن الغافقى (قائد الجيوش الإسلامية)، وهانئ (قائد الفرسان)، وشارل / قارله (قائد الجيوش الإفرنجية وحاكم أوستراليا)، وبسطام (قائد البربر)، ومريم (حبيبة هانئ وابنة عبد العزيز بن موسى)، وسالمة أجيلا (والدة مريم، زوجة رودريك ملك الأسبان)، ولمباجة (بنت الدوق أود وزوجة القائد البربرى)، وأود (حاكم اكتانيا ووالد لمباجة)، وهانى : شخصية لا أصل لها اخترعها زيدان، وأوكل إليها قيادة الفرسان المسلمين، وبسطام : أيضا شخصية خيالية وهو يتنافس مع هانى فى حب الفتاة (مريم).

ومريم : من الشخصيات الرئيسة فى الرواية، وعلى عادته فى كل رواية له، جعل منها مثالاً للجمال الباهر.

٩- وأبطال روايته عن (أبى مسلم الخرسانى) هم :

إبراهيم الإمام[١] : صاحب الدعوة العباسية.

أبو مسلم الخراسانى : عبد الرحمن بن مسلم.

أبو العباس عبد الله بن محمد: أول الخلفاء العباسيين.

أبو جعفر المنصور : ثانى الخلفاء العباسيين.

نصر بن سيار[٢] : أمير خراسان.

دهقان مرو : أحد الأمراء الفرس.

جلنار : ابنة دهقان مرو.

مروان بن محمد : آخر الخلفاء الأمويين.

خالد بن برمك : قائد عباسى.

أبو سلمة الخلال[٣] : ممول الدعوة العباسية.

ودهقان مرو، وابنته جلنار : شخصيتان خياليتان، لا وجود لهما على مسرح الحياة.

وفى القصة شخصية الضحاك (شبيب الخارجى). ولا ينسى زيدان الخادم الأمين، ويتمثل هنا فى شخصيات : سعيد الصقلبى، وسليمان الحلبى، وريحانة وفى القصة شخصيات غير هؤلاء أيضاً مثل صالح وغيره.

١٠- وأبطال روايته (العباسة أخت الرشيد أو نكبة البرامكة) هم :

هارون الرشيد : الخليفة العباسى.

جعفر البرمكى : وزير الرشيد.

العبّاسة : أخت الرشيد.

---

(١) إبراهيم الإمام : هو إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس. وهو الذى أوصى له أبوه محمد إمام الشيعة فى وقته بالأمر قبل وفاته.

(٢) نصر بن سيار الليثى : كان أميراً لخراسان من قبل الأمويين، وهو مضرى من كنانة.

(٣) أبو سلمة الخلال :هو حفص بن سليمان – أقامه إبراهيم الإمام بعد وفاة (بُكير بن ماهان) شيخ الشيعة بالكوفة.

زبيدة : زوجة الرشيد.

أبو العتاهية : شاعر الرشيد.

الأمين : ابن هارون الرشيد.

عتبة : جارية العباسة.

الفضل بين الربيع : وزير الأمين.

مسرور الفرغانى : الجلاد.

وكل هذه الشخصيات حقيقية. وفى الرواية شخصيات أخرى تؤدى أدوارا ثانوية مثل "أرجوان" خادم العباسة، و"أبو زكار الأعمى" المغنى، و"رياش" و"المعلم فنحاس" النخاس، و"حيان" بواب دار فنحاس، و"إسماعيل الهاشمى".

١١- وأبطال روايته (الأمين والمأمون) هم :

الأمين : ابن هارون الرشيد.

المأمون : ابن هارون الرشيد.

الفضل بن الربيع : وزير الأمين.

الفضل بن سهل : وزير المأمون.

زبيدة : زوجة الرشيد.

زينب : بنت المأمون.

دنانير : مربية زينب.

عبادة بنت محمد : أم جعفر البرمكى.

ميمونة : بنت جعفر البرمكى.

بهزاد : حفيد أبى مسلم الخراسانى.

طاهر بن الحسين: قائد المأمون. (قائد الجيش الذى قضى على جيش الأمين وبأمره كان قتل الأمين نفسه وقدمات طاهر مسموماً.

والفضل بين سهل كان هو الذى يدبر الأمر بمرو – حيث يقيم المأمون- وكان يرى لنفسه الفضل الأكبر فى تأسيس دولة المأمون، وكان يلقب بذى الرياستين، وقد قضى عليه المأمون واستوزر بعده أحمد بن أبى خالد، فسعى هذا إلى تولية طاهر بن الحسين على خراسان.

وميمونة بنت جعفر البرمكى لا وجود لها على مسرح الحياة، فهى خيال. وكذلك بهزاد حفيد أبى مسلم الخراسانى لا وجود له على مسرح الحياة. وحرى بالذكر: أن ميمونة وبهزاد هما العاشقان فى القصة. وينافس الفضل بن الربيع بهزاد فى حب ميمونة.

١٢ ـ وأبطال روايته (عروس فرغانة) هم :

المرزبان طهماز	: من سراة فرغانة. (هكذا كتب المؤلف جيهان)
عروس فرغانة	: جهان بنت طهماز.
القهرمانة خيزران	: مربية جهان.
سامان	: شقيق جهان.
ضرغام	: رئيس حرس المعتصم.
الأفشين حيدر	: قائد جند بغداد.
آفتاب	: والدة ضرغام.
أحمد بن أبى دؤاد	: قاضى القضاة.
بابك الخرّمى	: صاحب أردبيل.

وهؤلاء الأبطال كلهم خياليون باستثناء زنديقين هما : (الإفشين وبابك الخرمى، وقاضى القضاة أحمد بن أبى دؤاد.

١٣ ـ وأبطال روايته (أحمد بن طولون) هم :

أحمد بن طولون	: أمير مصر.
أبو الحسن البغدادى	: من الشيعة العلوية ؟!
دميانة بنت مرقص	: من سراة الأقباط.
سعيد الفرغانى	: مهندس مسيحى.
أحمد الماردانى	: متولى الخراج (بمصر).
يوحنا	: كاتب الخراج (نصرانى).

أسطفانوس : ابنه الذى يريد زواج دميانة.

زكريا : خادم دميانة (نصرانى نوبى).

البطريرك ميخائيل : بطريرك الأقباط.

أبو حرملة : أمير قبيلة البجة (لا دين له).

وليس كل هذه الشخصيات تاريخية، فباستثناء الحاكم وعامل الخراج وكاتبه والبطريرك، لا نظن أن بقية الأسماء لها أصل تاريخى، بدليل أن كلا من دميانة وسعيد واسطفانوس خياليون، ولكن زيدان يريد أن يوهم قارئه بأن كل الشخصيات ذات جذر حقيقى فى التاريخ.

١٤ـ وأبطال روايته عن (عبد الرحمن الناصر) هم :

عبد الرحمن الناصر : الخليفة الأموى بالأندلس.

الزهراء : محظية الخليفة.

الحـكم : ولى العهد.

عبد الله : الابن الثانى للخليفة.

ابن عبد البر الكسيبانى : من كبار فقهاء قرطبة.

سعيد : جاسوس للخليفة الفاطمى فى القيروان.

ياسر : خادم أمير المؤمنين.

ساهر : خادم للأمير عبد الله.

عابدة : جارية من مولدات بغداد.

سالم : شقيق الزهراء.

١٥ـ وأبطال روايته (فتاة القيروان) هم :

المعز لدين الله : الخليفة الفاطمى.

جوهر الصقلى : قائد المعز.

الأمير حمدون : حاكم سجلماسة.

لمياء (فتاة القيروان) : ابنة حمدون.

أم الأمراء : زوجة المعز.

الحسين : ابن القائد جوهر.

سالم : خطيب لمياء.

أبو حامد : داعية ضد المعز.

كافور الإخشيدى : ملك مصر.

زينب بنت الإخشيد : بنت ملك مصر السابق.

جعفر بن الفرات : وزير كافور.

مسلم بن عبد الله : شريف شيعى بمصر.

يعقوب بن كلس : يهودى من رجال الدولة.

ولمياء بنت حاكم سجلماسة البربرى تحب سالما، وهما خياليان لا وجود لهما على مر الزمن. وينافس سالماً فى حبها الحسين بن جوهر الصقلى، الذى يريدها وهى لا تريده. وتنتهى الرواية بفصل معهود غالبا هو (لقاء الحبيبين).

ومن الشخصيات التى وضعها زيدان : أم الأمراء، وأبو حامد.

١٦ - وأبطال روايته عن صلاح الدين ومكائد الحشاشين هم :

الخليفة العاضد : آخر الخلفاء الفاطميين.

ست الملك : أخت العاضد.

السلطان صلاح الدين الإيوبى.

نجم الدين : والد صلاح الدين.

بهاء الدين قراقوش : وزير صلاح الدين.

عماد الدين : من خاصة صلاح الدين.

عيسى الهكارى : من خاصة صلاح الدين.

أبو الحسن : محتال طامع فى الخلافة.

السلطان نور الدين زنكى : صاحب الشام.

راشد الدين سنان : زعيم الإسماعيلية (الحشاشين).

وست الملك، وعماد الدين، وأبو الحسن : شخصيات موضوعة، لا وجود لها على مسرح الحياة، ولكن تخيلها زيدان من أجل الموضوع الغرامى فى الرواية، فعماد الدين يحب ست الملك، وهى تحبه. وينافس عماد الدين فى حبها أبو الحسن.

نعم ! هناك شخصية تاريخية باسم (ست الملك)، ولكن هذه الشخصية النسائية لم تكن فى عصر هذه الرواية؛ بل كانت فى العصر الفاطمى، ولكن جرجى زيدان وضعها هنا مخطئاً فى زمانها وفى مكانها من الرواية ومن التاريخ أيضاً. وتفصيل.

١٧- وأبطال روايته المعنونة بـ"شجرة الدر" هم :

شجرة الدر : زوجة الملك الصالح.

شوكار : جارية شجرة الدر.

عز الدين أيبك التركمانى : قائد الجيش.

ركن الدين بيبرس : أحد أمراء الجيش.

سلافة التركية : جارية الملك الصالح.

سحبان : تاجر أقمشة من بغداد.

المستعصم بالله : آخر الخلفاء العباسيين ببغداد.

الأمير أحمد (أبو بكر) : ولى عهد المستعصم بالله.

هولاكو التترى : حفيد جنكيز خان.

مؤيد الدين بن العلقمى : وزير المستعصم بالله.

وكل من شوكار، وسلافة التركية، وسحبان شخصيات وضعها خيال زيدان من أجل الموضوع الغرامى فى الرواية.

١٨- وأبطال روايته (استبداد المماليك) هم :

على بك الكبير	: شيخ البلد فى مصر.
عثمان باشا	: والى مصر التركى.
محمد بك أبو الذهب	: خليفة على بك وصهره.
الأمير يوسف شهاب	: حاكم لبنان.
الشيخ ضاهر الزيدانى	: حاكم عكا.
الأميرال أورلوف	: قائد الأسطول الروسى.
السيدة نفيسة المملوكية	: زوجة على بك.
السيد المحروقى	: من السادة الأشراف بمصر.
السيد عبد الرحمن[1]	: تاجر مصرى كبير.
حسن	: ابن السيد عبد الرحمن.
سالمة	: زوجة السيد عبد الرحمن.
على	: خادم الأسرة.
عماد الدين	: رسول الشيخ ضاهر.

والسيد عبد الرحمن، وزوجته سالمة، وابنهما حسن شخصيات موضوعة من خيال زيدان، فالأسرة كلها لا وجود لها على مسرح الحياة. وكذلك خادم الأسرة (على) شخصية غير تاريخية. والأسرة غير محددة المعالم، يمكن أن تكون أية أسرة مصرية فى خلال فترة حكم على بك الكبير لمصر.

ومن الشخصيات غير التاريخية أيضا : شخصية "السيد المحروقى".

١٩- وأبطال رواية (المملوك الشارد) هم :

محمد على باشا الكبير	: والى مصر.
إبراهيم باشا	: ابن محمد على وخليفته.
إسماعيل باشا	: ابن محمد على.
الملك نمر	: ملك شندى فى السودان.

---

(١) يعد السيد عبد الرحمن وأسرته المحور الذى ترتكز عليه أحداث الرواية.

الأمير بشير الشهابى : حاكم لبنان.

أمين بك : من أمراء المماليك.

غريب : ابن أمين بك.

الأميران أمين وخليل : ابنا الأمير بشير.

عبد الله باشا الجزار : والى عكا.

جميلة : زوجة أمين بك.

سالم أغا : من ضباط جيش إبراهيم.

سعيد : خادم أمين بك.

وأمين بك وجميلة وغريب وسعيد : أسرة خيالية لاوجود لها على مسرح الحياة.

٢٠- وأبطال روايته (أسير المتمهدى) هم :

الخديوى محمد توفيق : خديوى مصر.

أحمد عرابى باشا : قائد الثورة العرابية.

محمد أحمد المهدى : الخليفة المتمهدى.

هيكس باشا : قائد الحملة المصرية.

غوردون باشا : حكمدار السودان.

الأمير عبد الحليم : قائد جند المتمهدى.

إبراهيم : موظف بالقنصلية الإنجليزية.

سعدى : زوجة إبراهيم.

الكابتن شفيق : أسير المتمهدى.

فدوى : بنت أحد الباشوات الموراليين.

عزيز : من أبناء الذوات.

بخيت : خادم شفيق.

أحمد : خادم فدوى.

وهؤلاء الأبطال – كما ترى – خليط من شخصيات تاريخية حقيقية، وشخصيات متخيلة.

أما الشخصيات التاريخية الحقيقية فهم :

الخديوى محمد توفيق، أحمد عرابى، محمد أحمد المهدى، هيكس باشا، غوردون باشا، الأمير عبد الحليم، وهؤلاء هم الذين كانوا يتحركون داخل الإطار التاريخى الحقيقى. وأما الشخصيات المتخيلة فهم : إبراهيم الموظف بالقنصلية الإنجليزية بالقاهرة، وسعدى زوجته، وابنهما الكابتن شفيق وهو البطل الرئيسى أو أسير المتمهدى. وفدوى البطلة الرئيسية التى ارتبطت مع شفيق بقصة حب سايرت الأحداث التاريخية، وأبوها الباشا، وعزيز وهو واحد من أبناء الطبقة العالية الغنية المتأثرة بالمدنية الغربية، ثم بخيت خادم فدوى، وأحمد خادم شفيق، وكلاهما له دور مهم فى تتابع الأحداث والتأثير فى مجراها. وعزيز هو المنافس لشفيق فى حب فدوى.

ونجد شخصية البطل الرئيسى رومانسية إلى أبعد حد. فقد شاء لها الكاتب أن يجعلها مثالية وأن ينسب إليها الشهامة والحياء والتمسك بالتقاليد، ورقة الشعور، والوفاء، وكل ما يمكن أن نتخيله من صفات نبيلة، حتى اللغات الأجنبية التى يجيدها، يشذ عن طبقته فلا يرتاح للحديث بها، بل يتمسك بالعربية، بل هو كامل حتى فى قوته البدنية ويستطيع أن يتغلب على خصمه بسهولة، ومع ذلك نراه شديد السذاجة حتى ليطلع (عزيزاً) على أسراره الخاصة وهو يعلم خبثه ومكره، ويقع صيداً سهلاً فى شباك مؤامرات عزيز لافتقاده بعد النظر وصحة الفكر.

وكذلك الشأن بالنسبة لفدوى فهى شخصية شديدة السلبية.

٢١- وأبطال روايته (الانقلاب العثمانى) هم :

عبد الحميد خان : السلطان العثمانى.

أحمد نور الدين : ابن السلطان عبد الحميد.

نيازى بك : من زعماء الأحرار.

أنور باشا : من زعماء جمعية الاتحاد والترقى.

ناظم بك : قائد جند سلانيك.

نادر أغا : رئيس أغوات يلدز.

شيرين : فتاة تركية.

طهماز : والد شيرين.

توحيدة : والدة شيرين.

رامز : من زعماء جمعية الاتحاد والترقى.

صائب : جاسوس عثمانى.

سر خفية : رئيس جواسيس السلطان.

القادين ج : من جوارى السلطان.

والدة سلطانة : رئيسة دور الحريم.

سعيد بك : من زعماء جمعية الاتحاد والترقى.

فوزى بك : أحد قواد الحرس الألبانى.

وشيرين فى الرواية تحب رامزا وهو يحبها. وصائب ينافس رامزا فى حب شيرين، لكنها لا تحبه. والثلاثة شخصيات وضعها خيال زيدان.

٢٢- وأبطال روايته (جهاد المحبين) هم :

سليم : محام شاب بالقاهرة.

حبيب : موظف حكومى بالقاهرة ومقيم بحلوان.

سلمى : خطيبة سليم.

أدما : خطيبة حبيب.

شفيقة : أخت حبيب.

سليمان : والد سلمى.

سعيد : والد أدما.

فؤاد : شقيق سليم ومقيم بالإسكندرية مع أمهما.

داود : تاجر اسكندرى بالقاهرة.

وردة : أرملة غنية بالإسكندرية.

أميلى : ابنة وردة.

وكلهم خياليون. والرواية غرامية تمثل مأساة من مآسى المحبين، وما يقاسونه فى سبيل الحب. وفوق عنوانها على الغلاف ثلاث كلمات هى : "روايات تاريخ الإسلام" والسؤال : ما علاقتها بتاريخ الإسلام ؟!

والعجيب أن من أبطال الرواية الخياليين: الآنسة آدما ابنة الخواجة سعيد والخواجة سليمان والد حبيبة سعيد "سلمى"، كل ذلك فى "روايات تاريخ الإسلام"!

هذا وفى روايات جرجى زيدان أعوان من الخدم المخلصين يساعدون عنصر الخير فى أعماله أو عنصر الشر على تحقيق مآربه الشريرة[1] مثال ذلك:

سعيد الصقلبى وسليمان الحلبى وريحانة: فى روايته عن (أبى مسلم الخراسانى).

سعيد وبخيت : فى المملوك الشارد.

على : فى استبداد المماليك.

بربارة المصرية : فى أرمانوسة المصرية.

بلال وريحان : فى ١٧ رمضان.

بلال : فى الحجاج بن يوسف.

ياقوتة : فى صلاح الدين.

---

(١) ينظر : القصة فى الأدب العربى الحديث لمحمد يوسف نجم ص١٨٤، ١٨٥.

الانتقاد التاريخى
لروايات زيدان
من معاصريه

تمهيد

نقصد بالانتقاد التاريخى لروايات زيدان : ذلك اللون المتميز من النقد الروائى الذى كان ثمرة للشك الذى خامر النقاد المعاصرين لجورجى زيدان في موقفه من التاريخ الإسلامى. وهو تقويم نقدى تناول "المادة التاريخية" التى وردت في رواياته، ولم يمس الروايات من حيث عناصرها الفنية، اللهم إلا ما دار حول (الشخصية التاريخية)، وما أثارت من جوانب وقضايا تتصل بها.

وهذا اللون من التقويم لروايات زيدان هو بعينه المنهج الذى سلكناه في المباحث التى تقدمت من دراستنا التاريخية لهذه الروايات. وكان بالإمكان أن ندرجه في ثنايا كلامنا على سبيل الاستشهاد أو الاقتباس؛ لكننا آثرنا أن نفرد له هذا المبحث الخاص لعدة اعتبارات، منها : أن نصوص هذا الانتقاد التاريخى لروايات زيدان ما تزال حتى اليوم متوارية عن أعين الكثير من الدارسين، لا يعرفون شيئاً عنها لأنها مسطورة في صحف ومجلات قديمة كائنة في غرف الدوريات بالمكتبات العامة، فأحببنا أن يضمها كتابنا هذا جمعاً لشتاتها، وحفظاً لها من التلف والاندثار، وحتى تكون عوناً للدارسين اللاحقين الراغبين في دراسة روايات زيدان مرة أخرى.

وهناك اعتبار آخر يضاف إلى ما تقدم : هو أن استعراضنا لنصوص ذلك الانتقاد التاريخى لروايات زيدان من معاصريه يكشف جزءاً من الدراسة التاريخية لتلك الروايات، وهل هى ذات سمو أو انخفاض، وكيف تلقى معاصرو زيدان هذه الروايات.

وتكمن الأهمية الكبرى لنصوص هذا الانتقاد التاريخى في أنها صدرت عن رجال كان لهم وزنهم إبان عصر زيدان، وعهد تلك الروايات في مجال التقويم.

علـى أنـها كانت تنشر بعد نشر كل روايـة، وكان الكاتب يقرأ ما ينشر، فيقوم بالتعقيب عليه، إما تبريراً لمنهجه، أو تبياناً لمقصده؛ مما أسهم في خلق حوار أدبى ونقدى حول هذه الروايات، حتـى إنـه ليمكن أن يدرس هذا الجانب المهم في مبحث مستقل تحت عنوان "الحـوار الأدبـى والـنقدى حول روايـات زيدان في العهد الذى نشرت فيه".

والأهم من ذلك كله أن هذا الانتقاد التاريخى كان له دور فعال في إدخال المؤلف بعض تعديلات على منهجه في الكتابة، وطريقته في النشر، وأسلوبه في نـهايات الروايات.

ثـم إن استعراضـنا لنصـوص ذلـك الانـتقاد التاريخـى الـذى وُجّـه مـن معاصرى زيدان لرواياته، يعمق ويستكمل - بدون شك - دراستنا التاريخية التى تقدم عرضـها، وبـذلك نكون قد حاولـنا أن نقدم الجانـب التاريخـى فـي روايـات زيدان، على أتم صورة، وأكمل بيان.

وتجدر الإشـارة إلـى أن الآراء التـى سأسردها وأعقب عليها قد يتكرر الرأى منـها عند اثنين أو أكثر، وقد يكون الرأى فريداً لم يشترك معه غيره من الآراء، والنتيجة، سواء في التفرد أو الالتقاء : هى أن روايات زيدان قد شغلت من تفكير المفكرين، وآراء الدارسين مـا يستأهل أن نعقد لـهـا هذا المـبحث فـي ختام البحث التاريخى لروايات زيدان.

بعد هذا التمهيد أذكر : أن روايات زيدان لم تكن هدفاً للانتقاد التاريخى من معاصريه اعتباطاً أو حباً فـي القول ورغبة فـي التجـريح والانـتقاد، وإنمـا تجمعت عوامل عديدة دفعت معاصريه لذلك، وكان من أبرز هذه العوامل :

١ـ حرصـه فـي تشـكيل مادتـه الـروائية علـى استخدام العنصر الغرامـى وسيلة للتشويق وللتمهيد للعملية التعليمية.

٢ـ الشك حول موقفه من التاريخ الإسلامى، خاصـة وأن المـادة الروائية التى اعتمد عليها فـي رواياتـه كانت أساساً مستمدة من تاريخ الإسلام. ومما زاد هذا الشك في نفوس النقاد : اقتصـاره فـي اختياراته التاريخية على فترات الاضطراب التـى طرأت علـى الدولـة الإسـلامية، وابتعاده تمامـاً عن عصور

الازدهار والتألق في تاريخ الإسلام، وقد سبق أن فصلنا القول عن هذا في حديثنا عن المجالات التاريخية التى تناولها في رواياته.

وها نحن أولاء نستعرض نصوصاً (مصحوبة بالتعقيب) من انتقادات معاصرى زيدان :

أولاً : كان أول نقد لرواياته عام ١٨٩٢م حينما ظهرت أولى رواياته (المملوك الشارد)، وكان الناقد لهذه الرواية زميله يعقوب صروف صاحب مجلة المقتطف، وقد لاحظ صروف في الرواية ـ من بين ما لاحظ ـ أن الكاتب "لم يطلق العنان لخياله في المادة التاريخية، وما تخللها من أحداث وأوصاف اجتماعية ومعاشية"، وعد صروف ذلك "نقيصة في الرواية"، وأخذ على زيدان "إغفاله رواية مشهورة شعبياً عن نجاة ذلك المملوك؛ بدعوى أنها غير تاريخية، ولو كان استعان بها لعدّت من حسنات روايته ـ على حد تعبير صروف ـ ووصف الناقد أسلوب الروائى في هذه الرواية بأنه "سهل غير ممل، شائق، وأوضح أن ذلك يمثل غاية يتوخاها مؤلفو الروايات، وأنها عندهم في المقام الأول. وعلى الرغم من تمجيد صروف لأسلوب زيدان[1]، فإنه قد أخذ عليه بعض سقطات وردت في الرواية مثل لها بوصف الكاتب للأمير بالذكاء والفراسة، ثم تصويره في أحد المواقف على غير ذلك مما يتناقض مع وصفه الأول. كما مثل بقتل المملوك للعبد بدون مبرر فنى، وبتخلى أحد الولدين لأخيه عن محبوبته؛ مما يتناقض مع طبيعة الحب وسموه على الشهامة، فضلاً عن الإيجاز في الشرح في عديد من المواقف.

وأبدى الدكتور صروف ملاحظات دقيقة حول رسم الشخصية التاريخية عند زيدان من نحو عدم مراعاته أبعاد الشخصية، بحيث إنها ظهرت في صورة غير مقنعة، فقد وصف زيدان "بشيراً" في الرواية بالذكاء والفراسة، وأطلعه على حوادث كثيرة من تاريخ المملوك الشارد وزوجته، تكفى من كان أقل منه ذكاء وفراسة أن يعرف أن (جميلة) هى زوجة المملوك و(غريباً) ابنه، ولذلك تململنا حين بلغنا الصفحة ٨٤، ورأينا غفلة الأمير (بشير) وهى متناقضة لما وصفه به المؤلف.

كذلك لاحظ صروف : أن قتل المملوك الشارد للعبد (سعيد) قتل غير مبرر، كما أن "... تخلى (غريب) لأخيه عن الأميرة (سعدى) بعد أن تمكن حبها من قلبه وحبه من قلبها لا يغتفر للمؤلف لا سيما وأن أخا غريب لم يكن رآها ولا هى رأته"، ولاحظ صروف كذلك : أن المؤلف يبتسر المواقف مما يحرم القارئ من الإحساس بالمكان والأشياء.

وأضاف يعقوب صروف قائلاً : ".. وليس في الرواية فصول هزلية فكاهية متضمنة كلام المهرجين والخدم والحشم والمكارين، وما أشبه. وهذه الفصول قلما تخلو منها الروايات الشهيرة! فإن وصف أخلاق الناس وأحوالهم المعيشية لا يكفى فيه الاقتصار على ما يقوله ويفعله الرؤساء والأمراء. بل يجب أن يتناول شيئاً من وصف كل الطبقات وأحوالهم المعيشية، ولو على سبيل الفكاهة والمزاح، ولغة الرواية حسنة منسجمة، وطبعها جميل، ولكنها لا تخلو من بعض الهفوات اللغوية والمطبعية التى يسهل إصلاحها في الطبعة الثانية. وفيما سوى ذلك لا نرى في هذه الرواية البديعة إلا انتساقاً في الحوادث، وصدقاً في الرواية، وسهولة في التعبير، تشهد لحضرة المؤلف بطول الباع، وبأن رواياته التى هذه الرواية باكورتها، ستقع أحسن موقع لدى القراء، فتسليهم وتفيدهم، وتفى بغاية طالما تمناها كثيرون، وهى إيجاد روايات أدبية مبنية على حوادث حدثت في هذه الديار، لكى تتم الفائدة من مطالعتها، فنشكره على تأليفها شكراً جزيلاً، ونتمنى أن يطالعها جميع الأدباء".

وإذا كان لنا من تعقيب على ما قاله صروف آنفاً فإننا نقف بصفة خاصة عند مؤاخذته لزيدان على إغفال ما قد يتعارض مع الصحة التاريخية، ويخدم الفن في آن واحد؛ لأنه إذا صح فليس من الضرورى أن يلتزم الروائى بما سماه الفصول الهزلية الفكاهية (أى الطريقة) إلا إذا كانت من صلب الأحداث وتطور الشخصيات كما نقول بلغة اليوم، ومما لا شك فيه أن ذلك مطلب لم يكن واضحاً أو مستقراً في نقد العصر الذى عاش فيه الناقد والكاتب وضوح الدعوة إلى بناء الرواية على حوادث واقعية أو حقيقية.

---

(١) عدد فبراير ١٨٩٢م ص٣٤٥ ـ ٣٤٩ تحت عنوان (تأليف الروايات وانتقادها ورواية المملوك الشارد).

لكن الناقد على اية حال يحمد له التفاته إلى ظاهرة عدم احتفال المؤلف في الرواية بنموذج الإنسان العادى الذى ينتمى إلى الطبقة الدنيا خاصة، فهو يفتقر إلى النظرة الشاملة للطبقات الاجتماعية في البناء الاجتماعى.

كذلك نقف عند عدم التفات صروف إلى دور عنصرى الوصف : المكان والزمان في إلقاء أضواء تكشف عن أبعاد الشخصية الروائية، بمعنى "أن مشاهد الوصف لا تأتى منبتة الصلة عن البناء الروائى؛ بل تكون لها مهمة في التشكيل الروائى، بحيث يتآزر تصوير الواقع الخارجى : الزمان والمكان والأشياء في إلقاء أضواء عن واقع الشخصية النفسى"(١) وما هكذا جاء تصور صروف، بل اكتفى بقوله : "والإيجاز في الشرح كثير، فترى الأمير بشيراً أو غيره ينتقل من بلاد إلى أخرى، ولا يوصف شيء مما يلاقيه في طريقه، ولا من أحوال البلاد التى يمر فيها إلا قليلاً.

وحرى بالذكر أن ذلك النقد المهذب الذى كتبه يعقوب صروف عن رواية (المملوك الشارد) قد أحدث صدى سريعاً لدى جرجى زيدان، فرد عليه في الشهر التالى مباشرة.

وقد أشار في رده إلى "إجماع النقد" عند صروف وغيره ممن لم يذكر أسماءهم، على استنكار مقتل "سعيد"، وزواج "سعدى" بـ(سليم) في تلك الرواية. ومع أنه برر موقف القتل وموقف الزواج، ودافع عنهما، فقد أضاف تنازلاً غير مسبوق في قوله : "أما إذا كان حضرات القراء يفضلون قيامته (أى: سعيد) فإنى أقيمه لهم في الطبعة الثانية إن شاء الله تعالى"(٢).

ثم انتقل زيدان إلى موقف الزواج فقال : "إن الحب لا يغلب الشهامة إلا متى غلبت العواطف الإرادة" ولكنه وعد بإصلاح الحال في الطبعة الثانية، واعترف بما في الرواية من إجمال واختصار، ولكنه برر قفز المملوك من فوق سور القلعة، معترضاً بذلك على الرواية الشعبية التى أوردها صروف، مشيراً

---

(١) نقد الرواية للهوارى : ص٦١.
(٢) المقتطف : مارس ١٨٩٢ ص٤٠٥.

إلى عدد من المراجع التى استند إليها، ومستنكراً مبالغة الناس في رواية الحوادث الغريبة[1].

وأخيراً شكر الناقد وغيره ممن انتقدوا "تلك الرواية الحقيرة"[2] على حد تعبيره، أو على سبيل التواضع بالطبع.

ولم يكن ذلك التنازل الذى أبداه زيدان عابراً أو مؤقتاً، وإن كان تجارياً إن صح التعبير، فقد أبدى أكثر منه فيما بعد.

ومما لا شك فيه أن ذلك التنازل ذو دلالة واضحة على قوة صدى النقد الذى وجه إلى تلك الرواية، بغض النظر عن كونه قرينة على ضعف الرؤية الفكرية والفنية للكاتب وعدم تماسكها.

ثم إن ذلك التنازل يدل على أننا أمام كاتب يرضخ لرغبات الآخرين فيما يكتب، وهذا أمر جد عجيب، لأن الرضوخ ليس مبدأ مدعياً ولا مقرراً في الأدب عند الأديب الفحل، ولكنه كذلك عند من نسميهم بالأدباء غير الجادين أو الملبين لرغبات الجمهور والمستجيبين للذوق السائد.

وعلى أية حال؛ فإن زيدان استجاب لرغبة صروف ورغبة غيره ممن راسلوه[3] في هذا الموضوع، وحقق للجميع ما اقترحوه، فأدخل تغييراً على نهاية الرواية، صار به النص المتداول الآن مختلفاً عن النص الذى ظهر لأول مرة عام ١٨٩١م .. الأمر الذى صار به زيدان في تلك الرواية كاتباً يذكر الروايات المغايرة للمشهور المتداول تاريخياً لا شعبياً استجابة لرغبات قرائه وتحقيقاً لاقتراحات ناقديه، فجاءت الرواية على نحو مغاير لرواية عبد الرحمن الرافعى التى هى أشهر الروايات التاريخية، وأكثرها تداولاً بشأن قصة نجاة هذا المملوك واسمه.

وقد رواها عبد الرحمن الرافعى على النحو التالى :

".. دخل القلعة في صبيحة ذلك اليوم أربعمائة وسبعون من المماليك وأتباعهم، فقتلوا جميعاً، ولم ينج منهم إلا واحد يسمى (أمين بك)؛ فإنه كان في

---

(١)، (٢) ينظر : السابق ص٤٠٧.

(٣) ينظر : مجلة المقتطف : ٦/١٦، ومجلة الهلال : ٤٥٧/٦، ٤٥٨.

مؤخرة الصفوف، فلما رأى الرصاص ينهال على زملائه طلب النجاة، فصعد بجواده إلى المكان المشرف على الطريق، وبلغ سور القلعة، ورأى الموت محيطاً به، فلم يجد منجى إلا أن يرمى بنفسه من أعلى السور إلى خارج القلعة، وكان الخطر المحقق في تلك المحاولة؛ إذ يعلو السور عن الأرض ستين قدما، ولكنه خاطر بنفسه مؤثراً الموت على القتل، فلكز جواده، فقفز به مترنيا، ولما صار على مقربة من الأرض قفز هو مترجلا، وترك الجواد يتلقى الصدمة، فتهشم الجواد لفوره، ونجا أمين بك من الموت، ومضى يعدو فى طريق الصحراء، ومضى يطوى الفيافى متنكراً حتى بلغ إلى جنوب سورية"[1].

ثانياً : عندما نشر زيدان عام ١٨٩٦م روايته (أسير المتمهدى) التى صور فيها (الحركة المهدية في السودان) بعث إليه قارئ يدعى (صالح أفندى هارون) رسالة تتضمن سؤالاً عن الروايات التاريخية، أثارته عنده قراءته لهذه الرواية. وقدم هذا القارئ سؤاله بقوله : "الغرض من الروايات التاريخية استيعاب الحقائق التاريخية بطريقة تختلط فيها تلك الحقائق بحوادث وهمية يأتى بها الرواةَ لبرقشة رواياتهم، وتسهيل فهمها. فالتمييز بين ذينك الأمرين واجب؛ إذ كثيراً ما يمتزجان امتزاجاً يصعب معه على القارئ التمييز بينهما، وخصوصاً إذا لم يكن له معرفة ببعض ما تتضمنه تلك الرواية من الحقائق التاريخية"[2].

ثم استطرد القارئ فذكر أمثلة من الرواية، وطلب من جرجى زيدان توضيح الحد الذى يجب أن يقف عنده الروائيون، أو الرواة على حد تعبيره، في التمييز بين الحقائق التاريخية، وما يدخلونه عليها من البرقشة، حتى يسهل عليه التمييز بين الحقيقى والوهمى[3]. والقارئ - كما ترى - يعترض على صعوبة التمييز بين الحقائق التاريخية والحوادث الخيالية في رواية زيدان،

---

(١) عصر محمد على لعبد الرحمن الرافعي : ص١١، ١٢ الطبعة الثالثة ١٩٥٠ وحرى بالذكر أن الرواة اختلفوا حول قصة نجاة هذا المملوك. وذكرته المصادر تحت أسماء مختلفة. وقد ذكره الجبرتى في عجائب الآثار في حديثه عن منبحة المماليك، وقال إنه تسلق من القلعة وهرب إلى ناحية الشام (مجلد ٤ ص١٣١).

(٢) مجلة الهلال عدد أكتوبر ١٨٩٦م ص١٠٣ هل هذا أم مايو ١٨٩٢ ص١٠٤ يراجع.

(٣) ينظر : السابق والصفحة نفسها.

ولذلك يطالبه بوضع الأمور في نصابها، ويبين لقرائه الحد الفاصل في رواياته بين الحقيقة والخيال.

فرد عليه زيدان بقوله : "لا نظن وضع مثل هذا الحد مستطاعاً في كل رواية؛ لأن ذلك يختلف باختلاف مواضيع الروايات وأنواع حوادثها ونسقها، مما لا يقع تحت حصر. وعندنا أن الرواية التاريخية تعظم قيمتها كلما عسر التمييز بين حقائقها التاريخية وحوادثها الوهمية. وقد جربنا ذلك بنفسنا، فذيلنا رواية المملوك الشارد في طبعتها الأولى بفذلكة بينا فيها ما حوته من الحقائق التاريخية، وفصلنا بينها وبين الحوادث الوهمية، فلقينا من حضرات القراء نفوراً واستنكافاً، حتى كتب إلينا جماعة كبيرة منهم يعنفوننا على ذلك. فلما طبعناها الطبعة الثانية أغفلنا ذلك الذيل، وجرينا على إغفال أمثاله في سائر رواياتنا. وقد علمنا بالاختبار أن من الوسائل المشوقة للمطالعة أن لا يميز المطالع بين حقائق الرواية التى يطالعها وبين أوهامها .. على أننا نقول بالإجمال : إن الجانب الوهمى من الرواية يكون غالباً في أعمال بطل الرواية المتعلقة بالحب، وما جرى مجراه. فإن المؤلف إنما يتخذ تلك الحكاية الغرامية أو ما يقوم مقامها، وسيلة لبسط الحقائق التاريخية وترغيب القارئ في المطالعة"[(1)].

ونحن مع زيدان فيما ذكره لذلك القارئ بخصوص ما سماه حذف الذيول من الرواية، لأن حذف مثل تلك الذيول التى أشار إليها أمر معقول، لأنها لا تضيف شيئاً إلى جسم النص ولا بنية الرواية؛ لكننا نرفض بقية ما ادعاه من آراء فى هذا الرد!

ثالثاً : كان الشيخ محمد رشيد رضا ممن نقدوا بعض روايات زيدان نقداً ممحصاً؛ فقد سدد سهام نقده إلى ثلاث من هذه الروايات، أولاها : (فتح الأندلس)، والثانية (فتاة غسان)، والثالثة (الحجاج بن يوسف).

توقف الشيخ رشيد رضا عند (فتح الأندلس) وقفة سريعة، استهلها بالموجز الذى كتبه زيدان على غلاف الرواية، ثم أوضح أنه قرأها ـ بناء على طلب من مؤلفها ـ "حباً في النقد الذى لا يحبه إلا الواثق بحسن عمله، الراغب

---

(١) السابق : ص١٠٤.

في تكميله"، وأقر للمؤلف بحسن تأليف القصص، معللاً ذلك بأن "القارئ لا ينتهي من فصل من فصولها إلا بشوق يلح به، ويحفزه إلى قراءة ما بعده حتى ينتهي بالفصل الأخير". وبالرغم من هذا التنويه الواضح بالمؤلف فإن الشيخ رشيد رضا قد أخذ عليه عدم تطبيقه منهجه في رواياته السابقة، فلم يذكر الفتح الإسلامي للأندلس إلا بغاية الإيجاز. ثم دافع الناقد عن الكاتب إزاء انتقاد الغير "من نبهاء المسلمين على هذه القصص أنها تصور للقارئ أن انتصار المسلمين في الفتوحات لم يكن إلا بسبب ما كان ألمّ بالأمم التي فتحوا بلادها، كالرومانيين والفرس والمصريين والبربر والقوط ـ من فساد الأخلاق، واختلاف المذاهب الدينية، وتفرق الكلمة"، وأيد الشيخ رشيد رضا المؤلف في هذه النظرة، ثم اختتم حديثه بالإشارة إلى لغة القصة التي توقع أن تكون خيراً مما سبقها، فإذا هي تشتمل على كلمات وألفاظ عامية لم ير مثلها عند المؤلف من قبل. ونبّهه على أن صحة العبارة لا تحول بين المعنى والإفهام، فلا ضرورة توجب تسهيل الفهم على العوام[1].

أما الرواية الأخرى ـ أعني فتاة غسان ـ فقد توقف عندها الشيخ رشيد رضا وقفة أطول من وقفته عند رواية فتح الأندلس، وكان مما أوضحه في هذه الوقفة أنه "وجد في قراءتها لذة لا تقل عن لذة قراءة أختها، وسلامة عبارة أكثر مما وجد في سابقتها، وفائدة في التاريخ الإسلامي أكبر من فائدة الأخرى، إلا أنه "لم يجدها تشرح حال الإسلام شرحاً، أو تبسط عوائد العرب وأخلاقهم وسائر أحوالهم بسطاً، كما قال مؤلفها على غلافها، ولكنه وجد فيها "جملة صالحة من ذلك، كان يجهلها السواد الأعظم من القراء، لأن أكثرهم من العوام، وإن تعلم الكثيرون منهم في المدارس الابتدائية، فإن مدارس مصر لاحظ لها من تاريخ الإسلام، ولذلك كنت أناظر جماعة من أهل العلم يدعون أن قراءة هذه القصص ضارة، وأدّعِي أنها نافعة""[2].

ومع أن الناقد لم يقدم ملخصاً للرواية أكثر من ملخصها الذي أثبته مؤلفها على صدرها، فإنه قدم بعض حجج الذين كانوا يرون أنها هي وأمثالها ضارة بسبب ما تتضمنه من أغلاط تاريخية، حتى في الأمور المشهورة "ومثل

(١) المنار مجلد ٦ سنة ١٩٠٣ ص٣٩١، ٣٩٢.
(٢) السابق : ص ٣٩٣.

هذا لا يسلم منه كتاب" على حد تعبيره، كقول زيدان : إن أمير العرب على فتح العراق هو (سعد بن مالك)، في حين أنه (سعد بن أبى وقاص)، وإن كان اسم أبيه مالكاً، أو نقله نص رسالة الرسول (ﷺ) إلى هرقل عن (الأغانى)، في حين أن الرواية الصحيحة لهذه الرسالة موجودة في كتب الحديث المعتمدة، مثل صحيح البخارى. واتفق الناقد مع أولئك المحتجين - بعد أن أورد نصوص الأغلاط التاريخية وصوابها - على أن زيدان "قصر في اعتماده على كتاب أدبى، دون كتب الحديث وكتب السير في أهم شيء من موضوع قصته". ولكنه استطرد في توضيح أخطاء وأغلاط أخرى كثيرة، راح يعرضها ويناقشها واحداً بعد الآخر. ويمكن إجمال هذه الأغلاط فيما يلى :

١- نقل جرجى زيدان عن الواقدى - في آخر روايته - صورة خاتم الرسول عليه الصلاة والسلام! وهو مصدر تاريخى مملوء بالكذب، في حين أن الخاتم الصحيح يضع لفظ الجلالة في السطر الأعلى قبل لفظ "محمد" ولفظ "رسول".

٢- أسند زيدان إلى "أبى سفيان" أقوالاً في سيرة الرسول (ﷺ) لم يقلها ! فقد جمع "أقوالاً من الكتب، وألفها مع بعض آرائه، وأسندها إلى أبى سفيان؛ لأنهم يستجيزون ذلك في القصص! لأن العبرة عندهم بالمسائل لا بالرواية! وإن سمى أهل العربية هذه القصص روايات كذباً وميناً.

٣- سلم زيدان بصحة مسألة (الغرانيق) التى كذبها جمهور العلماء، ولكن عذره - في مرآة الشيخ رشيد رضا (لامرآتى) أنه مسيحى، لم يحقق صحة الرواية، وإلا لأدرك أنها موضوعة بعد عهد النبى (ﷺ). وكونها وردت عند بعض علماء المسلمين لا يبرر صحتها.

٤- أسند زيدان إلى أبى سفيان - أيضاً - أن أبا طالب (عم النبى) كان يصحب الرسول (ﷺ) في أسفاره، ويجالسان الرهبان، وأن الراهب بحيرا بشره بالنبوة، وأن الرسول (ﷺ) في صباه كان يجادل الناس ويطارحهم في مكة حول الكعبة، ولكن الصحيح أنه "ما كان معروفاً بالفصاحة (فى صباه)، ولا بسعة الاطلاع، ولا كان يجادل الناس" أما بحيرا فلم يكن - كما زعم النصارى - معلماً للرسول (ﷺ)، فضلاً عن أن الرسول (ﷺ) لم يسافر مع

عمه إلا مرة واحدة ، وهو في التاسعة من عمره. وعند ذاك رآه بحيرا، وبشر به، ولم يره بعدها، ثم سافر مرة أخرى وهو في الخامسة والعشرين من عمره، حيث رآه الراهب (نسطورا)، فبشر به أيضاً.

وقد أفاض الشيخ محمد رشيد رضا في مناقشة مسألة الراهب (بحيرا) هذه، وفند دعوى تعليمه للرسول عليه السلام، ثم اختتم نقده الممحص بأنه لا يعتقد في سوء قصد المؤلف! وأنه لا يجوز لمسلم أن يثق بغير العلماء الراسخين من أهل الدين في نقل الأمور الدينية.

وإذا كان لى من تعليق على قول الشيخ رشيد رضا : إنه لا يعتقد في سوء قصد جرجي زيدان فيما زعمه وادعاه في روايته، فإننى أعد هذا القول من الناقد ضرباً من المجاملة للكاتب؛ لأن سوء القصد عند زيدان أمر ثابت، وقد سبق أن أوردت العديد من الأدلة المؤكدة لذلك.

وأما الرواية الثالثة ـ وهى رواية (الحجاج بن يوسف) التى ظهرت عام ١٩٠٢ ـ فقد نوّه بها وبروايات زيدان عموماً الشيخ محمد رشيد رضا، ثم دافع عنه ـ وهو بصدد الكتابة عن هذه الرواية ـ إزاء ما اتهم به في صحيفة (المؤيد) وقتها من إدخال الأخبار الكاذبة على التاريخ الإسلامى كشأن القصص عادة، ونسبة العشق والغرام إلى رجال سلفنا الكرام. وأضاف أنه يثق في المؤلف، معللاً ذلك بأنه "من أبعد خلق الله عن التعصب الدينى، وأحسنهم إنصافاً، فإن فرط منه ما أوجب الانتقاد أو يوجبه فهو عن غير سوء قصد" ثم قال الشيخ رشيد رضا : "ولا شك أن قراءة هذه القصص مفيدة؛ فمن يرى من المنتقدين أن فيها تقصيراً فليضف ما هو خير منها، وإننا لا نتحزب لصديقنا بما لا نعتقد. وإذا أتيح لنا مطالعة هذه القصص أو بعضها، وظهر لنا فيها خطأ فإننا ننبه عليه إن شاء الله تعالى"[١].

والواقع أننى اختلف مع السيد رشيد رضا فيما زعمه من بعد زيدان عن التعصب الدينى، ووصفه بأنه أحسن الناس إنصافاً للإسلام؛ لأن ذلك يختلف

---

(١) المنار مجلد ٥ سنة ١٩٠٢ص٣٥٧ ـ وكانت جريدة "المؤيد" ومجلة "الموسوعات" من أعنف الصحف انتقاداً لروايته عذراء قريش (ينظر المؤيد في ١٨٩٩/٤/١٣ والموسوعات عدد ١٨٩٩/٤/١١).

تماماً مع ما سبق أن أوردته من شواهد في رواياته على تعصبه وعدم إنصافه للإسلام.

رابعاً : تجدر الإشارة إلى أن أحد القراء قد بعث إلى الشيخ رشيد رضا عقب نشره تقريظ رواية (الحجاج بن يوسف) عام ١٩٠٢ برسالة يرد فيها على رشيد رضا، فما كان من رضا إلا أن نشرها مشفوعة بالتعليق عليها.

أشار القارئ في رسالته إلى أن روايتى (الحجاج بن يوسف) و(عذراء قريش) فيهما ما يسىء إلى الشخصيات الإسلامية، وأن عذراء قريش في الرواية أشبه بالرجال؛ بل تقف في مجمع من الصحابة، و"ترشدهم إلى حقائق الدين، وتوبخهم على ما حصل منهم في بدء الفتنة المشهورة" على حد تعبير القارئ الذى لام الشيخ رشيد رضا على تقريظ الرواية، وأضاف أنه لو قرأ الرواية "لما قال كلمة واحدة في تقريظها"[1].

وأوضح الشيخ رشيد رضا في تعليقه على هذا : أنه لم يقرأ - وقتها - قصص صاحب الهلال، وإنما تذكر ما نشرته جريدة (المؤيد) في نقدها. ولكنه برأ رواية عذراء قريش من "وصف بعض رجال السلف الكرام بالعشق الذى لا يليق بمقامه" وأضاف "أن ما ننتقد به هذه القصص أمران، أحدهما حفظ كرامة السلف؛ بأن ينسب إليهم ما لا يليق بهم" "وقد كان المؤلف وقع في هذا تقليداً للإفرنج الذين لا يتحامون مثله. ويظهر أنه راجع عنه إرضاء لقراء ما يكتبه من المسلمين"[2]، واختتم الشيخ رشيد رضا تعليقه هذا بطلب الشواهد والبينات من المدعى على ما ادعاه. ولكن المدعى لم يقدم شيئاً بعدها على أى حال.

والواقع : أن زيدان لم يرجع عن الإساءة إلى الشخصيات الإسلامية في رواياته كما تمنى الشيخ رشيد رضا وإذا كان القارئ صاحب الرسالة المذكورة لم يقدم الشواهد على ما ادعاه، أو أنه قدم ذلك ولم ينشره الشيخ رشيد رضا فإننا قد أوردنا العديد من هذه الشواهد فيما سبق من حديث.

---

(١) المنار مجلد ٥ سنة ١٩٠٢ ص٣٩٧، ٣٩٨ - ولم يذكر القارئ المشار إليه اسمه في تلك الرسالة التى أرسلها للشيخ رشيد رضا.

(٢) السابق : ص٣٩٨.

خامساً : يعد أحمد حافظ عوض من أولئك النقاد الذين انتقدوا روايات زيدان وجرحوها، فقد كتب مقالة نقدية في عام ١٨٩٩ نشرتها صحيفة المؤيد[1] قال فيها - من بين ما قال - : "... وهذه الروايات بعيدة عن الحق بعد السها عن أعين الناظرين، فإنه يدخل في التاريخ ما ليس فيه ليوجد امرأة يجعلها أساساً لأساطيره كعذراء قريش وفتاة غسان، على حين أنه ليس لها وجود إلا في مخيلته كما يعترف هو، وأدى ذلك به إلى وصف رجال التاريخ بما لم يكن من أوصافهم ولم يعرفوا به حتى نسب محمد بن أبى بكر المشهور بالزهد والورع إلى عشق هذه العذراء، وأن عشقه كان سبباً في ازدياد هيجانه على عثمان".

والناقد - كما ترى - لا يغفر لزيدان ذلك الخلط الواضح بين ما هو وهمى وما هو تاريخى، ويعيب عليه ذلك التناول العاطفى للتاريخ، ويستنكر ما نجم عن ذلك من إساءة لشخصيات التاريخ الإسلامى المشهورة بالزهد والورع.

ومما لا شك فيه أنه نقد يحدد موقف صاحبه من قضية (البطل التاريخى) أو بتعبير آخر (قضية موقف الفنان أو الروائى من التاريخ ومدى حريته في تصوير الشخصية ذات الوجود التاريخى)، وموقف عوض كما رأينا موقف رافض لمنح الروائى الحرية في تصوير الشخصية التاريخية بالصورة التى يراها.

وحرى بالذكر: أن جرجى زيدان قد ردّ على الانتقاد السابق الذى وجهه أحمد حافظ عوض لروايته عذراء قريش، وحاول زيدان في هذا الرد الدفاع عن دور الخيال في العمل الروائى، فكان مما قال : "كيف يؤلف الناس الروايات التاريخية، وكيف يسمى ذلك المؤلف رواية إذا لم يكن فيه قصة موضوعة عن غرام أو نحوه. ولا نعلم وجه الانتقاد في ذلك وقد جعلنا تلك الفتاة مثال العفة والتعقل والحشمة والشهامة ؟ أيريد حضرته أن نقتصر على الحوادث التاريخية ؟ فليست عذراء قريش عند ذلك رواية. أو هو ينكر علينا تأليف الروايات

---

(١) المؤيد : عدد ١٨٩٩/٤/١٣ ص١ عمود ٤ مقال (عذراء قريش) وقد وقع المقال بلفظة (مؤرخ)، ولكنه أشار في مجلة الهلال (أول يوليو ١٩١٤) ص٧٦٨ إلى أنه صاحب المقال.

التاريخية، الأمر الذى لا نخاله يعنيه، وإذا عناه لا يوافقه عليه أحد أم يرى أن تكون الرواية تاريخاً مجرداً عن الفكاهة"[1].

وواضح من رد زيدان على عوض أنه يعتبر أن عنصر الخيال - بابتكاره حكاية غرامية - يدخل في تصميمه للنسيج الروائى، وأنه مقوم رئيسى بدونه لا يصح إطلاق اسم رواية على العمل الأدبى !

ومما لا شك فيه أن زيدان في قوله هذا يتكئ على بعد غائى يتكثف في مبدأ (المتعة) أو بتعبيره (الفكاهة). ودفاعه عن الحب بوصفه مادة تدخل في تشكيله الروائى من خلال تصويره لشخصيات يعرض بلسانها موقفه من شخصيات التاريخ لم تجد قبولاً عند أحمد حافظ عوض، ولذلك رد على هذا الدفاع قائلاً : ".. هبْ أنها حسنة؛ فلماذا قصرتها يا حضرة الفاضل على الغرام وهو لم يكن من هم رجال العصر الأول؛ بل كان هم الرجل منهم أرقى من ذلك وأرفع، ولماذا لم تجر على سنن أستاذك في تأليف الروايات فتمثل الخليع عاشقاً يحول عشقه بينه وبين أعاظم الأمور، ويشغله عما من شأنه إصلاح أمته ودينه وتمثل علىَّ الهمة شجاعاً يخوض المعامع ويستسهل المصاعب حتى يدرك بغيته"[2]، وهو قد دافع عن محمد بن أبى بكر ووصفه بأنه "...... لم يكن من رجال الحب والخلاعة بل كان من نساك قريش - كما قال ذلك الدينورى في كتابه : المعارف - وشتان بين المرتبتين. فنسبتك هذه تسلخ هنا صفته الحقيقية"[3].

وواضح من رد أحمد حافظ عوض على رد زيدان أنه ردّ مفحم لزيدان من ناحية. ومن ناحية أخرى فإنه رد يعكس - كما يقول أحد الدارسين - "موقفه من الشخصية التاريخية والبطل التاريخى. فهو يتطلع إليه بوصفه المثل الأعلى. ويشف هذا الموقف عن اتفاقه مع التصور الذى يرى في الأفراد أو العظماء الروح المؤثرة في مصائر البشر والقدوة التى تحتذى. على أنه قد أثار مسألة نقدية هامة [لم يراعها زيدان] وهى ضرورة مراعاة الروائى في

---

(١) مجلة الهلال، عدد أول مايو ١٨٩٩م مقال (الموسوعات وعذراء قريش) ص٤٦٣.
(٢) مجلة الموسوعات عدد ١٨٩٩/٥/١١ مقال (الهلال والتاريخ والموسوعات) ص ٢٠.
(٣) السابق : ص٢٠.

تصويره لشخصياته واقع هذه الشخصية؛ إذ أن الخروج على الإطار العام للشخصية يسلخ عنها صفتها الحقيقية"[1] ثم "إن استخدام زيدان للعنصر الغرامى لا يكشف عن قدرته على سبر أغوار النفس البشرية بحيث يصور لنا الشخصية الإنسانية وهى تصطرع بين نوازع الخير ونوازع الشر، وإنما استخدمه أداة للتشويق. يؤكد ذلك دفاعه عن تصويره لعذراء قريش بأنها مثال للعفة والشهامة والتعقل. ومهما يكن من دفاعه فهو تصوير أحادى الأبعاد"[2].

والواقع أن انتقادات أحمد حافظ عوض، وردود جورجي زيدان عليها من أروع المعارك الأدبية في ذلك العهد ويمكن للقارئ الوقوف على أبعادها برجوعه إلى الصحف التى عرضتها في ذلك الوقت[3].

سادساً : من الكتاب المعاصرين لجرجى زيدان كاتب يدعى (أتربى أبو العز) أدلى بدلوه هو الآخر في انتقاد روايات زيدان، حيث تناول بقلمه الفاحص الممحص رواية زيدان الموسومة بـ (فتاة غسان). وكان مما جاء في هذا التناول توضيحه لجملة من الأخطاء الواردة فيها، مثل قول زيدان : إن خالد بن الوليد ومن معه ساروا إلى فتح الحيرة، وعليها (إياس بن قبيصة)!! والوارد في كتب التاريخ : أن إياساً هذا توفى قبل الهجرة بنحو عشر سنين، والفتح كان في خلافة أبى بكر سنة ١٢هـ، وقول زيدان حول وقعة اليرموك : إن البريد وصل بموت أبى بكر وتولية عمر !! خطأ، والصحيح : أن موت أبى بكر كان والعرب يحاصرون دمشق ... وهكذا[1].

سابعاً : يعد يوسف أفندى طبشى من معاصرى زيدان الذين انتقدوا رواياته، فقد أرسل إليه رسالة يذكر فيها أنه قرأ روايته (عذراء قريش) وأنه عثر أثناء القراءة على سقطات منها :

١- رفست (أعتقد أنه يريد رفسة) أسما (يريد أسماء بطلة الرواية) لسعيد تلك الرفسة المهولة.

---

(١) نقد الرواية في الأدب العربى الحديث، د/ أحمد الهوارى : ص٦٠، ٦١.

(٢) السابق : ص٦١.

(٣) انظر – مثلاً – عذراء قريش، المؤيد، عدد ١٨٩٩/٤/١٣ ص١ عمود ٤ و"الموسوعات وعذراء قريش، الهلال عدد ١٨٩٩/٥/١٠، و"الهلال والتاريخ والموسوعات" عدد ١٨٩٩/٥/١١ ص٢٠.

٢- استلالها عصا الهودج وهجومها المخيف على الجميع.

٣- عثرتها بعقال الجمل.

٤- وجود كتافها محمولاً من بعض أطرافه.

٥- اغتصابها السيف من سعيد وفراره منها أمام رجاله، واستنجاده بهم منها.

٦- قتلها أحد رجاله.

٧- رضاها بالقتل دون أن تخدع سعيداً بكلمة واحدة مع علمها قرب الفرج من تلك الأشباح.

٨- كيف أن ضربة حسام سعيد لم تصب سوى صال كتافها دون أن تخدشها.

٩- حضور محمد الفجائى بمثل تلك الدقيقة الغير منتظرة.

ويرى أن كل ما ذكره يعد بعيداً عن العقل وأنه لا يمكن تصديقه.

ولقد رد عليه زيدان موضحاً (أن مؤلفى الروايات يجوز لهم المبالغة في أوصاف بطل الرواية، فإذا ذكروا شيئاً عنه بالغوا فيه، أو ذكروا حسنة جعلوه مثال الجمال ونحو ذلك، والحكمة في هذا : تشويق القارئ للمطالعة، وتحبيبه في بطل الرواية وترغيبه في الخلال الحسنة التى يجب أن يكون أبطال الرواية متصفين بها، فإذا وصفنا بطل الرواية بالشهامة، وبالغنا في شهامته تحبب الشهامة إلى القارئ ... ثم إننا لا نرى ما ذكرناه عن أسماء (عذراء قريش) من هذا القبيل يفوق الواقع، ونحن نعرف نساء في سوريا ولبنان يخضن معاً الحروب ويحاربن الرجال كأشد الرجال، وأما مفاجأة محمد بن أبى بكر لها في تلك اللحظة فهو اتفاق غريب، لكنه ممكن وجائز، وعليه فإننا نشكر لطفكم وعنايتكم وحسن ظنكم.

ومما ذكره زيدان يتضح لنا ما يلى :

١- جواز المبالغة – في نظره – من جانب الكاتب في وصف الشخصيات.

٢- توضيح أسباب هذه المبالغة وهى تنحصر فيما يلى :

---

(١) مجلة الموسوعات، عدد ١٨٩٩/٦/٢٧م.

أ- تشويق القارئ للإقبال على قراءة الرواية.

ب- تحبيب القارئ في بطل الرواية.

ج- ترغيب القارئ في الصفات الحسنة.

٣- الرد من جانب زيدان بإيجاز - ولم يسهب في الحديث عن تلك النقاط التى انتقده بسببها الناقد مما دفع يوسف طبشى إلى القول "تتصل حضرته بمثل هذا الإيجاز، ثم نجده يبرر السبب الذى من أجله رأينا زيدان محلاً للانتقاد في رسم الشخصيات - وهو المأخذ الذى أخذه عليه معظم النقاد. يقول "كثرة أشغال زيدان أفندى هى التى ألزمته لكتابة ما يوجب الانتقاد لأن حضرته من الرجال الذين لا يضيعون دقيقة واحدة من أوقاتهم، دون أشغال وإفادات واستفادات وكل بصير - ولو قليلاً - يشهد بإصابتى بذلك، لأنه يلزم للروائى الأوقات الكافية لسبك رواياته وتكييفها وتبويبها، وتنسيقها، وتسويدها، ومراجعتها وانتقادها، ومن الضرورى أيضاً تشخيصه تمام التشخيص لكل فرد من أشخاص روايته أى يجب أن يكون آناً عاشقاً، وآونة معشوقاً، وحينا مسروراً، وأحياناً حزيناً، وتارة طارداً، وطوراً مطروداً ... وهلم جرا ..."[1]

ثامناً : يعد السيد (رفيق العظم) من النقاد الذين قالوا كلمتهم في الروايات الزيدانية، وقد عبرت عن هذه الكلمة رسالته التى بعث بها إلى زيدان، والتى نشرها زيدان نفسه في مجلة الهلال[1] عام ١٨٩٩.

ومحور الرسالة يدور حول التشكك في صدق الدافع إلى إقدام زيدان على كتابة التاريخ الإسلامى بالذات، والتخوف من أن تكون ثمة رغبة كامنة لتشويه التاريخ الإسلامى. على أنه يؤاخذه فيها على إغفاله الاعتبارات التاريخية، ويستنكر تأليف التاريخ الإسلامى برمته في قالب قصصى.

قال السيد رفيق العظم لزيدان : حضرة الفاضل منشئ الهلال الأغر :

---

(١) ينظر : البرهان في انتقاد عذراء قريش ليوسف أفندى طبشى : ص٦، ٧ ط مطبعة التمدن سنة ١٩٠٠ الطبعة الأولى.

"لا يخفى على حضرتكم أن من واجبات المؤرخ التى تكسبه شهرة، وتزيد تاريخه رفعة تمحيصه الحقائق التاريخية وإيراده الأخبار الصحيحة مؤيدة بالأسانيد الثابتة والأساليب القويمة، مجردة عن شوائب المزج بين الغث والثمين والواهى والمتين. إلا ما جاء من ذلك في معرض التمحيص والانتقاد في غضون الأخبار وتضاعيف التاريخ. وكلما توخى المؤرخ إيراد الحقائق كلما زادت الثقة بكلامه والإقبال على تاريخه. ومما لا ريب فيه أن حضرتكم ممن اشتهروا بفن التاريخ، وسبق لكم فيه ما دل على طول باعكم وسعة اطلاعكم. فإذا أضفنا هذا إلى علمكم بما يجب على المؤرخ من هذا القبيل لما وسعنا إلا الاستغراب من التزامكم تدوين التاريخ الإسلامى في قالب قصصى مهما بالغتم فيه بتتبع الحقائق وتمحيص الأخبار لا يمكنكم إلا مزج الحقيقة بالوهم، فكانت سلسلة تاريخكم هذه عرضة لانتقاد المنتقدين واعتراض المعترضين، ومن ذلك ما جاء في الجزء الحادى عشر من مجلة الموسوعات الغراء، ورددتم عليه في الجزء الماضى من هلالكم المنير، وأما الاعتراض والرد فإنهما من الجهة التاريخية التى لا يسعنى تأييد أحد الرأيين فيها الآن. وإنما استميح حضرتكم بقبول انتقادى عليكم من حيث كونكم أوجبتم على نفسكم الانتقاد بالتزامكم تدوين التاريخ الإسلامى بأسلوب قصصى مع علمكم باعتبارات التاريخ المنوه بها، والتى لابد منها للمؤرخ حتى يسمى كتابه تاريخاً. فربما كان الأجدر بحضرتكم أن لا تسموا تلك السلسلة بسمة التاريخ الإسلامى منذ أول قصة أخذتم بنشرها في الهلال الأغر. على أن هناك اعتبارات أخرى أنا أعلم الناس بحرصكم عليها ومراعاتكم جانبها وهى المحافظة على الشعائر والإحساسات في سائر مناحيكم الكتابية. فكيف فاتكم هذا الأمر في تأليف هذه القصص، فضلاً عما في التزامكم سبك التاريخ الإسلامى في قالب قصصى من ركوب متن التكلف واستغراق الوقت الطويل في استنباط أساليب الوضع القصصى وتصوير قالب الرواية الوهمية".

وربما تقولون أن الغربيين كثيراً ما اشتغلوا في تمثيل الحوادث التاريخية في قوالب قصصية استلذها الغربيون - والشرقيون أيضاً - وأحلوها

---

(١) مجلة الهلال، العدد الصادر في ١٨٩٩/٥/١٥ ص٤٨٩ تحت عنوان (روايات تاريخ الإسلام) والسيد رفيق العظم مؤرخ إسلامى مشهور، وهو صاحب كتاب (أشهر

محل النظر والاعتبار فما علينا إذا حذونا حذوهم وتلونا تلوهم في شيء استحسنه الشرقيون أيضاً. فالجواب عن ذلك أن بعض القصاص الغربيين وأشهرهم اسكندر دوماس إنما سبكوا بعض الحوادث التاريخية في قالب قصصى لا لكون التاريخ هو المطلوب من قصصهم بالذات بل لجعلهم التاريخ وسيلة لترويج قصصهم بامتزاجها بشيء من الحقائق. وإن أرادوا في بعض الأحيان التاريخ لذاته فإنما يريدونه في تمثيل حادث مهم طرأ في غضون تاريخ أمة من الأمم وأثر في الوجود أثراً ربما يكون في تمثيله شيء من الاعتبار. وأما أنهم اشتغلوا بوضع تاريخ أى أمة من الأمم برمته في قالب قصصى فهذا لم يسمع عنهم ولم يرد منهم. لاسيما وأن الغربيين ينعتون أسكندر دوماس بمشوه وجه التاريخ لسبكه بعض الحوادث التاريخية بقالب قصصى فيه كثير من الحشو واللغو المشين برجال التاريخ.

فما أخا لكم والحالة هذه ألا تسلمون معى بوعورة هذا المسلك الذى سلكتموه في وضع التاريخ الإسلامى على النمط المذكور. فالأنفع للوطن والأمة اشتغالكم بوضع تاريخ جامع للإسلام على نمط التواريخ الجديدة يفيد منه قراء العربية ويرجع إليه في تتبع الحقائق وقد باشرتم بذلك كما سبقت إشارتكم إليه في الهلال الماضى فعساكم أن توفقوا إلى إتمامه على الوجه المطلوب والله الموفق وعليه قصد السبيل.

(مصر القاهرة) (رفيق العظم)

وحرى بالذكر أن جرجى زيدان قد رد[1] على رسالة السيد رفيق العظم قائلاً :

(الهلال) لا مشاحة في أن عناية أهل الفضل في انتقاد كتاب تدل على رفعة منزلته في أنفسهم فلا يسعنا والحالة هذه إلا تكرار الشكر لحضرات الأفاضل الذين تكبدوا المشقة في انتقاد ما ظهر من رواياتنا في تاريخ الإسلام على أن معظم ما آخذونا به حتى الآن لم يخرج عن الملاحظات الاعتبارية كما بينا ذلك في ردنا بالهلال الماضى. وأما انتقاد سعادة رفيق بك العظم صاحب

مشاهير الإسلام).

(١) نشر هذا الرد في مجلة الهلال عدد ١٨٩٩/٥/١٥ ص٤٩٠.

رسالة اليوم فإنه يتناول البحث في أساس المشروع. فهو يرى أننا أخطأنا باختيارنا أسلوب الروايات لنشر التاريخ الإسلامى ويفضل أن تكون عنايتنا موجهة إلى تأليف كتاب جامع لتاريخ الإسلام على نمط التواريخ الجديدة إلى آخر ما قاله.

فنحن متفقان في وجوب نشر التاريخ الإسلامى ولكننا مختلفان في طريقة النشر فقد رأينا نشره في روايات تلذ مطالعتها ورأى هو حصره في تاريخ مجرد عن الفكاهة ولا ننكر على حضرته أن التاريخ المجرد أقرب إلى الثقة وأسهل للمراجعة وقد تقدم أننا أخذنا في تأليفه. ولكنه لا يفى بالغرض الذى أنشأنا الهلال لأجله وهو "تعميم العلم بين الناس على اختلاف مداركهم وتفاوت معارفهم" وتاريخ الإسلام أهم ما يجب علينا نشره لعلاقته ببلادنا وحكامنا ولغتنا فضلاً عما رافقه من دواعى العبرة والحكمة.

ولكن الناس قلما يميلون إلى مطالعة التاريخ مجرداً عن الفكاهة إلا فئة قليلة من طلاب العلم. فلو ألفنا تاريخاً لدول الإسلام لما رجونا أن ينتفع به إلا القليلون لأن العامة مع رغبتهم الشديدة في مطالعة التاريخ والقصص قلما ترى فيهم من يصبر على قراءة تاريخ ضخم من أوله إلى آخره ولا يمل أما إذا سبكنا ذلك التاريخ في قالب الرواية فإنه يقرأه بشوق ولذة فلا يلبث وهو يظن نفسه يطالع قصة فكاهية أن يتناول شيئاً من حوادث الإسلام يزيد رغبة في مطالعة تاريخه. فنحن بهذا الاعتبار نهيئ أذهان الناس لمطالعة التاريخ. ولا نزيدكم علماً أن جمهور العامة حتى المسلمين منهم قلما يعرفون الميل إلى مطالعته في تاريخ مجرد عن الفكاهة. ولا نظن أحداً ينكر علينا ذلك وشاهدنا ما نراه من إقبال الناس على مطالعة ما ننشره من هذا القبيل في الهلال. ولا ريب عندنا أن جمهوراً كبيراً منهم لم يكونوا يهتمون للتاريخ قبل مطالعتهم رواياتنا فأصبحوا بعد مطالعتها ميالين إليه راغبين في تفهمه.

فبالروايات التاريخية نهيئ الناس لمطالعة التواريخ وإن يكن في تأليف الرواية من المشقة أضعاف ما في تأليف التاريخ مع ظهور فضل مؤلف التاريخ أكثر من ظهور فضل مؤلف الرواية. ولكن غرضنا الفائدة العامة وأقرب الطرق إليها من حيث التاريخ الطريقة القصصية التى نحن سائرون فيها.

وزد على ذلك أن لهذه الطريقة في نشر التاريخ مزية لا تتأتى لنا في التواريخ المحضة نعني بها تمثيل الوقائع التاريخية تمثيلاً يشخص تلك الوقائع تشخيصاً يقرب من الحقيقة تتأثر منه النفس فيبقى أثره في الحافظة فضلاً عما يتخلل ذلك من بسط عادات الناس وأخلاقهم وآدابهم مما لا يتأتى بغير أسلوب الرواية إلا تكلفاً.

على أننا لا ننكر ما قد يلتبس القارئ فيه بين الحقيقة والمجاز وخصوصاً إذا لم يكن ملماً بمبادئ التاريخ فتتشابه بعض الحوادث عليه. فالجواب على ذلك أننا لا نريد بالرواية التاريخية أن تكون حجة ثقة يرجع إليها في تحقيق الحوادث أو تمحيص الحقائق ولكننا نريد أنها تمثل التاريخ تمثيلاً إجمالياً بما يتخلله من أحوال الهيئة الاجتماعية على أسلوب لا يستطيعه التاريخ المجرد إذا صبر الناس على مطالعته. وهب مع ذلك أنهم صبروا حتى أتوا على آخره بلا ملل ولا تعب فهل يبقى في أذهانهم منه أكثر مما يبقى بعد مطالعته في رواية ؟

ولا ننكر من الجهة الثانية أن الأسلوب الذى اتخذه المرحوم اسكندر دوماس وغيره من مؤلفى الإفرنج في رواياتهم مضر بالتاريخ مخل بنظامه ولا غرو إذا لقبه أحدهم بمشوه وجه التاريخ لما قدم وأخر وزاد ونقص من أحداث التاريخ أو من رجاله ليلبسها لباس الحقيقة فضحى بالتاريخ لأجل الرواية. وأما نحن فقد جعلنا حوادث الرواية وسيلة لإلباس التاريخ لباس الطلاوة والفكاهة. فإذا جردت رواياتنا من عبارات الحب ونحوه كانت تاريخاً مدققاً يصح الاعتماد عليه والوثوق به والرجوع إليه وإن كنا لا نتطلب الثقة بها إلى هذا الحد وإنما نعرف لها مزية هى تشويق العامة لمطالعة التواريخ بإطلاعهم على بعضها على سبيل الفكاهة.

هذا من حيث ما أوجب تعريض كتابتنا للانتقاد أما ما نوهتم به من المحافظة على الشعائر والاحساسات واعترافكم بأننا أول من حافظ عليها فلكم منى الشكر على حسن ظنكم ولا نخالنا أتينا ما يغير اعتقادكم بنا من هذا القبيل كما بينا ذلك في ردنا على مجلة الموسوعات في الهلال الماضى.

وأماكونكم لم تسمعوا بأحد اشتغل بوضع تاريخ أمة من الأمم برمته في قالب قصصي فلا يمنع أن نكون أول واضع له. فإذا استلذه القراء واستحسنه الكتاب نسجوا على منواله وانتفع الناس به وإلا فإنهم يتناسونه بمرور الأيام. ولا يبقى إلا الأنسب عملاً بنلموس الارتقاء العام.

واضح : أن جرجي زيدان في ردّه على رفيق العظم في تحفظه على المنهج المتخذ من الرواية قالباً يبث فيه المعرفة أو الحقائق التاريخية لما في ذلك من تشويه للتاريخ الإسلامي. قد اعتمد على أن المهمة التى انتدب الهلال نفسه للقيام بها هى "تعميم العلم بين الناس على اختلاف مداركهم وتفاوت معارفهم"[1].

وزيدان وإن اعترف بأن هذا الأسلوب يحدث التباسا لدى القراء لعدم قدرة معظمهم على التمييز بين الحقيقة والمجاز، إلا أنه أكد على ضرورة هذه الطريقة في كتابة التاريخ - أو بتعبير أدق - في تعليم التاريخ.

ومع ذلك؛ فقد كان لولبيا في أسلوبه. ففى الوقت الذى يؤكد على الجانب التعليمى نراه يقول : "إننا لا نريد بالرواية التاريخية أن تكون حجة ثقة يرجع إليها في تحقيق الحوادث أو تمحيص الحقائق، ولكننا نريد أنها تمثل التاريخ تمثيلاً إجمالياً بما يتخلله من أحوال الهيئة الاجتماعية على أسلوب لا يستطيعه التاريخ المجرد إذا صبر الناس على مطالعته ... فإذا جردت رواياتنا من عبارات الحب ونحوه كانت تاريخاً مدققاً يصح الاعتماد عليه والوثوق به والرجوع إليه وإن كنا لا نتطلب الثقة بها إلى هذا الحد"[2].

وواضح ما في موقف زيدان وكلامه السابق من زئبقية ومراوغة، فهذا الدفاع لا يستقيم مع نظرته إلى رواياته بوصفها مصدراً تاريخياً، بدليل ما نشره عن تاريخ المماليك، إذ ختم المقال بحديث عن مذبحة القلعة جاء فيه : "....

---

(١) يلاحظ أن هذه الفقرة سبق ذكرها في فاتحة الهلال عدد أول سبتمبر ١٨٩٢ ص١.
(٢) الهلال في ١٨٩٩/٥/١٥ ص٤٩٠.

وكان ذلك آخر عهد الناس بالمماليك، وهكذا كان انقضاء أمرهم، وإذا أردت زيادة التفصيل راجع روايتنا المملوك الشارد"[1].

وحرى بالذكر : أن تلك المؤاخذات التى أخذها معاصرو زيدان عليه وعلى رواياته قد أثرت فيه تأثيراً واضحاً، فبعد أن كان يقول : "إن الرواية يجب أن تمثل الحوادث والحقائق وتلتزم بالزمان والمكان". صار يقول : "لم نقصد أن تقوم الرواية مقام التاريخ، و"أننا لا نريد بالرواية التاريخية أن تكون حجة ثابتة يرجع إليها في تحقيق الحوادث أو تمحيص الحقائق، ولكننا نريد أنها تمثل التاريخ تمثيلاً إجمالياً"[2].

وواضح أنها عبارة أخف من العبارة الأولى.

كما أن إحساس زيدان بكثرة تلك الانتقادات التى تعرضت لها رواياته، وكذلك العديد من مؤلفاته الأخرى، هو الذى جعله يقول - من بين ما قال : (في مقدمة الجزء الثالث) من كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية) : "لا نظن كاتباً من كتاب العصر لاقى ما لاقيناه من الانتقاد في أثناء اشتغالنا بهذه الصناعة منذ بضع وعشرين سنة".

وبعد :

فإننا نلاحظ من خلال النماذج الانتقادية التى تقدم عرضها أن العامل الدينى كان هو الدافع الرئيسى وراء السهام التى وجهها معاصرو زيدان من النقاد والقراء إلى مضمون رواياته التى انتقدوها وجرحوها.

ونلاحظ أيضاً أن هؤلاء النقاد قد حرصوا في انتقاداتهم على التحقق من التزام جرجى زيدان بأمانة التاريخ، ولم يحفلوا كثيراً بالعناصر الفنية للعمل الروائى. ومن هنا كانت مقولاتهم النقدية التى قرأنا نماذج منها آنفاً نقداً تاريخياً بالمقاييس التى سار عليها المؤرخ في تقويمه للخبر التاريخى وعلماء الحديث

---

(١) الهلال عدد ١٨٩٤/١١/١٥ ص٤٨، وراجع نقده لرواية جورج إيبرس (الأميرة المصرية) في الهلال عدد ١٨٩٩/٢/١٥ ص٣١٩ حيث قرر أن للرواية أن تجمع بين الحقيقة التاريخية والتشويق.

(٢) مجلة الهلال عدد أول نوفمبر سنة ١٩١٠.

في تجريحهم للرجال. فروح المحقق المؤرخ كانت مهيمنة على هذا اللون من النقد المنصب على روايات زيدان.

كذلك نلاحظ أن المادة التاريخية التى وردت في روايات زيدان (أشخاصاً وأحداثاً) ليست جميعها مطابقة لما ورد في كتب التاريخ المعول عليها، بدليل ما استخرجه أولئك النقاد من مواد تاريخية في رواياته لم تكن صحيحة.

وأخيراً فإننا نلاحظ أن زيدان قد استجاب في بعض المواقف لاقتراحات قرائه وناقديه المتصلة ببعض رواياته. ولعل مما يزيد هذا الأمر تأكيداً قوله في مجلته الهلال: قال : "أما الآن فقد عولنا بعد أن تتم عذراء قريش في آخر السنة السابعة من الهلال أن نجرى في رواياتنا التالية على رأى حضرته، وما غرضنا إلا الفائدة العامة".

وكان ذلك استجابة منه لمن اقترح عليه أن ينسب حالات الهوى والغرام إلى شخوص آخرين غير أبناء الصحابة الذين اشتهروا بالتقوى والورع.

لكنه من ناحية أخرى كان يدافع أحياناً عن موقفه وعن منهجه وعن التهم التى وجهت إليه في انتقادات معاصريه، بدليل قوله :

"نقول على رؤوس الأشهاد (ولا فخر): إننا نكتب هذه الروايات ونحن نقصد النفع ونخلص النية ولعلنا في مقدمة الذين يقدرون رجال المسلمين في صدر الإسلام حق قدرهم، بل نحن أول من أعجب بأعمالهم ومناقبهم، ويظهر ذلك جلياً فيما نكتبه عنهم، لا نقول ذلك تزلفاً واسترضاء، ولكننا نقول الحق، ولا نقول غير ما نعتقد على قدر ما يبلغ إليه علمنا، وجل ما نرجوه من قرائنا الكرام أن يعتقدوا صدق نيتنا فيما نقوله فينبهونا إلى ما قد يزل به القلم أو يستوضحونا في ما يشكل عليهم، والله حسبنا ونعم الوكيل ......"[1].

(١) مجلة الهلال، السنة السابعة/ أكتوبر ١٨٩٨ وسبتمبر ١٨٩٩ ص٤٦٦، ٤٦٧ على الترتيب.

أثر الانتماء الدينى
فـــى
روايـــات زيـدان

أحب ـ قبل الخوض في الحديث عن تأثر زيدان في رواياته بانتمائه الدينى وتعصبه له، أن أنبه إلى أمرين مهمين، أحدهما يتعلق بشخصى كمواطن مصرى عربى مسلم باحث أدبى أكاديمى أزهرى، والثانى يتعلق بجورجى زيدان مؤلف هذه الروايات.

أما ما يتعلق بشخصى وهويتى التى أفصحت عنها فهو أننى أوقر كل الأديان السماوية، وأدعو إلى الوحدة الوطنية، وأنبذ كل ألوان الفتن الطائفية، وأحترم هوى كل إنسان ما دام مصيباً في هواه، وأرى أن من حق كل كاتب ـ روائياً أو شاعراً أو مفكراً ـ أن تكون له وجهة نظره، ولكن بشرط أن يعلن عن رأيه ـ لكى يريح ويستريح ـ بوضوح وكبرياء ما دام مقتنعاً به. فهذا هو السبيل الحق لإظهار وجهة النظر. أقول هذا من منطلق أن الزيف والخداع اللذين اتسما بهما زيدان في رواياته ـ مرفوضان في الفن؛ بل وفى الحياة أيضاً.

وأما ما يتعلق بجورجى زيدان مؤلف هذه الروايات فهو نص أورده في مقدمة الجزء الثالث من كتابه المعروف (تاريخ آداب اللغة العربية) أثبته هنا بكل ما فيه من كذب وخداع وتمويه :

يقول :

"تصدينا للكتابة في تاريخ الإسلام والقراء لم يتعودوه، والمسلمون معجبون بتاريخهم، وغير المسلمين لا يعرفون عن الإسلام إلا ما وصلهم من مطاعن الأجيال المظلمة، فكان حظنا من المؤاخذة مضاعفاً، غضب بعض المسيحيين لأننا ـ على زعمهم ـ بالغنا في ذكر فضائل الإسلام حتى اتهمنا بعضهم بالمروق من النصرانية، وقال بعض المسلمين : إننا قصرنا في ذكر فضائل الإسلام"!!

هذا الكلام الكذب المخادع مرفوض لدينا ـ شكلاً ومضموناً ـ لأن زيدان لم يذكر في رواياته شيئاً من فضائل الإسلام كدين وعقيدة وشريعة حتى يزعم

أن نفراً من المسلمين اتهموه بالتقصير في هذا المجال ! ولا زيدان مرق من النصرانية حتى يدعى أن نفراً من النصارى اتهموه بالمروق من ملته !

إن الذى حدث هو العكس، تعمد تشويه التاريخ الإسلامى، وملأ رواياته بالأخبار الكاذبة، والشبهات المفتراة فثار عليه وعليها المسلمون، وأعجب به وبها إخوانه النصارى، لما أورده فيها من إعلاء لشأن المسيحية وما يتصل بها من معالم.

كيف يزعم أن إخوانه النصارى اتهموه بالمروق من النصرانية وهو الذى جعل مسرح أحداث جملة من رواياته التى يقول إنها تؤرخ للإسلام في (الأديرة) و(الكنائس)، وجعل (للقسس) و(الرهبان) دور التوجيه، حيث الأمن والأمان والطمأنينة والاحترام والرأى القويم السليم عندهم ليس غير ؟!

كيف يدعى أن المسيحيين اتهموه بالمروق من النصرانية وهو الذى بالغ في هذه الروايات في رسم الصور المشرقة للكنائس والأديرة، حيث لا يُرى غيرها ملاذاً للخائفين وملجأ للضعفاء والمحرومين في الوقت الذى يصور فيه زيدان معارك العنف والدماء بين المسلمين؟!

كيف يدعى أن النصارى اتهموه بالمروق عن النصرانية وهو الذى أضفى ـ في هذه الروايات ـ هالات مثالية على كل ما هو مسيحى، وسلط الأضواء على صور الصلبان والقديسين ومياه المعمودية المقدسة وزيت مصباح الدير، والتغنى بقول النصارى : "الشفاء التام ببركة الماء المقدس وزيت المصباح وبركة صاحب الدير" ؟!

لا تحسبنى ـ عزيزى القارئ ـ ممن يرسلون القول على عواهنه، ولا ممن يجردون زيدان ورواياته من كل فضيلة ـ إذا كان ثمة فضيلة فيها ـ فهاأنذا أصحبك معى في رحلة عبر أمثلة من رواياته، تدل دلالة واضحة على صحة ماتقول، وتؤكد تأكيدا جازما على تأثره البالغ بانتمائه الدينى فيما كتبه من روايات:

خذ مثلاً مجملاً من روايته (غادة كربلاء) حيث تراه يصف (دير خالد) القريب من دمشق وصفاً جميلاً تبرز فيه مشاعره الفياضة نحو هذا الدير[1].

وخذ مثلاً مجملاً آخر من روايته (فتاة غسان) حيث تراه يختمها بقوله: "قالوا : حسناً، ونهضوا إلى كنيسة بقرب الدير عقدوا فيها قران حماد وهند"[2].

واقرأ روايته عن (أبى مسلم الخراسانى) وتأمل ما فيها من صور باهرة - يرسمها المؤلف - للكنائس ورهبانها، وإشادة بالأديرة وسكانها، وتفخيم وتضخيم لشأنها كملجأ للضعفاء، وملاذ للتائهين والخائفين !

واقرأ أيضاً روايته (أرمانوسة المصرية) حيث ترى حديثه عن أقباط مصر، وعن تفاصيل كنائسهم وأفكارهم وعاداتهم وتقاليدهم وأزيائهم يتوارى أمامه أى حديث آخر! ولا بأس أن نقرأ معاً هذه النصوص المقتبسة من الرواية حيث ترى فيها - من بين ما ترى - تعظيمه للأديرة والقسس ومياه المعمودية ونحو ذلك :

١- "وجاء القسيس فصلى له ورشّه بمياه المعمودية تبركاً وتيمناً، وعلّق على صدره صليباً من الذهب نعتقد فيه الحماية من الضر، فقبّل الصليب والإنجيل".ص٨٩.

٢- لا ريب عندى أن هذا الصليب سيدفع عنى كل غائلة، ويقينى من كل شر. قال ذلك وعلّقه في عنقه، وخبّأه بين أثوابه.." ص١١٧ ساعدانى بالصلاة، وقل لها: إن صليبها في عنقى، وهو يرفع عنى كل شر." ص١٠٨.

٣- يقول أركاديوس لأرمانوسة : لقد أضعت شيئاً لا تقل خسارته عن هذا الحصن، أضعت الصليب الذى أهديتنيه، وقد كان معلقاً في صدرى تحت ثوبى حتى ليلة مجيئى إليك، وكنت أخرجته لأقبله وأنا أنزع ثيابى للرقاد... "ص١٥٨.

٤- "البطريريك بنيامين حبيبنا التقى الورع سيأتى عمّا قليل"ص١٦٢.

---

(١) غادة كربلاء : ص١٢ وما بعدها ط دار الحياة.

(٢) فتاة غسان : ص٣٠٩ ط مكتبة دار الحياة.

٥- "وثق يا مولاى أن صلاتنا في هذا الصباح هى التى ساعدت على رد العرب، وحفظ أسوار المدينة، فإن للسيدة العذراء كرامة"ص ١٧٠.

لاحظ جعل زيدان أركاديوس محور روايته، وجعله فارساً شهماً مغواراً وطنياً غيوراً، ولم يجعل بطولة لمسلم واحد.

٦- لقى أركاديوس فارساً مسلماً، فلم يستطع الفارس إلقاء القبض عليه، حتى جاء فارس مسلم آخر فتعاونا عليه، ثم اعتبر جرجى زيدان إلقاء القبض على أركاديوس عملاً خيانياً بحق العرب : "خرجت من المدينة في حاجة فظفر بى رجالكم منفرداً فأمسكونى - جماعة على واحد - وليست هذه عادة الأبطال، ونحن نسمع أن العرب لا يغدرون"ص١١٨.

٧- لقد هيّأ جرجى خياله منذ بداية روايته، ليقف أركاديوس مواقف البطولة في وجه عمرو بن العاص وجند الإسلام : "نجوت منه بالرغم من الحبال التى شدّوا بها وثاقى وما ساعدنى على تمزيقها إلا خوفى عليك"... أى خوفه على أرمانوسة فتجيب أرمانوسة : لو كان في جند الروم خمسة مثلك لما تمكن العرب في هذه البلاد، فاجلس الآن واسترح لنرى ما يأتى به الغد ص ١٣٣.

٨- ونحن الروم أرباب المجد والسطوة، وقد رفعت أعلامنا على هام الأمم، ودانت لنا الملوك والقياصرة. أتفِرُّ أمام نفر من البدو ورعاة الإبل - يعنى المسلمين - أترضين لى ذلك ؟ ويتابع أركاديوس خطابه لأرمانوسة "تعقّلى يا حبيبتى، فقد صبرت أشهراً فاصبرى أياماً، وسترين العاقبة كيف تكون، ولو تركنى أبى أفعل ما أريد لخرجت إلى جند العرب المعسكر حول الحصن - حصن بابليون - بشرذمة من رجالى فقط، وبدّدتهم أيدى سبأ، ولكننى أعمل برأيه مكرهاً أما إذا نشبت الحرب واحتدم الوطيس، فالفوز لنا لا ريب فيه بإذن الله"ص١٤٩.

٩- هؤلاء الرعاة لم يفعلوا ما فعلوه إلا وأركاديوس بعيد عنهم، ولكن آه يا أرمانوسة .. آه من الحب، ما أعظم سلطانه، إن الحب وحده كان سبب سقوط هذا الحصن، فقد كان في وسعى ملاقاة الشر - الفتح الإسلامى شر ؟!!! - قبل وقوعه، ولكن حبى أرمانوسة حملنى على التجاهل، فالعرب لم

يغلبونا، ولكنها خيانة أنا شريك فيها على غير قصد، والحب يعمى ويصم .. أه منه"ص ١٥٠.

١٠- يقول على لسان أركاديوس : ولولا تلك الغشاوة لاستطعت إنقاذ الحصن ومن فيه، وإرجاع هؤلاء العرب إلى مراعى إبلهم وماشيتهم.ص ١٥٢.

١١- أيدخل هؤلاء العرب الحفاة العراة حصوننا ونحن جنود الروم لنا العدة والسلاح وهم شرذمة قليلة، إنها الخيانة، أو لعله السحر، أو لعله غضب من الله. ص١٥٣

١٢- هذا المقوقس أركاديوس بقوله : مثلك يفتخر بقتل الأمراء في ساحة الوغى وليس في أغلال الحديد. ص١٧٢.

١٣- "أما أنت - أى أركاديوس - فكلنا يعرف فيك من عزة النفس والبسالة مما يجعلك بمنأى عن إساءة الظن بك، فأنت لا تفر من ساحة الحرب، ولا تسلم للعدو سلاحك ولكن الرأى قبل شجاعة الشجعان"ص١٧٧

١٤- ويقول أركاديوس : أتريد يا مرقس أن أفر من الحصن ولا أستحيى من حسامى هذا ؟! كيف لا أخجل ؟ بل كيف لا أذوب خجلاً إذا قيل : فعلت ذلك. وأنا أركاديوس ؟! ص ١٧٩.

واقرأ روايته (فتح الأندلس أو طارق بن زياد) حيث ترى من تتبعك لأحداثها أن البطولة الحقيقية ليست لطارق بن زياد الذى تحمل الرواية اسمه، إنما البطولة الحقيقية من نصيب (فلورندا) ابنة (الكونت يوليان حاكم سبتة)، كما تراه يتوقف من وقت لآخر لكى يصف لنا كنيسة طليطلة وارتفاعها وعدد أعمدتها ......

ولا بأس أن نقتبس منها هذه الفقرة؛ لنقرأ ونتأمل آخرها معاً : "ولم يمض قليل حتى أحس القوط بالخطأ الذى ارتكبوه بالتخلى عن مذهبهم ولغتهم، وعلموا أن ذلك التخلى سيعصف بدولتهم، وكان أكثر ملوكهم شعوراً بذلك غيطشة والد ألفونس بطل روايتنا"[1].

---

(١) رواية فتح الأندلس : ص٢٨ ط دار الهلال ١٩٨٤.

أليس عنوان روايات زيدان هو (روايات تاريخ الإسلام)، فما باله إذن يقول عن (ألفونس) : إنه بطل روايتنا ؟! ألا يؤكد هذا ما سبق أن قلته : إنه متأثر إلى حد كبير بانتمائه الدينى في روايات ليس موضوعها هذا الانتماء ولا تاريخه، إنما موضوعها ـ كما يقول هو ـ تاريخ الإسلام !

واقرأ روايته (استبداد المماليك) حيث ترى العنصر المسيحى يتردد منذ بدئها وحتى ختامها، سواء في صورة أفراد أو أديرة، بدءاً من دير كنيسة (مارجرجس) بمصر القديمة التى ألجأ زيدان إليها (سالمة) زوج (السيد عبد الرحمن)[1]! وبقيت به حتى اجتمع الشمل[2]، وبدءا أيضاً من (المعلم إبراهيم الجوهرى) أو (المعلم رزق) وهما يومئذ ملجأ القاصدين وذوى الحاجات من أقباط مصر؛ لتوليهما الكتابة عند (على بك) وحصولهما بسبب ذلك على كثير من سعة النفوذ والسلطات فضلاً عن الثراء الوفير[3]. هذا فضلاً عن إشارته لدير (المرسلين الكبوشيين) بجبل لبنان، ومنه يحاول (حسن)، وصديقه (عماد الدين) الهرب بمساعدة الآباء المسيحيين[4] وهناك إشارات أخرى إلى مغارة النبى (إيليا) ووصفها بأنها (بمثابة كنيسة يؤمها كثير من النصارى اللبنانيين للصلاة والتبرك والوفاء بالنذور)[5].

واقرأ روايتيه (عذراء قريش) و(شارل وعبد الرحمن)، حيث تراه فيهما يجعل بعض الشخصيات النسائية النصرانية تُسيّر أحداث العالم الإسلامى، مثل (أسماء) في (عذراء قريش) و(سالمة وبنتها مريم) في (شارل وعبد الرحمن)!

وأقرأ روايته (شجرة الدر) حيث تراه يستخدم كلمة (الإفرنج) بدلاً من كلمة (الصليبيين) وذلك في تسع صفحات متفرقة[6].. الأمر الذى يؤكد انعكاس انتمائه الدينى حتى على أسلوبه واختياره للألفاظ المتلائمة مع هذا الانتماء! على أن ذلك يدل على أنه لابد وأن يظهر انتماؤه الدينى في كل رواية له !!!

---

(١) استبداد المماليك : ص٧٨ ط دار الهلال ١٩٨٥ تقديم د/ حلمى بدير.
(٢) السابق : ص٧٥.
(٣) السابق : ص٧٩.
(٤) السابق : ص١٢٧.
(٥) السابق : ص١٣٥.
(٦) هى صفحات : ٨، ١٢، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٤١، ٦١، ١٢٧، ١٤٢.

ومثل هذا تراه في روايته عن (صلاح الدين الأيوبى) حيث تراه يسمى الصليبيين التسمية نفسها (الإفرنج)، ويكرر ذلك في الرواية كلها[1].

وهو في هذا يخالف كتب التاريخ جميعها .. تلك الكتب التى تذكر الحروب التى قامت بها أوربا جمعاء ضد البلاد العربية في العصور الوسطى باسم (الحروب الصليبية)، وتسمى الذين قاموا بها متسترين وراء الصليب لاحتلال الأرض ونهب الثروة (صليبيين).

ترى، هل خجل زيدان من ذكر اسمهم الصحيح؛ لما ارتكبوه من فظائع بشعة قلما عرفها التاريخ في غيرهم؛ لو كان الأمر هكذا لعذرناه فيه !

واقرأ روايته (المملوك الشارد) حيث يغلب على صفحاتها ذكر الأديرة والقسس والرهبان والأب المحترم، بل إن الأحداث كاملة تجرى في الأديرة، ولنقرأ معا المختارات التالية من الرواية، لترى كيف تهيمن عليها انعكاسات انتمائه الدينى:

- " وهناك في السفح المقابل لدير القمر كانت توجد قرية صغيرة تدعى (بيت الدين) فيها معبد لطائفة الدروز، فابتاعها الأمير بشير وابتنى فيها دوراً ومتنزهات له ولأولاده، وجلب إليها المياه فأصبحت من أبهى المناطق منظراً، وأحسنها هواء.

- " وكان إلى جوار بيت الدين دير منعزل، فيه جماعة من الرهبان يقضون بعض نهارهم في العبادة، وبعضه في أعمال حقول الدير من حرث وسقى وغرس وحصد وما إليها من إنتاج الجبن والزيت والخمر".

- " ففى مساء ذات يوم من أيام شهر ديسمبر سنة ١٨١٢، قضى الرهبان معظم نهارهم في جرف الثلوج المتراكمة على أسطح الدير، ثم دخلوا حجرة فيه فأوقدوا فيها ناراً وأحدقوا بها يستدفئون ويتسامرون، وهم متسربلون بعباءات مشدودة بمناطق حول أوساطهم".

---

(١) صفحات : ١٩، ٦١، ٨٤، ١١٢، ١١٤، ١١٦، ١٢٧، ١٢٧، ١٣٥، ١٨١.

ومع أنهم أغلقوا باب الحجرة ونوافذها، كان يقطع حديثهم بين حين وآخر دوي الرعد وتساقط البرد على جدران الدير ونوافذه، وقصف الرياح الزوبعية التي تكثر في فصل الشتاء.

وما زالوا يتجاذبون أطراف الحديث حتى قال رئيسهم : سمعت اليوم حديثاً أقلقني، وهو أن اثنين من بني معروف في قرية (بسكنتا) قتلا بطريرك الكاثوليك أغناطيوس صروف الدمشقي بالقرب من قرية (زوق مكايل). وقد تكدَّر الأمير بشير من ذلك كثيراً، وهو الآن بسبيل أخذ القاتل ومعاونيه بأشد العقاب.

فقال أحد الرهبان : ما أظن أن مثل هذه الخيانة الفظيعة قد حدثت إلا بعلم الأمير، ولا يغرنَّك تظاهره بالكدر، فإن الشهابيين لا يهمهم قتل كل البطاركة لأنهم ليسوا من دينهم.

فقال الرئيس : لعلك لا تعلم أن الأمير اعتنق الديانة المسيحية سراً؟

فبغت الرهبان جميعاً وقال أحدهم : كيف كان ذلك ؟ وماذا يخشاه الأمير حتى كتم أمر تنصُّره ؟

فقال الرئيس : إن إعلان تنصُّره تترتب عليه أضرار مادية كبيرة له، وهذا عدا ما يؤدي إليه إعلان تنصره من خروج بني شهاب كلهم عليه، لاعتزازهم بانتسابهم إلى قريش، ولعلكم ذاكرون كيف تعرض للعزل مرات في عهد أحمد باشا الجزار.

فقال الراهب : لكن كيف يكون مسيحياً ولم نشاهده يزور كنيسة لقضاء الفروض الدينية ؟

فقال الرئيس : إن الأمير لم يهمل أداء الصلاة المفروضة في ديننا، وقد خصص لذلك غرفة من غرف قصره، فجعلها كنيسة يصلي فيها، ولا يعرف ذلك إلا أفراد قليلون من أخص حاشيته.

فقال الراهب : أعتقد أن الدين لا يقر مثل هذه المراءاة، ولا يجوز أن تكون المصالح الدنيوية الزائلة عقبة في سبيل المتدينين المخلصين.

فقاطعه الرئيس قائلاً : أغضض من صوتك، فللجدران آذان، وانتقام الأمير فظيع سريع كما هو معلوم.

فقهقه الراهب وقال : أين نحن وأين الأمير بشير ؟ إن بيننا وبينه أكثر من ميلين ؟

فقال الرئيس : هذا لا يمنع أن يعلم بكل كلمة وحركة هنا، وفى أى مكان في أقاصى لبنان، وهو جالس في قصره!""[1].

واقرأ روايته التى عنوانها (أحمد بن طولون) تجد نفسك أمام رواية غريبة لا تمت إلى الواقع بصلة، ومسرح أحداثها - بلا استثناء - في الكنائس والأديرة! ومع الرهبان والبطارقة منذ بدايتها وحتى نهايتها!

ومعظم الشخصيات مسيحية في هذه الرواية التى عنوانها مسلم اسمه (أحمد بن طولون) ويدعى مؤلفها أنها من (روايات تاريخ الإسلام)، وهذا تناقض غريب لست أدرى إلى أى حد كان المؤلف على وعى به! والشخصيات المسلمة في الرواية - على قلتها - مثل (أبى الحسن البغدادى) صديق (سعيد) أبى المؤلف إلا أن يجعله من الشيعة العلوية ! والرواية - إن صحت تسميتها بذلك - ليست رواية ابن طولون؛ بل رواية (دميانة) المسيحية والخيالية لا التاريخية مع حبيبها الغالى المسيحى والخيالى لا التاريخى أيضاً (المهندس سعيد الفرغانى)، وينافسه في حبه (اسطفانوس) الخيالى لا التاريخى أيضاً ابن المعلم يوحنا كاتب الماردانى صاحب الخراج! والرواية لا تشيد بعظمة المسيحيين الخلقية فحسب؛ بل تجعل منهم : المهندس الماهر، وكاتب الخراج الأمين الذى تدفعه أمانته إلى الوقوف في وجه ابنه، والبطريرك الرزين الذى يدرك أن مصلحة الأقباط في مصر مع العرب المسلمين، وليست مع الروم المسيحيين. وقد يكون بعض ما ذكره زيدان صحيحاً، ولكنه - كما يقول الدكتور طه وادى - "جزء من كل متكامل، فكشف النقاب عن جزء، وأعتم الأضواء عن بقية الأجزاء، فكيف يحدث هذا من كاتب ادعى أن همه الأول كتابة التاريخ

---

(١) رواية المملوك الشارد : ص٤، ٥.

وليس الرواية؟! وأوهم قراءه بأن معلوماته تعتمد على مراجع تاريخية، يسجلها بين لحظة وأخرى من أجل مزيد من التمويه!"[1].

وزيدان في هذه الرواية الغريبة لا يتعصب لانتمائه الدينى فحسب ؛ بل إن نظرته المتعصبة امتدت إلى اليهود فراح يشوههم ممثلين في التاجر الذى انقذه زكريا أثناء العودة من دير وادى النطرون، كما امتدت هذه النظرة المتعصبة إلى قبيلة (البجة) وهى قبيلة لا دين لها فشوهتها هى الأخرى. ومعنى هذا أن نظرته المتعصبة شوهت من له ملة يعتنقها، ومن لا دين له على الإطلاق!

والرواية تبرز بنات النصارى حريصات على صيانة عرضهن، وبنات المسلمينَ علَى عكسهنَّ. !!

ولنقرأ - مثلاً - قوله عن امرأة عربية مسلمة اسمها (عُلَيَّة) : إنها أكلت وشربت وشبعت، ولا يهمها عرضها وشرفها" أما (دميانة) المسيحية "فلم تأكل ولم تشرب حزناً على مصيرها وشرفها وعرضها"! ص١١٨.

وقال عن دميانة : "فاتفق أن وجد رجاله في بعض الأديرة فتاة جميلة الصورة، فأحضروها إليه، فأعجبه جمالها، فأرادها لنفسه وهى تأبى؛ لأن بنات النصارى يحرصن كل الحرص على صيانة عرضهن، ولا سيما الراهبات فإن الواحدة تفتدى عفتها بنفسها"ص١٣٠.

وإليك - عزيزى القارئ - مقتطفات أخرى من الرواية : قال : "ومشت تسترق الخطى في البساتين تلتمس كنيسة هناك بنيت لصلاة أهل تلك الناحية والقرى المجاورة، وكانت دميانة تذهب للصلاة فيها كل صباح، وخاصة في أيام الآحاد والأعياد، لكنها أرادت الذهاب في ذلك الأصيل لتخلو بقسيسها وتسر إليه أمراً خالج ضميرها وأقلق راحتها". ص٣

واستمع مع إلى هذا الحوار، وما فيه من صوت مسيحى عالى النبرة في الرواية : " قالت والدهشة بادية في محياها : أليس سعيد مسلماً؟" .

قال : "كلا يا ابنتى إنه مسيحى مثلك".

---

(١) دراسات في نقد الرواية، د/ طه وادى : ص٩٩.

فلما سمعت قوله وثبت من مجلسها وحملقت في القسيس وقالت : "مسيحى ؟ نصرانى مثلنا؟!".

قال : "نعم مسيحى يا ابنتى".

قالت : "هل أنت على يقين من ذلك؟".

قال : "لا ريب عندى في ذلك، وقد جلس على هذا الكرسى واعترف لى مرارا".

قالت : "جلس على كرسى الاعتراف؟ واعترف لك؟ أطلعك على مكنونات قلبه ؟ آه، هل اعترف لك بأنه؟..".

وهمّت بأن تسأله إذا كان قد اعترف بحبه لها ثم أمسكت خجلاً، وعلمت أن سؤالها يخالف أصول الاعتراف فأطرقت وسكتت.

فقال : "يكفى أنك عرفت أنه مسيحي".

فتنهدت وقالت : "نعم كفى". ثم رفعت رأسها نحو السماء وقالت : "أشكر الله على ذلك". وغلب عليها الفرح حتى ضحكت والدمع يقطر من عينيها وهى تردد قولها : "مسيحى ؟ سعيد مسيحى؟"ص١٠.

وتأمل كيف عنون بعض فصول هذه الرواية الغريبة بتلك العناوين المسيحية البحتة :

- فصل كامل عنوانه (مرقس واسطفانوس) ص٢٠.
- فصل كامل عنوانه (في دير أبى مقار) ص٩٢.

والأحداث من ص ٤٥ ـ ٧٠ كلها في الدير، وفى ص٧٢ الأحداث في كنيسة أبى سرجة، وفى ص٨٩ الأحداث في دير (أبى مقار)، وفى ص ١٤٧ الأحداث في (كنيسة بابلون).

واقرأ هذه العبارة المقتطفة من ص ١٥٠ "تواطأ مع البطريرك ميخائيل على مساعدة ملك النوبة في إخراج مصر من أيدى المسلمين وإرجاعها إلى ملك الروم".

عزيزى القارئ : إن كنت تريد أن تعرف أكبر قدر من أسماء الكنائس والأديرة فإنى أحيلك إلى هذه الرواية التى يزعم مؤلفها أنها من رواياته المؤرخة للإسلام!!!

خذ الآن منى أسماء بعضها المقتطف من الرواية : (كنيسة أبى سرحة - دير أبى مقار - دير الأمبا بشاى - دير البراموس - كنيسة الشيوخ - كنيسة أبسخرون - دير المعلقة - كنيسة بابلون).

هل يعد معظماً للتاريخ الإسلامى من يملأ صفحات الرواية بتلك الكنائس والأديرة ؟

نعم ! إنه معظم للتاريخ الإسلامى، ولكن على الطريقة النصرانية !

وهل رواياته : روايات تؤرخ للإسلام ؟

لا ! إنها روايات تؤرخ للنصرانية والرهبان، والكنائس والأديرة والصلبان !!

وكان جديراً بها - فيما أرى - أن تسمى (روايات تاريخ الرهبان والكنائس والأديرة والصلبان)، حتى يتحقق الانسجام بين العنوان وما يجرى داخل الروايات من أحداث ومواقف وأشخاص ووصف وحوار.

هذا وأحب أن أوضح هنا نقطة مهمة هى أن العثرات الفنية التى أخذها النقاد على روايات زيدان لا ترجع إلى حداثة عهده بكتابة هذا النوع من الأدب (الرواية التاريخية) حيث كانت يوم كتبها ما تزال في مرحلة النشأة والتمهيد والتجريب، إنما ترجع - في تقديرى - إلى ذلك الاتجاه الفكرى والعقدى الذى كان ينطلق منه ويؤثر فيه، ويرسم من خلاله الإطار العام لتلك الروايات التى زعم أنه يكتبها عن التاريخ الإسلامى.

فاتجاهه الفكرى (الماسونى) وانتماؤه الدينى كانا من أسباب عدم صدقه في التناول التاريخى لأحداث التاريخ الإسلامى، وكانا من أسباب ما نلمحه في رواياته من مواقف سلبية تجاه هذا التاريخ، ومواقف اتهامية لرموزه وشخصياته العظيمة، وكانا من أسباب تعمده إهمال الشخصيات التاريخية،

واهتمامه اهتماماً بارزاً بالشخصيات الخيالية التي اخترعها خياله لتؤدي الأدوار التي يريدها هو، حتى وإن تعارضت هذه الأدوار مع حقائق التاريخ !

ومما لا شك فيه أن فهم الشخصية التاريخية، والنظرة العادلة إليها يساعدان الكاتب المنصف أيا كان انتماؤه الديني على بناء عمل قصصي مترابط نزيه خال من العثرات الموضوعية والفنية، ويحدث العكس عند الكاتب غير المنصف، والكاتب الذي يقع تحت تأثير هواه النفسي وانتمائه الديني وميوله الفكرية.

وإذا كان كثير من النقاد قد انتقدوا زيدان في عدم عنايته الكافية بشخصيات رواياته[1]، وانتقده البعض منهم في مواقفه السلبية والاتهامية لأحداث التاريخ الإسلامي وشخوصه[2]، فإن ما انتقدوه فيه كان وليد أيديولوجية استراتيجية انطلق منها، وكان من أبرز دعائم تلك الأيديولوجية : ماسونيته، وانتماؤه الديني، وهواه النفسي المتعمد، ونظرته المتعصبة.

وأضرب لذلك مثلاً واحداً قد يغنينا عن عشرات الأمثلة في رواياته، هو موقفه السلبي والاتهامي من صلاح الدين الأيوبي، ذلك القائد المسلم العظيم الذي رد النصارى الإفرنج إلى بلادهم مدحورين، وحرر بيت المقدس ومدن الشام منهم. لذلك راح زيدان في روايته (صلاح الدين ومكائد الحشاشين) يحرف ما عرف تاريخياً عن صلاح الدين، بل إنه تجاهل تجاهلاً واضحاً المواقف المشهودة لصلاح الدين تجاه النصارى، فلم يحدثنا عن صلاح الدين العظيم موحد البلاد العربية في المشرق، وصانع نصر (حطين) العظيم، ومحرر بيت المقدس من يد الصليبيين، وفاتح قسطنطينية الإفرنج (عكا)! ولم يشر من قريب أو بعيد إلى صلاح الدين المارد الذي جمع في قبضته القوية بين القاهرة ودمشق وحلب، فقلب المسلمين من التفكك والدفاع إلى الوحدة والهجوم، وحوّل موقف الصليبيين من قوة وتماسك إلى ضعف وانحلال، ومن حالة الهجوم إلى حالة الدفاع .. بما كان يتصف به من مستوى رفيع من العبقرية والحنكة

---

(۱) ينظر – هنا – على سبيل المثال : القصة في الأدب العربي الحديث، محمد يوسف نجم : ص١٨٦.

(۲) مثل " جرجي زيدان في الميزان" لشوقي أبي خليل. ووقفة مع جرجي زيدان في رواية صلاح الدين للعشماوي.

والبطولة والإخلاص والإيمان .. مع مستوى رفيع من كرم الأخلاق والشهامة وغير ذلك من الأخلاق التى تفوق كل المثل التى لن يصل إليها الغربيون في يوم من الأيام إلا بالإسلام الصادق.

كذلك لم يشر إلى جوانب الإصلاح المختلفة التى قام بها صلاح الدين في أنحاء العالم الإسلامى آنذاك، من إصلاح عقدى، وعمرانى، وتعليمى، واقتصادى واجتماعى !

ولا نجد أيضاً وصفاً فنياً صادقاً للجوانب المعنوية من شخصية صلاح الدين، مما هو مدون وثابت في كتب التاريخ والتراجم![1]

وزيدان لم يجنح إلى هذا المنهج - طبعاً - إلا بدافع من انتمائه الدينى الذى حال بينه وبين الإنصاف لتاريخ الإسلام وزعمائه المشاهير!

وحال بينه وبين الحديث عن جهاد صلاح الدين، وفتوحاته العظيمة، وصفاته السامية، وأخلاقه الكريمة، وسماحته الإسلامية مع الأسرى الصليبيين.

ولا يمكن لإنسان أن يدعى أن سكوت زيدان عن ذلك كله وعما ماثله كان خضوعاً منه لمقتضيات البناء الفنى للرواية، لأن القضية - هنا - قضية تاريخية لها اتصال بفكر الكاتب ومعتقده؛ فالكاتب ذو انتماء دينى متعصب، والمكتوب عنه قائد مسلم عظيم حرر العالم الإسلامى من غزو النصارى الصليبيين.

بل إن تجاهل الكاتب لما سبق أن ذكرناه، وعدم صدقه في التناول التاريخى المتكامل للشخصية التى حملت الرواية اسمها كانا من أقوى الأسباب التى أبرزت شخصية صلاح الدين في الرواية باهتة لا قيمة لها مما أدى إلى ضعف مستواها الفنى.

وقد وضعت الدكتورة ثناء أنس الوجود يدها على هذا الضعف وسببه حين قررت - في تقديمها للرواية - "أن الرواية - بشكلها الحالى - أهالت كثيراً من الأحداث على الشخصية المحورية، أو التى كان ينبغى أن تكون كذلك -

---

(١) ينظر - على سبيل المثال : كتاب صلاح الدين الأيوبى لعبد الله علوانى ص ١٤٠ - ١٨٨ وكتاب صلاح الدين الأيوبى لبسام العسلى ص١٤٣ وما بعدها سلسلة مشاهير قادة الإسلام، دار النفائس ط٧ ١٤٠٧ هـ.

وأعنى بها صلاح الدين ـ مما جعلها تتوارى في الظل، لكى تفقد الرواية بالتالى عنصر التماسك الدرامى فيها. وقد تسبب هذا في جعل الأحداث أشبه شىء بمشاهد لا رابط بينها، وأحياناً تبدو مثل قفزات ليس لها ما يبررها""!

وبعد :

فيكفى هذا القدر من الحديث المدعم بالأدلة عن تأثر جرجى زيدان بانتمائه الدينى في رواياته التى يزعم إنها تؤرخ للإسلام، وتُعلِّم التاريخ؛ ففى القدر الذى سبق ذكره دلالات واضحة على أمرين يمثلان مجمل ما قلناه تفصيلاً في هذا المبحث:

الأول : أن مؤلف هذه الروايات كان ـ بدون شك ـ صاحب رؤية متعصبة ضد التاريخ الإسلامى وأحداثه وشخصياته البارزة، يقابلها ميل واضح إلى الرفع من شأن النصرانية التى يدين بها!

الثانى : أن جرجى زيدان ـ كما يبدو من البيان الذى سبق عرضه ـ استشعر أنه يرغب في التأريخ لنصرانيته ورجالها ومعالمها، لكنه وجد نفسه يعيش في مجتمع مسلم قد لا يمكنه من ذلك، أو يكون لذلك تبعات تنعكس عليه، فقرر أن يضرب عصفورين بحجر واحد هما تقديم التاريخ الإسلامى بصورة فيها قدر كبير من التشويه، محتوياً في الوقت ذاته على ما يصبو إليه من إعلان شأن النصرانية وتاريخها وشخوصها. ثم نفذ قراره هذا بصورة فعلية، حين كتب هذه الروايات، وعنونها بروايات تاريخ الإسلام. وزيادة في التمويه على المسلمين هرب من الحقائق إلى الخيال، فبدأ يصوغ منه أحداثاً، ويخترع أشخاصاً يقومون بأدوار كبيرة تطغى على أحداث التاريخ الإسلامى وشخوصه، وادعى أنه يكتب قصصاً غرامية خيالية للتشويق، ودفع أبناء المسلمين لمعرفة تاريخهم.

ومما يؤسى له : أن بعض المسلمين صدقوه فيما زعم، وتلقفوا رواياته بلهفة وشوق، وانطلت الحيلة على بعض النقاد للأسف الشديد.

هذا ويقتضى الإنصاف العلمى لزيدان أن نذكر أنه في غير رواياته من مؤلفاته الأخرى كان غير متعصب لنصرانيته، إذ تراه ـ مثلاً ـ في كتابه (تاريخ

التمدن الإسلامى) يكتب عن سيدنا محمد (ﷺ) تحت عنوان (هل كان يعتقد صدق رسالته) بروح بعيدة عن التعصب، مبدياً رأيه بإنصاف تام، مدافعاً مبجلاً لنبى الإسلام عليه الصلاة والسلام، فيقول : "زعم بعض الكتاب من غير المسلمين أن صاحب الشريعة الإسلامية إنما قام بهذه الدعوة طمعاً في السيادة (!) ورغبة في ملاذ الدنيا (!) وأما نحن فلا نرى مسوغاً لهذا القول، وتاريخ الدعوة يدل دلالة صريحة على أنه إنما قام بها عن صدق وأخلاق فلم يدع الناس إلى الإسلام إلا وهو يعتقد اعتقاداً متيناً بصحة رسالته، وأن الله أرسله لبث تلك الدعوة، ولولا هذا الاعتقاد لم يصبر على ما ناله من الاضطهاد وضروب العذاب، وقد رأيت أنه قبل ظهوره بالدعوة موضع احترام أهل مكة كافة وأهله يحبونه ويكرمونه، وهو في عيش هنيء ، لما اكتسبه من أسباب اليسار بزواجه بخديجة، واتجاره بأموالها، فأصبح بعد ظهوره بالدعوة وقد ناصبه أهل مكة العذاب، وساموه أنواع العذاب، وأهانوه حتى نقموا على بنى هاشم، لأنهم أهله فتعاقدوا على أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم وكتبوا في ذلك صحيفة أودعوها في جوف مكة"[1].

تقديس زيدان ليهود الدونمة والاتجاه الماسونى أحياناً

هذا ويلاحظ الدارس لرواية زيدان عن (الانقلاب العثمانى) أنه يعظم فيها ويقدس (يهود الدونمة) ويردد ما أشاعته المحافل الماسونية من تشويهات للسلطان العثمانى (عبد الحميد) الذى رفض هجرة اليهود إلى فلسطين. ويسمى زيدان يهود الدونمة أحراراً، وينعت جمعيتهم بجمعية الاتحاد والترقى المقدسة، ويعترف بأنهم (ماسون)[2]، ويصف محفلهم، ويتكلم عن أهداف الماسونية من نيل للدستور، وإنقاذ للدولة العثمانية من الدمار بالطرق السلمية[1].

وهذا ـ بدون شك ـ كذب ودجل من زيدان؛ لأن هدفهم لم يكن سوى الوصول إلى هدم الدولة العثمانية ليصلوا إلى فلسطين، ويتخذوا منها وطناً قومياً يتجمع فيه يهود العالم.

(١) تاريخ التمدن الإسلامى : ٤٦/١ ط دار الهلال، الطبعة الثانية بدون تاريخ تحقيق وتعليق د/ حسين مؤنس.

(٢) الماسونية : مأخوذة من كلمة فرنسية هى MACON التى تعنى بناء، إذ كان منشئوها الأوائل من البنائين.

وليس من الغريب أن نسمع ذلك الصوت الماسوني من زيدان في تلك الرواية؛ فقد أخلص لها إخلاصاً تاماً، حتى إنه ألف حولها كتاباً كاملاً سماه (تاريخ الماسونية العام منذ نشأتها إلى اليوم) (سنة ١٨٨٩).

وقد طبع الكتاب لأول مرة بمطبعة المحروسة بمصر سنة ١٨٨٩م ولا أحسب أن له طبعة أخرى بعدها، وهو أول كتاب عربي يتعرض لتاريخ الماسونية وما جاء في المقدمة يوحي بأن زيدان كان عضواً في جماعة الماسونية وإنما بنينا هذا الرأى على أساس من دفاعه عنها، وعن تحمسه الشديد في الحديث عن هذه الجماعة، حتى وصل به هذا الحماس إلى أنه يتنبأ بظهورها علناً حين يقول: (ولكن سيأتى زمن لا يبقى فيه بين أبناء تلك الجمعية وسائر الناس حجاب أو شبه حجاب، ومن يعش ير ...).

ويبين في هذه المقدمة موقف الناس من هذه الجمعية، حيث يختلفون بين مؤيد لها ومهاجم، وهو يقف في صفوف المدافعين عنها، المؤيدين لها حين يقول:"... على أننا لو نظرنا إلى الحقيقة، لما رأينا في المكاشفة ما يشينها إذ ليس بين أعمالها ما يكسبها إلا فخراً، ولا بين مبادئها إلا ما يرفع منزلتها ويفحم من أراد بها شراً، لأن مبادئها من أشرف المبادئ وغايتها من أشرف الغايات".

ويتحدث في الكتاب عن تاريخها منذ أن أنشئت ويبين مدى الوفاء بكل ما يتطلبه البحث في هذه الجمعية، ويبين في المقدمة الصعوبات التى واجهته في سبيل الحصول على معلوماته عنها، حيث قام "بمكاتبة سائر جهات المشرق التى اتصل بها شيء عن أحوال الماسونية فيها ......". ويقول:

" ويرجع الفضل في تاريخ الماسونية في مصر إلى الأخ سوليتورى أفنتورى زولا رئيس أعظم المحافل المصرية سابقاً".

وأما عن الكتب التى رجع إليها عند تأليفه هذا الكتاب فهى :

١- تاريخ الماسونية - تأليف ر. يبولد.

٢- تاريخ الماسونية - تأليف فندل.

---

(١) تنظر الرواية صفحات : ٢٩، ٤٢، ١٠٩، ١٤٦، ١٦٤، ١١٨، ١١٩.

٣- تاريخ الماسونية - تأليف أرنولد

٤- الشرائع الماسونية - تأليف باتون

٥- التعاليم الماسونية - تأليف باتون

٦- الرموز - تأليف باتون

٧- منشأ الماسونية - تأليف باتون

٨- درجة الهيكليين - تأليف سير بطريق كاكهون

٩- الماسونية - تأليف هوغ

١٠- أسرار الماسونية - تأليف يوحنا فيلوس

كما أنه استفاد "بالانسكلوبيدا الماسونية"

ويذكر أنه في تأليفه هذا الكتاب قد التزم فيه جانب الاعتدال والحياد ويذكر أنه اكتفى ببعض التفاصيل دون غيرها (لما يحول دون التصريح بها من المحظورات).

وقد اكتفينا هنا بنقل أهم ما جاء في المقدمة ولا حاجة لنا بالخوض في تفاصيل هذا الكتاب لما يحمل من أمور خطيرة لا مجال لمناقشتها ههنا.

خاتمة

وبعد:

فقد وصلنا إلى نهاية تلك الرحلة التى قطعنا أشواطها ونحن نتنقل في أجواء الروايات التاريخية التى كتبها جرجى زيدان على مدى ربع قرن من الزمان، وادعى أنها تؤرخ للإسلام، بينما هو في الحقيقة يشوه التاريخ الإسلامى، ويحاول هدم رموزه، وتحريف الكلم عن مواضعه، ويمزج الحق بالباطل، ويخلط بين التاريخ والأوهام، ويتعمد التحريف والدس والمغالطة، صادراً في توجهه هذا عن عمالة أجنبية، وتلمذة على أيدى المستشرقين المتعصبين الحاقدين على الإسلام والمسلمين، وعن تعصب دينى تنكره المسيحية والمسيحيون المعتدلون، الأمر الذى دفعه إلى العبث بتاريخ المسلمين، وتفسير الكثير من حوادثه تفسيرات خاطئة مغرضة، والنظر إلى تاريخنا العربى الإسلامى المضىء بعين السخط والحقد .. تلك العين التى لم تر من تاريخ الإسلام المشرق إلا تلك الفترات الحرجة القلقة التى تمثل استثناء لا قاعدة، فركز عليها، وأغمض عينيه المريضتين الحاقدتين عن الصفحات المتلألئة بالنور في هذا التاريخ العظيم، فصدق عليه قول الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة وعين السخط تبدى المساويا

وقد اتضح لقارئ هذا البحث أننا افتتحناه بمقدمة تعرف بموضوعه وأسباب اختياره مجالاً للدراسة، كما تعرف بالمنهج الاستقصائى الذى اتبعناه وأهميته ودوافع إيثاره على ما عداه .. ونحو ذلك مما اشتملت عليه المقدمة.

ثم انتقلنا الى موضوع الدراسة ، ففصلنا القول عن روايات زيدان، وحرصنا على توثيق تلك الروايات، والتمييز بين الصحيح المنسوب إليه، وما نسب إليه خطأ كرواية محمد علي. وكشفنا عن الأهداف التى صرح بها زيدان في مقدمة روايته عن (الحجاج بن يوسف) وعن منهجه ومذهبه في معالجة الرواية التاريخية، وعقبنا على ما يتسم به هذا المنهج من سلبيات، وأوقفنا القارئ على الطريقة الغريبة العجيبة التى كان يسلكها زيدان في تأليف هذه الروايات ونشرها، ولم يفتنا أن نعلق على سلبيات هذه الطريقة.

ثم انتقلنا فتحدثنا بالتفصيل عن المجالات التاريخية لروايات زيدان ورأينا فيها، وعن إيغاله في التاريخ البعيد لسرد المعلومات، وتحدثنا عن الأباطيل والأخطاء التى تتضمنها رواياته، وأوردنا عشرات الأمثلة المؤكدة لبعده في رواياته عن الصدق التاريخى، وعشرات الأمثلة التى تثبت بما لا يدع مجالاً لشك أنه كاتب تعمد عن سوء قصد، لا عن جهل تشويه السيرة العطرة لأبطال الإسلام، كما تعمد التلاعب بمصادر التاريخ، والعبث فيما أوردته من حقائق ومعلومات، وتقديم الروايات المنتحلة والضعيفة والمغرضة على الروايات الصحيحة المعترف بها. وأثبتنا بالأدلة المقنعة والأمثلة الصريحة أنه كاتب لا يملك موهبة التفسير التاريخى للأحداث، وأنه في الحالات النادرة التى حاول فيها أن يكون مفسراً للتاريخ، مستكملاً للحلقات المفقودة منه قد فسر الأحداث تفسيراً مغرضاً وخاطئاً، وأوردنا من الأمثلة العديدة ما يؤكد ذلك الاستنتاج.

كذلك أثبت البحث أن زيدان دأب على كتابة المجال والمراجع والأبطال الخاصة بكل رواية في ظهر صفحة العنوان، وكأنه يقدم للناس عملاً مسرحياً لا قصصياً. على أنه لم يميز لقرائه بين الأبطال الحقيقيين الذين كان لهم وجود في التاريخ والأبطال الذين اخترعهم بخياله السقيم، فلخلط في رواياته التاريخ بالوهم وفى ذلك من الخطورة على قراء الروايات ماشرحناه فى موضعه بالتفصيل، ثم استعرضنا نماذج عدة من أقوال معاصريه الذين انتقدوا رواياته فور صدورها لأول مرة، وعقبنا على كل قول بما يناسبه من تعقيب.

وكان من دواعى استكمال الدراسة التاريخية لتلك الروايات أن نتحدث بالتفصيل عن تأثره الواضح فى رواياته بانتمائه الدينى المتعصب، وماسونيته المشهودة، وشعوبيته الواضحة.

تلك هى المباحث التى تناولناها في هذه الدراسة التاريخية عن روايات جرجى زيدان الخطيرة .

وليس لدى الرغبة في سرد كل النتائج التى تمخض عنها البحث ، حتى أدع القارئ متلهفاً للإحاطة بما احتواه البحث من تفصيلات، وما شمله من

نتائج، وبخاصة أنه بحث يتناول روايات في غاية الخطورة، وأحرص على أن أدفع القارئ دفعاً لقراءة كل سطر مما كتبت، ففى كل سطر كشف لأبطولة من أباطيل زيدان، وتجلية لحقيقة من حقائق تاريخنا المجيد عبث بها قلم زيدان ليطمس معالمها.

ولعل خير ختام نختتم به هذا البحث هو نص تلك الفتوى التى أصدرها أستاذنا المرحوم الدكتور أحمد الشرباصى، وفيها يقول:

"إن هذه الروايات لا تليق بالمسلم قراءتها، لأنها وضعت لتشويه التاريخ الإسلامى، وتحريف حوادثه، وقلب أموره رأساً على عقب، والنيل من جلاله وجماله، وكأنما كانت هذه الروايات نتيجة لخطة أريد بها مسخ التاريخ الإسلامى في أنظار أهليه، حتى يفقدوا اعتزازهم بما فيه. ولسنا نرسل القول إرسالاً بلا دليل، بل بين أيدينا أدلة وبراهين. فهذه الروايات أولاً تشتمل في كثير من مواقفها على حوادث مصطنعة وأمور مختلقة، ولعل صاحبها يوهم قراءه بأن هذا من قواعد الفن القصصى، لجذب القراء وإثارة الاهتمام؛ ولكن هذا إذا صح في القصة الخيالية، فإنه لا يصح بحال من الأحوال في القصة التاريخية، لأن التاريخ له حرمته وله مكانته، وهو تراث السابقين للاحقين، وصور الأجداد بين أيدى الأحفاد، ولو فرضنا ووجدنا من يتجرأ باسم الفن، ويبيح هذا الاختلاق، في القصة التاريخية، فإنه لا يجوز أن يكون في التاريخ الإسلامى، لأن تاريخ المسلمين وثيق الصلة بعقائدهم ومبادئهم، ومن هنا نراه يستظل بلون من الحرمة أو القداسة فيجب أن يكون بمأمن من تحريف المبطلين وتشويه المغرضين.

ومن مكايد هذه الروايات أنها تصبغ حوادث الأبطال وأعمال الرجال بصبغة غرامية تتمثل في الهيام بالمرأة والخضوع لها والحرص عليها. وكأن العظماء المسلمين في نظر هذا الكاتب لم يكونوا إلا مجّانين تسيرهم العاطفة، ويستبد بهم الهوى. مع أننا حين نراجع تاريخ هؤلاء الأبطال لا نجد في حياتهم متسعاً للغرام الرخيص والهوى العابث، فقد شغلهم القرآن والدين والكفاح في ميادين الشهادة، عن التفرغ لحياة اللهو واللعب، وبذلك خلفوا وراءهم صفحات مشرفات من البطولة، ولكن المؤلف أبى إلا أن يملأ حياة هؤلاء الغر الميامين بالصبوات والصبابات، فأبعد في الاختلاق والافتراء.

ونجد في هذه الروايات أن صاحبها يدس في كل واحدة منها راهباً من الرهبان، يصوره بصورة بطولة، ويظهره بمظهر البطل الذى يدافع عن الحريات، أو يدعو إلى المكرمات، أو يعاون في إتمام الجلائل من الأعمال، فإن لم يختلق راهباً اختلق ديراً يصوره على أنه معقل الجنود المسلمين الهاربين، وحصن المجاهدين المطاردين المضطهدين، وكأن المؤلف يهدف من وراء ذلك إلى أن يجعل لغير المسلمين دوراً في نصرة المجاهدين المسلمين، أو معاونتهم في إتمام مهماتهم، وأحياناً يسرف المؤلف في تشويهه. فيرجع الفضل في فتح بعض الأقطار، كالأندلس مثلاً، إلى جهود غير المسلمين ومن لف لفهم"[1].

والحمد لله الذى هدانا لهذا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ،،

أ. د عبد الجواد المحص

(١) يسألونك في الدين والحياة للدكتور أحمد الشرباصى: ٢/ ٤٨٤.

الفهـــرس

كتب وبحوث للمؤلف

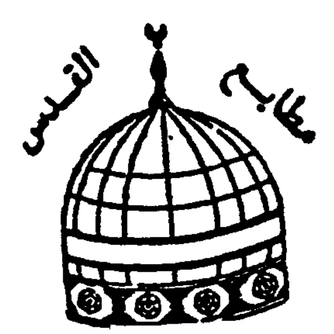
كشف النقاب عن القصائد المتميزة بالالقاب مطابع القدس بالاسكندرية ١٤١٧ ه /١٩٩٦ م
القصيدة المنفرجة وأثرها فى التراث العربى مطابع القدس بالاسكندرية ١٤١٧ ه /١٩٩٦ م
صورة سعاد فى قصائد بانت سعاد (دراسة نصية لاحدى عشرة قصيدة ط الدار المصرية للطبع والتوزيع بالاسكندرية ١٤٢٠ ه / ١٩٩٩ م منشورات مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة
العقد الثمين فى أدب الجاهليين ، الدار المصرية للنشر والتوزيع ، الاسكندرية ، ١٩٩٩ م
حربيات البارودى تحليل موضوعى وتقويم فنى ١٩٩٩ م نشر وتوزيع مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة
أدب القصة فى القرآن الكريم (دراسة أدبية تحليلية كاشفة عن الاعجاز) الدار المصرية بالاسكندرية- منشورات مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٤٢٠ ه / ٢٠٠٠ م
أباطيل الخصوم حول القصص القرآنى (عرض ومناقشة) طبعة الدار المصرية بالاسكندرية ١٤٢٠ ه / ٢٠٠٠ م – منشورات مكتبة النهضة المصرية
الادب الاسلامى بين الأصالة والمعاصرة) طبعة الدار المصرية بالاسكندرية ١٤٢٠ ه / ٢٠٠٠ – نشر وتوزيع مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة
دراسات فى الأدب الاسلامى دار المعرفة الأزهرية بالاسكندرية ١٤٢٢ ه / ٢٠٠١ م
الأحاديث النبوية عن الشعر والشعراء (فى مصادر الحديث والسيرة والأدب) ٢٠٠٢م نش وتوزيع مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة
الدين وقراءة النص الأدبى نشر وتوزيع مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة
صوت الخرافة والأسطورة فى الأدب الجاهلى – منشورات كلية الدراسات الاسلامية والعربية بالاسكندرية
العقد الثمين فى أدب المخضرمين والأمويين (توزيع مكتبة النجاح بالاسكندرية) ٢٠٠٤ م
الاتجاهات النقدية فى قراءة النص الأدبى (معالم تأصيل وثمار تطبيق)توزيع مكتبة النجاح بالاسكندرية ١٤٢٤ ه / ٢٠٠٤م
عوامل التأثر والتأثير فى الأدب الجاهلى (منشورات كلية الدراسات الاسلامية والعربية بالاسكندرية)
نظرات نقدية فى أدب الطوائف والفرق (منشورات كلية الدراسات الاسلامية والعربية بالاسكندرية)

كتب قيد الطبع

تأملات فى اعجاز القصص القرآنى .
قصة يوسف عليه السلام وأثرها فى الأدب
أسرار الأحكام الشرعية فى الاسلام
قطوف من ثمار البيان النبوى .
العقد الثمين فى السباعيات الأربعين من كلا م سيد المرسلين – صلى الله عليه وسلم –
تجديد الخطاب الدينى بين النظرية والتطبيق
الديوان الكبير لابن حجر العسقلانى (تحقيقا ودراسة)
ديوان الشهاب المنصورى (تحقيقا ودراسة)
عين النبع فى مختصر طرد السبع لجلال الدين السيوطى تحقيقا ودراسة
روايات جرجى زيدان (دراسة فنية)
مدخل لدراسة الرواية التاريخية فى الأدب العربى الحديث
حديث المساء (مقالات وبحوث فى الأدب والنقد)
رحلة الساق الواحدة (دراسة فى شعر محمود أبى الوفا)

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٠٠٤/٢١٢٥م



شارع د. النبوى المهندس

بجوار محطة البنزين - المندرة قبلى

ت : ٣٢٢٤٠٧٨

